أساطير الحبّ والجمال

عند الإغريق

تأليف

دريني خشبة

الكتاب: أساطير الحبّ والجمال عند الإغريق

الكاتب: دريني خشبة

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

خشبة ، دريني
أساطير الحبّ والجمال عند الإغريق / دريني خشبة
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣٦٠ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٩٨١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٦٠٣ / ٢٠١٩

أساطير الحبّ والجمال
عند الإغريق

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

هذه طائفة من الأحلام اليونانية الرائعة كان يحزنني إلا يعرفها قراء العربية، على طول ما سمعوا بها، وعلى كثرة ما داعبت خيالهم، وغازلت أحلامهم، فأنا أقدمها إليهم اليوم، بالطريقة التي آثرت أن أروي بها هذه الأساطير ..

أحببت أن أسجل ذلك، حتى لا يدور في روع أحد انني نقلت ما نقلت من آيات ذلك الأدب الذي أغرمت به نقل ترجمة، ولكن نقل رواية، وهي الطريقة التي آثرها شعراء أوربا الحديثة حين قدموا لبلادهم ذلك التراث اليوناني التليد، وهي الطريقة نفسها التي أقرها، وجرى عليها الأستاذ الإنجليزي الكبير "توماس تلفنش "توماس بلفنش" (١٧٩٦–١٨٦٧)، حينما نقل إلى الإنجليزية معظم الأساطير اليونانية عن أوفيد وفرجيل ... فرب أسطورة ليس لها في أصول ذلك الأدب إلا سطر أو سطران، رواها هو في صفحة أو صفحتين، ليباعد بينها وبين جفاء العلم، وليجعلها سائغة في أذواق مواطنيه.

وهكذا فعلت ...

وما دمت قد أشرت إلى الأستاذ بلفنش، فلا بد من الإشارة إلى الأستاذ هـ. أ. جربرH . A . Guerber الذي انتفعت بكتابه الخالد[1]

(1) أساطير اليونان ورومه Myths of Greece and Rome.

في تسوية أساطيري هذه، والذي أغراني أغراء شديداً برواية هوميروس كله، في ملحمنيه العظيمتين "الإلياذة" و "الأوديسة"، كما أغراني بعد ذلك برواية ذلك الأدب التمثيلي اليوناني البارع، الذي بقى للمدينة وللذهن الإنساني، من شعراء الإغريق القدامى: أسخيلوس، وسوفوكليس، ويوريبيدز، مما قدمته إلى قراء العربية في الصحف والمجلات ..

أما أساطير اليوم، فهي من غير شك الفصل الأول من ديوان الأدب اليوناني الحافل، الذي أشفق العرب من نقله إلى لسانهم، خوفاً مما يفيض به من وثنية، على الدين الجديد .. ولم يعد لنا عذر في أن تحول تلك الحجة بيننا وبين الانتفاع بالأدب اليوناني، ولاسيما في طفولته الأولى الجميلة التي أبدعت لنا تلك الأحلام ..

ولابد هنا من الاعتذار عما كان لابد من إيراده في بعض تلك الأساطير، من ذلك اللون من الحب الذي يوشك أن يكون صارخاً .. فقد أردنا أن نعملى القراء سورة صادقة عن الفجر الأول لذلك الأدب اليوناني .. وليس من الصدق أن نخفي بعض ألوان تلك الصورة .. وأن كنا قد حرصنا على إلا نثبت منها إلا أقربها أو ما يكاد يكون أقربها – إلى ما نأخذ به أنفسنا من كريم تقاليدنا.

أما أن هذه الأساطير التي أقدمها إلى القراء اليوم، هي السفر الأول من ديوان الأدب اليوناني، فذلك الحق الذي لا مراء فيه .. فهي على قلتها، تقفنا على كثير من أعلام الميثولوجيا اليونانية، وخصائص آلهتها

وأنصاف آلهتها وعرائس غابها وبنات مائها وسائر سكان ذلك الأولمب العجيب، بما كان يسيطر عليه في عالم الخيال من قبائل السنتور والاوسيانيد والنيريد، مما يجده القراء مبثوثاً في ثنايا هذا الكتاب، تلك الأسماء التي الذي آثرنا منها ما هو أكثر شيوعاً في الأدب الأوربي الحديث، الذي يؤثر الأسماء اليونانية أحياناً، ويؤثر الأسماء الرومانية أحياناً أخرى.

فهذا الكتاب إذن هو مصباح لابد منه للتمتع بجنة هوميروس، وجنات الشعراء الأفذاذ الذين جاءوا من بعده، فشادوا على بنيانه صرح ذلك الأدب .. والنور الذي يرسله هذا الصباح كفيل بتبديد ظلمات ذلك التراث الذهني القديم الذي أبدعته لنا شقيقتنا في ذكريات الماضي .. هيلاس المجيدة.

دريني خشبة

بسيشيه و كيوبيد أروع قصص الحب في التاريخ القديم

كان الليل الهادئ القمر أصفى من قلوب العذارى، وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين، وكان البدر العاشق المسهد يرسل القبل فتنطبع على خدود الورد، وتلثم أعواد الزنبق، ثم تنتشر بالشذى فتعطر أحلام المدنفين!

وكان كيوبيد الصغير يتميز من الغيظ حين انطلق حاملاً سهامه ليقتل بسيشية ابنة الملك، التي أعانت بجمالها كبرياء أمه فينوس!

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفق ماء الشباب في جسمها الريان، فهويت إليها نفوسهم، وخفتت بحبها قلوبهم، وأثروها بعبادتهم من دون فينوس!

وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دلال وفتون، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامة ووسامة وفتنة!

أجل، كانتا دونها فتنة، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لجة من الحسن الغامض ما لها من قرار، و كان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها، وافتتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال!

ودعت إليها ابنها ربة الحب، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة وجسمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتها إلى هذه المخلوقة التعسة:

أفيرضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لهما شعب من العباد المخلصين؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم، وهم كما تعلم مغيظون مني، فيقولون ها هي ذي فينوس التي أذلت كبرياءها امرأة، وصرفت الناس عن عبادتها غادة؟ اذهب إذن فتربص لها، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى "هميدز"، وبئس القرار! وأنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى، او يفتتن بها بلوتو وملؤه ..

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حفت بالورد: وعبقت فيها أرواح البنفسج، وتأرج النرجس الغض واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاة بيئة، كل ذنبها جمالها، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها، وفنوا فيها ..

وكبرت في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة، وتفيض بالآلام فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل: وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد شعراً وسحراً و موسيقى صامتة، تعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفاق!

وصدح بلبل غرد في هدأة الليل الفضي، فانتفض الإله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى .. لا يأبه بجمال الطبيعة الساحرة، ولا يأسر لبه هذا البهاء الذي يغمر الكون حوله، حتى كان عند أسوار القصر الملكي الراقدة في طوفان زاخر من أزهار الشبر والياسمين والبابونيا وبرفتين من جناحيه الصغيرين كان في حديقة القصر ..

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامي، متبختراً، دون أن يلمحه الحرس ..

وانفتل في بسيشيه النائمة، واندس خلف الستائر الحريرية يوتر القوس الذهبية وينتقي من كنانته سهماً تقطر المنية من سنانه، ويرقص الموت على شباته!

وتقدم نحو الفتاة ...

يا للجمال النائم فوق الأريكة! ويا للفتنة العائمة ملء السرير!

لقد كانت متجردة كلها! وكان نهدها البارز المثمر متحللاً بثديين ناضجين يتحلبان لذاذة ويلتهبان اغراء!!

ونامت هذه الذراع هنا، واطمأنت تلك الذراع هناك، لدنتان وان كانتا كالمرمر، رخصتان وان كانتا لتمثال معبود!!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين، ويهوم من تحتهما، كانه يرقيهما من نفسه، أو ينفث فيهما من روحه! ..

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية، رقد مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة متلألئاً في شعاعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة، رسولاً من لدن ديانا[1] البارة، أقبل ليقول للآله الأصغر: "مكانك أيها الرامي الحبيب! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى، وتجرعه كأس المنون؟! أفتح له ما انغلق من قلبك تنعم به، فانك لن تجد في ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البريء ..!".

وخطا كيوبيد خطوتين، وحملق في وجه بسيشيه ..

وبهره الجبين المشرق، والهدب الناعس، والخد الأسيل .. وأخذ يليه هذا الشعر العسجدي تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاء ورونقاً، فآلى لا يهدرن هذا الجمال البارع، وأنثنى مسلوب اللب، مشدوه القلب، موزع الفكر، وانتزع السهم فألقى به في كنانته .. وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبي من سهام الحب، ملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة، فتقدم نحو بسيشيه في خطى اللهفان، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان.

---

(1) ديانا مي ربة القمر، وهي التي اكتشفت كيوبيد، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لإنقاذها.

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوة، وعاد أدراجه عاشقا وأمقا لا يبالي بسخط أمه فينوس!!

* * *

وانصدع عمود الليل، وتنفس الصبح فهبت الأرواح النائمة، وأقبلت فينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات في قصر الملك .. بيد أنها، بدلاً من ذلك، رأت بسيشيه، بسيشبه بعينها، تمرح في حدائق القصر، وقد برزت عرائس الماء من الغدران الصافية تحييها وتغني لها، وتضفر لها أفواف الزهر ..!!

وحنقت ربة الجمال والحب، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً في عيني الفتاة!!

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها، وأغرت بها بعض خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر، وطفقت تصرخ وتعول، ولا يدري أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول .. وازدحم حولها أبواها واخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون..

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاة وأشجاناً!!

وكرت الأيام ..

وأنسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر، وفي نفسها أن تلقي بحمل الحياة من شاهق. فتستريح مما يعطيف بها من آلام!

ورآها كيوبيد ...

وظلت هي ترقب المرج الهائج، وتشهد اليم المصطخب، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان، ثم صرخت صرخة هائلة، وألقت بنفسها من عل ..

وكان كيوبيد قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس، إله الريح الجنوبية، وأطلعه على ما يكن من الحب: "لهذه الفتاة التي تكاد تلقي بنفسها من قنة الجبل يا صديقي زفيروس. فإن رأيت أن تكون لك على هذه اليد، أذكرها لك أبد الدهر، فخذ أهبتك، ولا تدعها تغوص في اليم، بل تلقها في يديك الرفيقتين، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطئ المنضور بالرياحين، فدعها ثمة، فقد أعددت لها مستراداً وملعباً ..".

ولشد ما دهشت بسيشيه إذ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأة فيلتقطها في يديه الكريمتين، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرحب، كأنه أريكة من أرائك الجنة، ويخوض بها أليم المضطرب فتعنو له

الأمواج ويسجد من تحته الثبج، ويصير البحر في لمحة كأنه مرآة صافية ملساء، كأنها السماء ..

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يجيبها بتمتمة، وينطلق في البحر الذي يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه..

وتجلس بسيشه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول، لترى هل هذا الذي هي فيه حلم أو في قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة؟!

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هي التي تنفذ إلى دار الموتى، وأنه ليس في دار الموتى شمس ولا أباء، وهي تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير، وهي ترى إلى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر، وتنشر أنوارها في الأكوان جميعاً ..

إذن هي لم تمت، وهذا الطيف الكريم الذي أنقذها من الموت، والذي ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة، وإذن فلتنهض ولتضرب في هذا الفردوس المنعزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر ..

ومضت في غياض وأرباض، ورأت في الأفق القريب قصرا باذخاً ذا شرفات وأخياد، فيممت إليه، وما كادت تدنو منه حتى فتحت بوابة السور الكبرى على مصراعيها، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفي بها وتحيي و تبيي! ..

وفركت بسيشبيه عينيها كذلك!

وظنت أنها تحلم، ولكن كل شيء حولها كان يحدثها أنها ترى رؤية حقيقية لا رؤيا منامية .. فدخلت القصر، وفي نفسها من الحيرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف في كل خطوة ويزداد .. كل خطوة ويزداد ..

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق.. ولكن عبثاً .. ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها، تقودها إلى المخدع الوثير الذي أعدته العناية لها ..

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه:

– ويدهشني أنكم تحتفون بي. وتبالغون في إكرامي، وأنا لا أرى منكم أحداً، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز؟[1].

– كلا أيتها العزيزة، ولكنا أمرنا إلا ننكشف لك ..

– ومن الذي أصدر إليكم هذا الأمر؟

– ونهينا أيضاً عن ذكر اسمه ..

– أنتم كرام ولكنكم تضايقونني إلى حد الإزعاج ..

([1]) قلنسوة هرمز (طاقية) الإخفاء.

– "ليفرخ روعك أيتها العزيزة، ففي المساء، تلقين الأمر الكريم صاحب هذا القصر، وصاحب القصور الكثيرة في أطراف الأرض.

– وهل لي أن أجول جولة في قصركم المنيف عسي أن تذهب هذه الوحشية الجاثمة على قلبي ..؟

– ولم لا؟ .. بسيشيه العزيزة!

– بسيشيه؟.. ومن أنبأكم باسمي؟

– رب هذا القصر أيتها العزيزة ..

وجالت الفتاة في القصر الجميل المنسق، و كان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة، محيية بابتسامة خفيفة، أو انحناءة مؤدبة ..!!

وكانت التماثيل في زوايا الغرف، وأوساط الردهات، وفي حنايا الحديقة، وفوق الربي المكسوة بالسندس الرطب، تحيي الضيفة، كان حياة تدب في مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها فتتحرك الأذرع، و تومئ الرؤوس، وتمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ ..

وكانت العنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبث فتسمعها أنشودة الخلد، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل منها حتى ينتهي من غنائه الحلو، وتغريده الرنان.

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس.

* * *

فلما كان الغسق[1] سمعت إلى الباب ينفتح، ويدخل فتى خفيف الخطى، ويقبل عليها فيحيي أحسن تحية بأرق صوت، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها.

وكان الظلام شاملاً، فلم تستطع بسيشية أن تتبين وجه الجالس إليها أو خلقه، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمتزج بصوته الحنون، وكانت تحس كأن عبوات تكاد تخنقه، لأنه يريد أن يبوح بشيء يمنعه الخجل من البوح به .. واقترب منها ..

وأخذا في حديث شهي، ولكن الحياء كان لا يزال يعقد لسانيهما ..

واقترب منها حتى تماسست الأجسام المرتجفة.

وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا، ثم دنا الفم من الفم، واستراح الخد على الخد، وبدأ طوفان من القبل ..

---

(1) الغسق: أول ظلمة الليل.

وتمتم كل من الحبيبين بهذه الكلمة السماوية الخالدة:

– .. أنا .. أحبك.

– كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذي أنقذتني من براثن الموت!

– أجل يا منية النفس، ورجية القلب، بمعونة الإله الرفيق زفيروس.

– أفأنت إله إذن؟

– لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً..

– إذن ما أسمك؟

– ولا هذا أيضاً!

– أحب أن أراك، فهل تأذن بايقاد المصباح؟

– إذا حاولت أن تريني، كان فراق بيني و بينك!!

– أنت تزعجني ..

– ولم أزعجك؟.. ألست قد أنقذتك من الموت. وأسكنتك هذا القصر المنيف، ولست آمن عليك!

– برغم هذا فانك تزعجني ..

– هاتي قبلة .. ودعي هذا الحديث الشاجن ..

– "..؟..".

***

وظل يزورها كلما أقبل الليل، فيمكث معها حتى مطلع الفجر آخذين في عناق وقبل، وحديث ألذ من قطع الروض، وأروح من رفيف النسيم، ثم يفصل[١] على أن يعود لميعاده من اليوم التالي .. وبسيشيه راضية قانعة، لا يضيرها إلا تعرف من هذا الحبيب الوفي .. ولا ما يكون أسمه ..

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطئ الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل، فتعانقهما عناقاً حاراً، ويغمرها للقائهما فرح كبير، و تعود بهما إلى القصر، و تطوف معهما حدائقه وغرفاته، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق، و تدخلهما "هيكل الحب" كما اتفقت وحبيبها على أن يسميا المخدع ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار تلقاهما ..

وتكون الغيرة قد أنشبت أظفارها في فؤادي الفتاتين، ويكون الحسد قد شاع نفسيهما الخبيثتين، فتضمران لها الشر المستطير.

---

(١) يمضي.

– ولكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه؟ ألا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعلاة؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظر إليه؟ أليس يخشى أن تفزعي منه إذا رأيته على حقيقته؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشي؟ لا يا أختاه! نحن نخشى أن يجفوك يوماً فيقتلك .. لابد أن تأخذي حذرك منه١ ولا بد أن تنتهزي فرصة يكون غارقاً في نوم عميق فتوقدي المصباح وتنظر إليه، فان كان وحشاً أو هولة، فإليك هذا الخنجر المرهف فاغمدوه في قلبه واستريحي منه، وعودي معنا إلى ابنا الملك فانه جد مشتاق إليك ..

ودفعتا إليها الخنجر المسمم بفلهما، وولتا عنها تختبئان في أجمة دانية ..

وفعل كلامهما في قلب أختهما فعله، فلما كان الليل، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب، نهضت بسيشية إلى مصباحها فأوقدته، والى الخنجر فشرعته، وذهبت تنظر إلى العاشق البريء ..

فماذا رأت؟ أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض! ..

لقد كان نائماً حالماً، فيه دعة و فيه فتون .. وملأ الفتاة حباً .. واهتز المصباح في يدها .. فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته .. وفتح عينيه .. فرأى إلى الخنجر المرهف في يمين بسيشيه ..

يا للهول ..!!

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة، ورف بجناحيه الصغيرين وقال: "بسميشه! يا شقية .. وداعاً .. فلن نلتقي بعد اليوم!".

وشماعت الحسرة في قلب الفتاة فسقطت على الأريكة من الجزع والاعياء ..

***

ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه في شدة وعنف، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفعوانات هائلة تنفث الموت الأسود من أنيابها البارزة الحواني، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد، ويكاد ينقض، فهرعت إلى الخارج مهرولة، وهرعت في أثرها المخاوف والأشجان، يحدوها الذعر والفزع الشديد.

ونظرت في السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو اليه، بل وجدت سحباً قاتمة في المشرفين والمغربين، والودق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدوح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليباب!

وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت، وترجم وجهها الكاسف المغضن بجمرات البرد أيان ولت.

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطئ كالذي يتخطفه الشيطان من المس، فلما لم يلب نداءها أحد، انثنت نحو القصر، وطوفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير الضخم .. ولكن .. هيهات! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ، ولم يكن غارقاً هذه المرة في الطوفان الزاخر من أزهار الشيبر والياسمين والبادونيا، وكان عالياً على غير عهدها به، حتى يكاد يستتر وراءه القصر الباذخ، فلما استيأست من الدخول، وشعرت بقلبها يتحطم، وبنفسها تذهب شعاعاً، استلقت على الكلأ، واستسلمت النوم ممتلئ بالأشباح.

وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر، وفركت عينيها تخال أنها تحلم، ولكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجرات قليلة من الشباهبلوط، وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء المنير.

ويكون صوابها قد ثاب إليها، فتيمم شطر الشاطئ تتفقد وروده ورياحينه، ولكنها لا تجد إلا آلافاً من السراطين الميتة لفظها البحر بفعل العاصفة، والا أكواماً من الودع والمحار تجلل كثبان الرمال الممتدة فوق الجزيرة، كأنها قوافل من آلام بسيشيه وأشجانها!

"ويلاه! ..

"ولقد حملت إليك أيتها الجنة الصغيرة وبردك برد الشباب، وريعانك ريعان الصبي، وفي أعطافك تنهل سلافة الحب، وتحت شطئانك ترقص

عرائس الماء، وفي غدرانك تترقرق أمواه الهوى، وكل ما فيك تدب فيه الحياة ناضرة

"أفهكذا يذبل شبابك، ويذوي ريعانك، ويغيض حبك وتقفر شطئانك، فليس يرف فوقك إلا هامة، ولا يهتف فيك إلا صدى، ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم.!

"ويلاه! ..

"لقد كنت أفرك عيني أحسبني منك أيتها الجنة في حلم فالآن أفرك عيني أرى هل أنا من خرابك اليوم في حلم ؟!

"لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة، فلماذا لقيت أختي؟! اين ذهبتا؟! أحسبهما ذعرتا من العاصفة وفزعتا من الزلزال، ففرتا .. فصبر جميل!".

***

هكذا ظلت تبكي بسيشيه، وهكذا غبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر أوبة حبيبها، ولكن. بلا جدوى!

وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سغبها، و ترشف من بقية الماء في الغدير رشفات تبل بها أوامها، ثم تعدو في الجزيرة باحثة عن .. لا شيء؟

ووقفت يوماً عند ضفاف الغدير ترتوي، فما شدهها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد، والغدير يتسع ويتسع، حتى تكون على عدوة نهر عظيم دافق، تزخر أمواجه وتجرجر أواذبه، ويبدو لها أن تلقي بنفسها في أعماقه، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن الطويل الممض ... وأنها لتنظر إلى الماء فيجيش قلبها بالذكريات، وتفيض عيناها بالدمع، ويشحب جبينها الكاسف الحزين، ثم يتأود شصتها اليابس الهش، فتنحدر إلى اليم، وتتلقفها اللجة.

ولكن رب النهر الذي كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها، ويصبح ببناته عرائس الماء فيأتين من كل فج، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعبنها ..

وتأنس بسيشبه إلى العرائس الحلوة، ولا يخجلها أن تأخذ معهن في حديث حبها، فإذا سألنها عن صفة حبيبها، قالت: "كان صغيراً كالطفل إلا حين يكون في ذراعي، مسنداً رأسه على صدري، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن. وكان طيب الأنفاس، فما قبلني أو قبلته إلا شممت عبق الورد في فمه، وأرج البنفسج في خده. وكان إذا عانقني أو عانقته، تحسست له جناحين على ظهره، صغيرين ناعمين، فاذا سألته عنهما، أنكر علي وصرفني برفق ودعة عن الحديث عنهما، فنأخذ في أمور أخر. وكان يحمل قوساً من ذهب ما تفارقه، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب .. وما دهاني في الليلة المشؤومة إلا أن أراه

يثب من النافذة. فيحلق في كبد السماء كأن له قصراً فيها .. فبحق زيوس عليكن يا عرائس إلا ما أعلمتني من هذا الحبيب، فأنتن بنات الله مبارك، ولابد أن يعرف أبو كن من أمره كل شيء ..".

وصمتت بسيشبه، ونظرت إلى العرائس فراهن يحدجنها بنظرات دهشة حائرة، ثم يتهامسمن، ثم لا يحرن جواباً، فقالت لهن:

"أنتن تزعجنني يا عرائس، فهل هكذا يستقبل الضيف الديكن؟".

فقالت كبراهن: "لا عليك يا فتاة، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الأرض حين عصيت أمر كيوبيد؟".

– كيوبيد؟! .. ومن كيوبيد تعنين!؟

– د كيوبيد بن فينوس، فهو هذا الذي كان يهواك و كنت تهوين؟!"

– كيوبيد الإله؟ كيوبيد حبيبي! يا ويح لي .. لابد أن يعود لي إلهي الجميل الحبيب .. لن تحلو لي الحياة بدونك يا كيوبيد ..".

هامت بسيشيه على وجهها في أقصى الأرض، وكلما مرت بروضة أو غيضة، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمت بحفافي غدير، برزت لها عرائس الماء فشكت اليهن، وسألتهن أن كن يعرفن أين يأوي كيوبيد؟و قالت لها عروس:

– "أترين يا فتاة إلى هذا الجبل البعيد الذي يحمل السماء بروقيه؟ إذا كنت عنده فتلبثي حتى يعود بأن[1] من صيده فتعلقي به، وأذرفي من دموعك تحت قدميه فإذا هش لك وبش، فأذكري له حاجتك قضها لك: أو يدلك على من عنده قضاؤها".

– ومن عسى أن تكون بان يا أختاه؟".

– "رب المراعي، وإله الصيد، وحامي القنص. ألم تقربي له؟ ألم يفعل أبواك؟".

– "بل فعلنا ..".

ونهدت إلى الجبل وكأنما بها مس من الجنون، وجعلت تطوف به حتى مالت الشمس إلى الغروب، فرات (بان) قادماً يدب بحافريه، ويردد في الأكام ناظريه، فلما لمحها أقبل عليها دهشاً متعجباً، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها، وسباه منظرها.

وشكت إليه، فما ها لها منه إلا قوله: "تعسة! أنت غريمة فينوس!" فقالت، وفي عينيها دموع تخنق منطقها:

غريمة فينوس؟ ومالي أنا ولفينوس "فقال بأن: "جمالك هذا جني عليك .. لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب إلى عبادتك أنت أيتها

(1) ورد ذكره في بعض الأساطير باسم كونسنتيس. ولا يزال الرعاة الانجليز يتغنون بحاميهم بأن إلى اليوم.

الشقية، ولذلك حنقت عليك، وأصابك من الأذى ما أصابك .. اسمعي يا فتاة .. لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير، هل تعرفينها؟ أم بر سفونيه، فتاة الربيع التي خطفها أخي بلوتو لتؤنسه في هيدز: مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوبيد وهيامه بك! بك أنت! أليس اسمك بسيشيه؟".

– "..؟..".

– "لا تحملي إليها إذن. أنها ليست بعيدة من هنا. أنها شفيقة رفيقة، وهي ترثي لأمثالك من العاشقات الوامقات، تحدثي إليها عن كيوبيد واستمعي إلى ما تقوله لك وتشير به عليك .. أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة؟ أنها هناك تنتظر ابنتها في أوبتها من هيدز".

وعجلت إلى الغابة، ولقيت ديميتير الطيبة الوقور: فانحنت تحييها، وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين، وتخاذلت فخرت مغشياً عليها، وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب، فكان الزهر يثبت حول بسيشيه كلما انتشرت قطرات على الأرض، فلما أفاقت، بهرها هذا السرير الربيعي من منضور الورد يحف بها، ويحنو عليها ..

وبسمت ديميتير، وواست الفتاة الوالهة وآنستها، ثم ذكرت لها انها رأت كيوبيد بكرة ذلك اليوم، وفي كتفه جرح دام أحدثته فيه أمه فينوس، لماذا لا يدري أحد! – ".. فإذا كان لابد لك من لقاء كيوبيد، فاذهبي إلى فينوس وتبتلي إليها، وادخلي في خدمها وحشمها، وأثبتي لها بتفانيك في

طاعتها أنك من عبادها المخلصين، عسى يا بنية أن ترضي عنك، ويذهب عنك هذا الحزن" ..

ثم قادتها إلى قصر فينوس، وزودتها بما ينبغي لها من النصح، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر برسفونيه.

وبرهنت بسيشية على حسن إخلاصها وجميل توبها، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به، فكانت تقوم بما تكلف به وتؤديه خير الأداء.

وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها فينوس بالتوجه إلى هيدز – دار الموتى – واقتحامها، ثم لقاء برسفونه، ربة الربيع، وزوج بلوتو، وسؤالها صندوق الطيب الذي تدهن منه العجوز الشمطاء، فيرتد إليها صباها، ويتدفق ماء الشباب في أعطافها، وتعود كما كانت، شرح صبي، وعنفوان شباب!

وأسقط في يد بسيشيه! ولم تدر كيف السبيل إلى هيدز! ولكنها حين ذكرت برسمفونيه، بدأ لها أن تذهب فتستشير أمها ديميتير عسي أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحتها. فذهبت إلى الغابة، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع ابنتها، لتعود أدراجها إلى هيدز، إذ كان الربيع الحلو قد صوح، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره[1].

([1]) الربيع والصيف فصل واحد والثناء والخريف كذلك.

وهشت لها ديميتير، وعقدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة، ولما حان موعد الافتراق، أبدت بسيشيه رغبتها في أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها في ظلمات دار الفناء، فلم تعارض الفتاة، بل أذنت لها راضية(١).

وسارا بين صفين من أرواح المرتي تفنى وتنشد .. وتبكي!؟

وكم كان عجب بلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته، وبلغ به التأثر مبلغه، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة ..

وتلطفت بسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين، فوجمت برسفونيه، وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب، لولا أن ذكرت الفتاة أن فينوس هي التي أرسلتها لتطلبه وتجيئها به . فنهضت پرسفونية إلى دولاب قريب، وعادت بالصندوق، ترتجف به يدها العاجية الجميلة، وقدمته للفتاة وهي تقول:

"لا تفتحيه .. لا تفتحيه أيتها الصغيرة!".

وأستأذنت بسيشيه، وعادت أدراجها إلى .. هذه الدار الأولى ..

وفي طريقها إلى قصر فينوس، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبي .. وذكرت كذلك تلك الليالي الطوال التي ظلت فيها مسهدة العينين تبكي

---

(١) في بعض المصادر أن زفيروس هو الذي قاد الفتاة إلى هيدز.

كيوبيد وتحن إليه، حتى شفها الوجد، وأوهنها السقم، وبرح بها الهيام الشديد، فتحدثت إلى نفسها تقول: "فلم لا أذهن بقليل منه وجهي و بشرتي؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت. مادمت أطمع في لقاء كيوبيد؟ أن ربة هيدز حذرتني من فتح الصندوق، لا أدري لماذا؟ فإذا كان مابه شر، فلم تريده فينوس الجميلة؟ لا .. لا بد أن أتطيب به، وليكن بعدها ما يكون!

وداعبت أناملها الصندوق ففتحته .. ولكن .. وا أسفاه لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر ..روح النوم .. ولقد وثب في وجه بسيشيه فحلق في عينيها الزرقاوين الصافيتين، ثم ما هي إلا لحظة حتي انكفأت المسكينة على الحشيش المندي تغط في نوم عميق!

وكان كيوبيد يتنزه في الحدائق المجاورة، فما دهاه إلا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلأ، وصدره يعلو ويهبط، كان كابوساً مستقر عليه.

ودنا إله الحب من بسيشيه، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول، وثار في قلبه الحنين إلى الليالي المقمرة التي كان يقضيها إلى جانب الرشأ الغرير، الذي يترنح أمامه في قبضة الروح الشرير .. روح النوم!

ونظر كيوبيد بعينيه السحريتين، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعاً هائلاً .. فثارت فيه نخوة الوفاء، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة، حتى قهره، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه، ودفنه في غور من الأرض.

ثم تقدم إلى حبيبته، وطفق يروح على وجهها، ثم أيقظها بقبلة أهتز لها الروض، وطرب الورد، وشاعت في الطبيعة الضاحكة أسراً وسحراً!

"أختاه! انهضي! انظري إلي! هأنذا كيوبيد! هلمي فلن نفترق بعد اليوم!".

وأغدا السير، حتى إذا كانا في دولة الأولمب صاح كيوبيد في معشر الآلهة: "أن اشهدوا أيها الأرباب، لقد اخترت بسيشية الجميلة زوجة لي مباركة .." وطرب الآلهة، وأقيم المهرجان الغخم، ورقصت ديانة ربة القمر، وعزف أبوللو موسيقاه، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التي تغني .. ومنذ ذلك اليوم وهي ترف بأجنح فراشة جميلة في جنة الأولمب، والى جنبها حبيبها كيوبيد.

إيخونركيسوس

(الفاتنة التي أصابها البكم، وللجميل الذي عشق صورته)[*]

كان زي وس – كبير آلهة اليونان – يتعشق فتاة حلوة الدل، بارعة الحسن، رقيقة الشمائل، تدعي يو. وكان، برغم زوجاته الخمس أو الست، يختلف إلى حبيبته في الخلسة بعد الخلسة، يؤانسها ويسامرها وتؤانسه وتسامره، ويبل فمه الظامئ من ثغرها الراوي بقبلة .. أو رشفة ..

وكانت أولى زوجاته (حيرا) هي التي تزعجه بما تبث حوله من الرقباء وتنشر من الجواسيس، يحملون إليها كل حركة من حركاته. وكان هو يضيق بكل ذلك، ولكنه لا يستطيع إلا أن يداهن ويداهن .. وتبالغ في المداهنة، الشدة شغفه بحيراً، ولانه بحس في الخضوع لها لذة أولمبية لا تعدلها لذة .. إلا لذة تدليله لحبيبته يو.

وكما كانت حيراً تمكر مكرها في كل حين، كذلك كان الإله يمكر مكره.

---

[*] آثرنا عدم ترجمة ايخو – لو اكو – بما يرادفها في وفي لفظة (صدى) لأن التسمية يونانية وقد نقلها الرومان منهم ثم ذاعت في كل اللغات وكذلك أثبتت لفظة نركيسوس (نرجس) ليونانيتها أيضاً.

أراد أن يشغلها عنه بملهاة تذهب من وقتها كل يوم في بساعات يقضيها في أحلامه الغرامية بين يدي يو، ملتذا قوامها الخصب، مستمتعاً بجمالها الفينان، سابحاً في هذه اللجة المترعة بالمفاتن، في كل جارحة من جسمها الممشوق ..

وقد سنحت له الحيلة ..

حدثها عن فتاة ناضرة الشباب، ريانة الأهاب، عذبة اللسان، وقادة الجنان، تعرف من قصص الحياة وأنباء الدنيا ما لم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم! وكانت حيراً، ككل الأنثيات، مولعة بالثرثرة مشفوفة بالمعرفة، تبغض الصمت وتغرم بالكلام الطويل الموشى. وهي مع ذاك طلعة، بقدر ما هي أذن، تتكلم كثيراً، وتثرثر كثيراً، وتسمع كثيراً ..

وانطلقت إلى الفتاة، فشغفت بها لأول لقاء، ووجدتها كما حدث زوجها فياضة القول غزيرة القصص، تتدفق في حديثها تدفق الخمر في الكأس، حتى إذا استقرت في مكانها من الجسم، شاعت حمياها فيه، فأطربت، وأرقصت، كأنها عصرت من حديث هذه الفتاة!

ثم جعلت تتردد عليها، وما تكاد الفتاة تفرغ من إحدى قصصها العجيبة حتى تأخذ في أعجب منها وأغرب، وهي بين الآونة والأخرى ما تني تنمق حديثها بالنكات البارعة، والملح الرائعة، مرسلة المثل في مقامه، والحكمة في موضعها، في غير كلفة أو عناء، ثم هي كانت رقيقة دقيقة، لا تمل السامع ولا ترهق الناظر. وكانت تقبل على سمارها وكأنها تختص كلا

منهم بقلبها، وكأنها تلقي إلى كل منهم بقرارة نفسها، حتى ليحسبها كل له وحده بما يحسبه تؤثره به من عطف، وتغمره من ود، وتزجي إليه من محبة ..

وكانت حيلة صائبة من زيوس، شغل بها حيراً طويلاً.

ليفرغ هو إلى يو .. فيا للآلهة!!

ولكنها شعرت من زوجها لفحة الصد، وأحست فيه انقباضاً وجفوة، فوقر في نفسها أن لابد من أمر، وأن هناك سراً أي سر، فقالت لتكشفن ما تغفلها فيه.

وبثت عيونها، وأرسلت أرصادها، حتى استوثقت مما كان بينه و بين يو، وأدركت أنه قصد إلى إلهائها بهذه القصاصة الخبيثة ليفرغ هو إلى لباناته وأوطاره!

ولا ندري ما ذنب الفتاة التي ملأت أذني حيراً سحراً، ونفثت فيهما موسيقى وألحاناً؟ لقد ظلمتها زوجة الإله الأكبر، التي تحمل بالباطل لقب حامية النساء وحافظة الأجنة، حين أقسمت لتسلبنها الطلاقة والذلاقة، ثم التسلطن على لسانها العي والحصر يشقيانها ويعذبانها!

لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سبباً في تمادي زوجها في غي حبه، وأبعاده في ضلالة هواه فتفثت في عند سحرها، ثم قصدت إلى الفتاة المسكينة فنهرتها. وأرسلت عليها شواظاً من غضبها، وقذفتها برقية

من رقاها المهلكة، لم تستطع بعدها أن تلجلج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما في نفسها ...

و قهقهت حيراً حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع، لم شاءت الخبيثة أن تظهر آية أخرى من آيات غدرها، فقالت، بعد أن نفتت نفثة ثانية: "أنا أسميك أيخو، وأمن عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها في ذيل كل كلام تسمعين ... اللفظة الأخيرة فحسب يا ايخو ..".

فرددت الفتاة المسكينة: "ايخو!!"

أما يو، فقد نفذت إليها حيراً وصبت عليها من جام سحرها ما تحولت به إلى بقرة صفراء فاقع لونها..

تسوء الناظرين، ولهذا حديث طويل مشج ندعه الآن، لنرى ما كان من أمر ايخو ..

دهشت الفتاة لبيانها أين ذهب، ولصوتها الجميل أين ولى: وللرخامة القضية التي كانت تترقرق من فمها الشتيت كيف ضاعت، ولهذا السحر الدنيء كيف قضي على أولئك جميعاً؟!

لقد بكت كثيراً، وتوسلت إلى الآلهة، ولكن ... أين الآلهة؟ لقد تصاموا جميعاً، لأن حيراهى القاضية، ولأنهم يشفقون أن تفسد أسباب السماء كما أفسدت الأرض على عرائس البحر!

وأطلقت ساقيها للريح، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات أفياء، ثم أنها اتخذت لها مأوى في أصل سنديانة ضخمة الجذع، معروشة الفروع وأرفة الافنان، وأقامت ثمة تجتر أحزانها وتسعر أشجانها، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقي، وتسكب بين هذا وذاك دموعاً ساخنات وعبرات غاليات! وبينما هي سادرة في كهفها، مستغرقة فيما آل إليه أمرها إذا بصحب يافع من الشباب اليانع يمرون ببابها، من دون أن يروها، وهم يتحدثون أحاديث الصبي، ويتسامرون سمر الفتوة، ناعمين بأشهى مناعم الحياة.

وظلت ترقبهم وتستذكر أيامها الخوالى، إذ الشمل مجتمع، والرواد محدقون، مرهفة آذانهم، شاخصة أبصارهم، فاهتزت هزة المحموم بالشجن، المروع بالشجى!

وأطلت من كناسها، فرأت الغلام الإغريقي المشهور، "نركيسوس" الذي دله الآلهة بجماله، وتام عذارى أثينا بنضارته وأشراقه. رأته يتخلف عن أصحابه، مأخوذاً بجمال نرجسة حلوة اقتطفها من غصنها المياس وفنها المياد، ثم وقف يحدق فيها بعينيه المعسولتين، اللتين لونتهما شمس الجنوب بهذه الصيغة السحارة، وكمنت ملأهما يعاسيب الفتنة، تنتشر منهما في دنيا القلوب!

والسبيل في الغاب ملتوية متداخلة ... تيه يضل فيه العابر، ويباب أخضر لا يهتدي فيه السائر، هنا منعرج لا يصل منه الإنسان إلى أمن،

وهناك منحنى لا ينتهي إلى سلام. ولقد مضى الدليل مع الصحاب، ولبث نركيسوس وحده يضرب أخماساً لأسداس.

ولم تستطع أيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والألباب .. فأحبته بكل قلبها، وأرسلت في نظراتها إليه نفسها تتمرغ تحت قدميه، وتهمهم بين قدميه، انها خلقت له .. لا لها!

ولكن كيف السبيل إلى التعبير عن هذا الهوى الملح، والحب المخامر، ولسانها في عقال إلا من المقطع الأخير، كل صائح، وهتاف كل هاتف؟!

وراحت تقتفى أثره، من غير أن تشعر هي، ودون أن شعر هو! وتقص خطاه وهي لا تعي ما تفعل، وهو لا يدري كذلك، فكان دبيبها كدبيب القطا، او كوثب الضفادع . على أن حركة غير مقصودة أتت بها أيخو جعلته يعتقد أن أحداً من سكان الغابة يتبعه، فصاح قائلاً:

"من؟ ...".

"فرددت المسكينة نداءه: "من؟..."

فقال: "هل من أحد هنا ...؟".

وأرسل هذا السؤال في رعب خفيف، فرددت ايخو اللحظة الأخيرة: "هنا ...".

فبهت نركيسوس، وقال، وقد خال المتكلم امرأة: "هلمي يا فتاة .. هلمي ..".

فرددت أيخو اللفظة الأخيرة.. "هلمي ...".

فزادت حيرته: وتضاعف خباله .. وقال:

"لم لا تأتين إلى، وليس هنا أحد يرى؟ ولا إنسان يشهد؟".

فثار كامن الهوى في نفس أيخو، و نطقت اللفظة الأخيرة: "لا يشهد؟" بكل ما تركت لها حيراً في قرارة لسانها من رنين فضي، وجرس جميل ...".

وعاد تركيسوس يقول: "يا فتاة! ليت شعري ما يحجزك؟ أين أنت أن كنت هكذا تستحيين؟ تعالي ..".

وكأن أيخو أدركت أن الفرصة سانحة للقاء هذا الحبيب الطارئ، فبرزت من مكمنها في غير هيبة ولا وجل، وقصدت إليه تعرض حبها ولظى جواها، ولما لم يكن في مكنتها أن تخاطبه، لتكشف له عما تضم من هيام به، ومحبة له، بدا لها أن تثب إلى حيث هو فتعانقه، وتضم صدره إلى صدرها، ليبث أحدهما إلى الآخر.

ولم تكد تفعل حتى جهد نركيسوس في تخليص نفسه منها، ثم انطلق في الغابة لا يلوى على شيء، كالرئم المروع، والظليم المفزع ..!!

وذلك أنه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب، ولا وقع مرة في شراك غرام، وقد ربكته أيخو حين غمرته بكل حبها، فشرق به وغص، وقال: الفرار .. الفرار!

وتسلط الهم على قلبها فشفه، والشجن على جسمها الناحل فأضناه، وكانت صدمة هائلة ص دعت جوانب نفسها، وزادتها نكالاً على نكال، ثم تتابعت الأيام وهي ما تزداد إلا سقاماً إلا ..

وأضمحلت ... ثم أضمحلت ... حتى غدت .. لا شيء!!

ولا شيء هذه ليست مبالغة فيما حل بها، إذ الصحيح أنها غدت لا شيء، إلا هذا الصدى يتردد في كل واد، ويذهب اثر كل نداء.

وهي إلى اليوم تأوى إلى الغيران، وتتخلف إلى الشطئان وتنحدر مع الريح على جنبات الجبال، تنعي همها، وتندب حظها في النادبين!

وشاءت المقادير أن تنتقم لايخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس الذي حطم قلبها الغض، وقضى على نفسها المحزونة. فبينما كان في طراد عظيم، في يوم قائظ عرج على خميلة ناضرة ملتفة الأغصان ليشرب من الغدد الصافي الذي يترقرق من تحتها .. وما كاد ينحني إلى الماء حتى رأي صورته في صفحته الساكنة، فبهره حسنها، وأخذ يرمقها يقلب مشوق ونفس هائمة، وهو لا يعلم أن الحبيب الذي تامه أن هو إلا ظله، وعروس الماء التي تبلت فؤاده أن هي إلا خياله!!

عينان كبيرتان ذواتا آهداب زانهما وطف، وجبين واسع وضاء مشرق، وخدان أسيلان كخدود ربات الأولمب، وخمل حلو نابت فوق بشرة الوجه يزيده رونقاً وجمالاً، وثغر حبيب كأقحوانه تتفتح، ترف حوله بدية ساحرة من حين إلى حين، وذقن رقيق مستدق يرتفع على عنق يوناني رائع ثم فتنة تغمر ذلك جميعاً!!

خاطبه نركيسوس، ولكن ... وا أسفاه! أنه لا يرد تمتمة، ولا يجيب إلا كما تهمهم الريح!

ومد يده ... فمد الخيال يده، واستطير صاحبنا من الفرح، ظانا أن حبيبه تواق إلى ما يريد!

واقترب بفمه، يريد قبلة، فاقترب الخيال بفمه كذلك ولكن .. يا لخيبة الأمل! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه أبادند، وتكسرت مني نفسه الحيرانه، وفر الخيال في شظايا الماء ... وتحطمت الصورة الرائعة بدداً!! وخيل لنركيسوس أنها تقول وهي تهتز، قبل أن تلتئم :"لا ... لا ... لا...لا...".

ولبث عبثاً يحاول قبلة، وتتكرر الآية كلما مست الماء شفتاه ... فانطلق مغيظاً محنقاً، وهام في القفار على وجهه، لا يطيب لجفنه المسهد كرى، ولا يحلو بفمه المرير عيش، لجفاء الحبيب، ونقره آسية العجيب!!

نركيسوس، الذي بلبل قلوب العذارى، وسفك دموع الحسان، وضرج كبرياء الغيد بالدم، وأذل البسمات التي طالما حملتها إليه أجنحة الحب من ثغور الفاتنات .. بركيسوس، الذي ألقى بحب أيخو في التراب، تسبيه صورته، ويتصباه خياله، ويأسره ظله، فيا لنقمة كيوبيد، ويا لعدالة فينوس!!

لقد طفق يختلف إلى الغدير لدى كل شروق شمس، يناجي حبيبه المعبود وأمله المنشود، فلا ينثني إلا إذا توارت الشمس بالحجاب!

وما أنفك يشكو ويتوجع وستعطف، وما أنفك الخيال تصام ويتباكم. وإذ تحدث تمتم!!

ثم ...

ثم ذوي عوده، وذبلت نضرته، وتهدم جسمه، وتحطم قلبه، وتأرجحت روحه في حدقتيه ... و.. دنت ساعته.

ووقفت ايخو في فتن وارف، في آيكة قريبة من الغدير؛ تشهد الفصل الأخير، من مأساة حياتهما ..

وسمعته يقول مخاطباً ظله: "أيها الحبيب! أجل! لقد حق لك أن تنتصر على كبريائي، وتسحق مرتي وتهد أعضائي .. هأنذا أموت أيها الحبيب ... بقربك ... يا عروس الماء النافر ... أموت ... وأحبك ... فالوداع ... الودا ... ع".

وبكت أيخو ... ورددت هذا الصدى الحبيب: "الودا .. ع!".

وأقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس، ثم ذهبت في أرجاء الغابة تجمع الحقلب لإحراق الجثة، كما جرت بذلك العادة في ذاك الزمن .. ولكن، ياللعجب! لقد عادت فما وجدت في زهرة جميلة من أزهار النرجس! انحنت على صفحة الغدير تنظر فيه إلى ظلها .. وتذرف دمعها .. قطرة، فقطرة ..

بين أبوللو وكيود[*]

عصى الناس، في قديم الزمان، سيد أرباب الأولمب، السند الأعظم المهيمن على ملكوت السموات والأرض: زيوس. ومع ما اشتهر به من واسع الحلم، وطول الأناة، وجم المغفرة، فانه لم يشأ أن يمد للعالم في حبال الغواية لدرجة انكارهم لذاته، والحادهم فيه، وكفرهم به، فأقسم ليهلكن حرثهم ونسلهم، وليقطعن من دابرهم أجمعين! فأطلق الرياح الجنوبية الهوج، وأرسل السحب تتدجى كقطع من الليل البهيم، وأذن للأرض فتشققت ينابيع وعيوناً، ثم انهمرت الأمواه من فوقهم، وتفجرت من تحت أرجلهم، وطغى الموج يجرف الدور ويعفى الآثار وفي أيام قلائل، كان الطوفان يغمر وجه الأرض ولم يكن ثمة إلا بحر خضم عظيم.

وهلك الناس جميعاً، وشفي زيوس موجدته عليهم، ثم بدأ له أن يعيد مياه الحياة إلى مجاريها، فأطلق الرياح

(٣) لقد لفت اسماء البيولوجية الرومانية على الميثولوجية اليونانية طغيانا كبيرا مع ان المائية اصل الأولى، وابو للو هو الاسم الروماني للاله فوبوس اليوناني، وكذلك كيوبيد هر ايروس بن الروديت (فينوس) وقد اثرنا

[*] لقد طغت أسماء البيولوجية الرومانية على الميثولوجية اليونانية طغياناً كبيراً مع أن الثانية أصل للأولى، وأبوللو هو الاسم الروماني للإله فوبوس اليوناني، وكذلك كيوبيد هو أيروس بن أفروديت (فينوس) وقد أثرنا الأسماء الرومانية لشهرتها فحسبه.

الأسماء الرومانية لشهرتها نحسبه من عقالها، فهبت في شدة وعنف، وأخذت ترشف ماء الطوفان، تعاونها في ذلك مركب أبوللو .. يوح[١] العظيمة. وبدأت الأرض تجف، وشرع بساطها السندسي الجميل يبدو قليلاً قليلاً، حتى ازدهرت المروج، وأينعت الخمائل، وسمق الدوح، واهتزت الربى، وأخذت السهول زخرفها. وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسي يعمرون الأرض الجديدة، فما كاد يفعل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة، جعلت تزحف من الماء إلى الأرض، فتهلك الخلق الجديد، وكان أشد هذه الحيوانات وطأة. وأكثرها فتكاً، ذلك التنين البحري الهائل، الذي يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها، حتى ضج الناس واستغاثوا، وجأروا بالدعاء إلى زيوس الرحيم، فرق لهم وحدب عليهم، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا. أبوللو، فأنقذهم من التنين (بيثون) بسهامه التي سددها إليه حتى أراده.

وأنثنى ثملاً بخمرة النصر، مزهواً بها رفع الناس إليه من صلوات وابتهالات، وبينما هو راق إلى سماء الأولمب، أذا أخوه كيوبيد بن أفروديت يصيد الظباء في غيضة لفاء، ويلهو باجتناء الثمر، ويمرح بين أفواف الزهر، كالمستهتر الخالي . فأراد أبوللو أن يناوشه، فقال له "كيوبيد يا ابن أفروديت! أنت هنا تصيد الظاء الضعيفة، وتريش سهامك إلى أطلائها المفزوعة، ولا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة التي تفتك بعباد أبينا زيوس، ومع ذاك لا تفتأ تفاخر الآلهة بسهامك التي لا تطيش،

---

(١) الشمس.

ورمياتك التي لا تخيب . كيوبيد الصغير! يجمل بك أن تنزل لي عن قوسك المرنان، وسهامك الذهبية، أو أن تحد من كبريائك، وتأتي إلى كل يوم أعلمك كية تكون الرماية، كيف ينبغي أن تسدد السهام!".

وغيظ كيوبيد من هذا التقريع الذي لا مسوغ له، وذاك التفاخر الأجوف الذي لا فائدة منه، ولا طائل وراءه فعبس وبسر، وتجهم وزمجر، وقال في عبارة ملتهبة، وأسلوب مشبوب: أبوللو با اين لاتونا! كان الأولى بك أن تذكر كيف عذبت حيراً في سالف الأيام أمك وأذلتها، فتفني حياء، وتتواري خجلاً، ولا تملأ الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب! أبوللو! أنت تتيه بسهامك وتدل، وتدعي انك تقنص بها الأفعوانات البحرية، على حين أصيد الظباء، وأقتل الأطلاء، إلا فلتعلم أنني أمهر منك ألف مرة في تسديد السهام، واقوى في توتير القوس، وان كنت بعد حدثاً صغيراً. على أنني انذرك، أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا سهامي التي سأجربها فيك قريباً!!".

فضحك أبوللو ملء شدقيه، وقال: بخ بخ يا كوبيد أين أفروديت! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو! ولكن يبدو لي أنك متعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد في هذه الغيضة، وأحسبك قد أعياك طبي نافر فأخرجك عن طورك، خصوصاً، وأفروديت تنتظرك لتعد الشواء!.. انت ستجرب سهامك في .. في أنا ..!".

فقال كيوبيد : "فيك أنت .. فيك أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا .. وسترى.."‏.

وامتلأت أسارير أبوللو بضحكة ساخرة، و فصل مستهزئاً ..

وشرع كيوبيد يدبر انتقامه، ويرسم له الخطط التي ينال بها من أبوللو، فلا يستطيع أن يفلت، وكان يحمل كنانتين، يحتفظ في الأولى بسهامه الذهبية التي يصمى بها القلوب فتملأ حباً وصبابة، وفي الأخرى بسهامه الرصاصية التي يصيب بها القلوب فيفعمها بغضاً وكراهية .. ونثر كنانتيه وانتقى من كل واحدة سهماً حاد الشباة مزدوج الأسنان، ثم انطلق في الأدغال يفكر ويدبر، ويهم شطر غدير قريب يطفئ منه غلبته، فرأى القينة الحسناء (دفنيه) متجردة من ثيابها، جالسة كالقطاة على عدوة الجدول، تداعب الماء بقدميها الحبيتين، وتظللها صفصافة ممتدة الفيء وارفة، والأطيار من فوقها تغنى لها، فقال كيوبيد، متحدثاً إلى نفسه: "فرصة نادرة لن أفلتها .. هذه (دفنيه) الجميلة تستنقع من القيظ، وهي وسيمة قسيمة، بارعة الحسن، تامة المفاتن، لابد ان أسدد سهماً رصاصياً إلى قلبها الصغير فيمتلئ كراهية وبغضاء .. ويحسن إلا أشعرها بوجودي حتى أصممى قلبها ... فلأختبئ هنا .."‏.

وتوارى خلف دوحة كبيرة، وثبت السهم الرصاصي في مكانه من القوس؛ ثم أطلقه في قلب دفنيه، وما كاد يفعل حتى انخلع قلب الفتاة من

الذعر، وأسلمت ساقيها للريح تعدو بين الايك، صارخة من ذلك الثلج الذي ذهب بحرارة فؤادها ..

وقصد كيوبيد إلى حيث أبوللو، وكان قربها من دفنيه، فسدد إلى قلبه السهم الذهبي فأصماه. وتلفت أبوللو انظر ماذا أصابه، وحدث أن كانت دفتيه منطلقة تعدو إذ ذاك، فلمحها، وسرعان ما جن بها جنوناً. لقد ملأه سهم كيوبيد حباً، كما ملأ سهمه الرصاصي دفنيه بغضاً ...

لقد كانت دينيه أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد إذ ملأه سهم كوبيد حباً، فهام بها، وشعر نحوها بهوى ممض، وبرح كأنه برح آلاف من السنين، وكذلك كان أبوللو أول من وقع نظر دفتيه عليه بعد إذ أفعمها سهم كيوبيد كراهية، فأبغضته، وشعرت بسم تنفثه عيناه في قلبها حينما رأته.

أفلح كيوبيد إذن في الفتك بأبوللو، حين أوقعه في أحبولة الهوى، ورداه في شرك الغرام، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة، دفئيه! أفلح كيوبيد، وتبع أبوللو يرى إليه يتذلل ويتضرع ... ويبكي كما يبكي الآدميون ... وهو سيد الشمس، ورب الموسيقى، وقانص الأفعوانات كما دل على كيوبيد وافتخر!

انتصر كيوبيد إله الحب: صاحب القوس الذهبية، كيوبيد الطفل، ذو الجناحين، على أبوللو سيد الشمس، صاحب القوس والوتر العرد!

أن الحرب لم تبدأ، حين بدأت، بين أبوللو بن لاتونا، وكيود بن أفروديت، بل هي قد بدأت بين البغض ماء والحب، والقلبي ... والهوى!

انطلق أبوللو في اثر دفنيه المذعورة يبكي ويتذلل، ويحاول اللحاق بها ... ولكن هيهات! لقد كانت تمعن في الهرب، كلما جد هو في الطلب، و قد كانت تنظر إليه كأنه قاتل أبيها ... أو خائق أمها !..

وصاح أبوللو ضارعاً: "دفنيه أيتها العزيزة، ففي أرجوك! تمهلي أتوسل إليك، الشوك يجرح قدميك المعبودتين يا دفنيه! أوه رويدك يا حبيبة، لا تنطلقي هكذا فقد يؤذيك اندفاعك، فيم أنت مذعورة هكذا؟! فأنا أبوللو ... قفي! ..".

ولكن دفنيه لا تجيب إلا بنظرة القنص، ولفتة الواجف المراش، وتجد في الهرب، فيقول أبوللو: "قفي يادفنيه! قفي ولك نصف ملكي: بل لك الشمس كلها إذا وقفت، أنا رب الموسيقى سأغني واصدح لك! سأطربك، بقيثارتي الذهبية بعد أن أغسل قدميك بدموعي في كل ليلة (!). سأطير بك في أرجاء السموات! ستكون لك القصور في جنة الأولمب! سأمنحك الخلود يا دفتيه! أحبك! أستحلفك بزيوس إلا ما وقفت! مالك هيمانة على وجهك هكذا؟ هل أخيفك؟ هل أزعجك إلى هذا الحد ؟... ويلاه!".

ولا تبالي دفنيه، بل تعدو وتعدو ...

ويضيق أبوللو بغصته ذرعاً، فيلجأ إلى جبروت الإلهة، ويبدي سلطان السماء! ويصيح صيحة هائلة: فيكون سد منيع في طريق دفنيه !..

فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الإعياء: "فيم تهربين مني يا دفنيه! أليم تعبديني مرة وتقدمي الضحايا بإسمي إلى كهنة الهيكل؟ هأنذا أبوللو المعبود، أرجوك وأتوسل إليك! أنا الذي أعبدك يا دفنيه! ماذا تريدين بعد هذا؟ لقد بلغت من أبوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل. لقد فضلتك على كليمين، زوجتي المعبودة، وأجمل عرائس البحر، وأم طفلي المحبوب فيتون! فيتون أسرع الآلهة بعد أخي هرمز، سآمره يكون خادماً لك! أنه يقتني أغلى المركبات، ولديه من الصافنات الجياد أغلاها، ستركبين معه فتطوفين العالم في ساعتين، وترين ما بين الشرق والغريب في لحنين، لو رضيت! دفنيه! أرجوك يا دفنيه! أنني أبداً ما بكيت بمثل ما أبكى لك، وأذرف الدمع بين وأذللت نفسي بخيلائك!".

وكان فعل السهم الرصاصي في قلب دفتيه قد خف، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع، وكانت عيناها ترتين بعبرات حبيسة. ولكن كيوبيد، المختبئ في عساليج الكروم القريبة كان يرى ويسمع، فلما شاهد من ضعف دفنيه وقرب تسليمها، تناول قوسه، وانتقى سهماً مسنوناً من كنانة الأسهم الرصاصية وسدده إلى قلبها، فلصرخت المسكينة صرخة مدوية، وهبت في وجه أبوللو تقول: "إليك عني أيها المسخ! تنح! أبغضك! أكرهك! أغرب عنى، أنت أنجس من التيتان[1] وألام من

([1]) التيتان هم أبناء وبنات زيوس من المردة وقتلة ابنه زجريوس وأبغض الأبالسة إلى الآلهة.

شارون[1]، أذهب! لا أطيقك، انظر إلى هذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك، والدخان يصاعد من منخريك! كريه .. شأنه أنت أيها الوحش .."..

وكذلك كان فعل السهم الذهبي قد شارف أن يبطل في قلب أبوللو .. وكاد الإله العظيم يخلص من هذا السحر العجيب، فيسحق دفنيه، لولا أن تنبه كيوبيد، فأصماه بسهم ذهبي آخر، فجن جنونه، وتجدد حبه، و تألب به هواه .. فصرخ صرخة راجفة، وأشار إلى السد فزال عن طريق دفنيه، فانطلقت تعدو .. وتعدو .. وانطلق هو في أثرها يتوسل .. ويذرف اغلى العبرات! ..

لقد كانت دفنيه تطوي الطريق كأنها فكرة شاردة في رأس شاعر، ولقد كان أبوللو يقتص آثارها كأنه الكوكب السيار منجذبا إلى نجم كبير! وكان كلما سرق اللمحة من ساقيها الجميلتين التهب قلبه بحبها، واشتعلت نفسه بالرغبة الملحة فيها، وانجذبت روحه إليها .. بالكيوبيد! ويا لسهامه .. الذهبية .. والرصاصية، على حد سواء!

وتعدو دفنيه حتى تكون عند حفا في النهر العظيم الذي أقام زيوس والدها الكبير إلهاً عليه، فتصرخ قائلة: أنقذني يا أبي! خلصني من هذا الوحش الذي يدعي أنه أبوللو الكريم! انه يعدو من ورائي .. خلصني منه .. إني أبغضه. يا أبي .. يا أبي".

([1]) شارون هو حارس الجحيم.

وينشطر الماء، ويخرج أبوها، إله النهر، فيرى أبوللو مقبلاً، فيعرفه، ولكنه يرق لابنته يقسم ليخلصنها سيد الشمس، فيغرس قدمها في الشاطئ، ويحتفن من الماء بيديه، وينشرها به، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه ويقف أبوللو مشدوها، موزع اللب، ينظر ويرى!

لقد تحولت دفنيه، في لحات، إلى شجرة باسقة من أبوللو الغار، وأخذت الخضرة تينع في أغصانها، بين حيرة أبوللو وشدة تعجبه!

ووقف الإله العظيم يبكي، ويا ويح للعاشق المخبول؟

ثم تقدم فبارك الشجرة، وسقاها من دمعه، الذي كان من خلائقه الكبر! وانصرف محطم النفس، معمود القلب، كاسف البال ..ولقيه كيوبي، فسأله الخبيث: "أين سهامك التي أرديت بها الأفعوانات يا أبوللو بن لاتونا؟" فقال: "كيوبيد! أشفني مما ألم بي!" فقال كيوبيد: "بهذا السهم الرصاصي أشفيك!".

وتلقى أبوللو السهم في قلبه عن طواعية فبرئ مما به، ولم يعاد كيوبيد بن أفروديت بعدها!

يو أو "منشأ إيزيس"

كان لأحد أرباب الأنهار التي تنحدر من شواهق الأولمب ابنة بارعة الجمال فتانة، حلوة كأنها قبلة على فم حبيب، رقيقة كأنها زنبقة على غصن رطيب.

وكانت تخطر كما تخطر نسمة معطرة أفلتت من الجنة التملا القلوب حباً، ولتشيع في الحب سعادة، ولترف في قيظ الحياة فتروح على المكدودين المحزونين.

وكانت هذه الفتاة (يو)، مفتتنة بجمال الطبيعة مشفوفة بسحرها الأخاذ، تود لو تستطيع فتعيش ملء السهل والجبل، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء، ويمتزج بالظلال والأفياء.

ولم تكن عاشقة، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هدأة من الليل، يهيج حب الطبيعة في نفسها، فتبكي، وتبكي، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خرير الغدران المترقرقة التي تنسب في الأدغال. و كانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء، وصاحباتها من بنات الغاب، فكن إذا تفقدنها، توزعن في مهاوي الجبل، وتفرقن في منبسط السفح، وتنادين بها ههنا وههنا، حتى يجدنها

آخر الأمر مستغرقة بين يدي المضطرب قمرها المعبود، تناجي البحر المصطخب، وتكلم النجم المضطرب.

ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي)، وما كاد يوغل في احدى جنبات الجبل حتى لقي يو، تلك الفتاة الأولمبية الساحرة، واقفة على الصخرة تستمتع بجمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع .. وكانت السماء لا تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء، وأراد(١) ذكاء تنتشر خللها فتفضض أذيالها، وتذهب أوساطها، وتكسب الأفق رونقاً زاهياً خلاباً.

وسحر زيوس، وهو كبير الآلهة، بجمال العروس التي هي من خلقه، وابنة أحد أتباعه، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها، وشعر كأنه ظمئ إلى هذا الجمال الفتان المشرق، الذي كسف في عينه جمال زوجاته جميعاً، وفيهن حيرا ودون ولانونا(٢).

ووقف الإله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وسمر مكانه، وهو سيد الآلهة، يعيد عبدته الصغيرة التي أبدعتها يداه .. وهو لا يدري!

---

(١) أشعة الشمس.

(٢) حيراً أولى زوجات زيوس وديون هي أم أفروديت (فينوس) ولاتونا هي أم أبوللو وديانا (فوبوس وأوتميس) ولزيوس أزواج أخرى.

وعول على اغتنام الفرصة، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعاً لا يضيره إلا يكون بريئاً، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة .. "أنا سيد أرباب الاولمب، و كل ما بين لابتيك أيتها الأرض فهو لي، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذي يجرؤ أن يحجزها عني أو يمنعها مني!.. ؟".

ثم بدا له ألا يزعجها بالظهور لها في سماه الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها، لأنها ستكون منه تلقاء إله، فتحول في لمحة إلى فتى يافع ينهل الشباب في برديه، ويترقرق الصبي في أعطافه، وتشع عيناه صبوة وفتوناً، وتقدم إليها نحياها تحية كلها صفاء و كلها دعة، فحيت بأحسن منها، ولقيته أرضي لقاء ..

وجلس يحدثها وتحدثه، وكان الإله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر، ويزخرف صوته بالموسيقى، ويعسل أبتساماته بالمحبة، ويطلق في نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى، وكان ما ينفك يقترب منها ويقترب، حتى لامس ذراعه ذراعها، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارثين، وطفق يضغط قليلاً قليلاً ...

وصدمتا هينهة .. ثم في طور اللسان، و بدأت نوبة العين وأخذا في رشفات وقبل ..

وعاد أدراجه إلى الأولمب، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التي سعد فيها لحظة بيو، وظل منذ ذلك اليوم بتردد إليها

فيلقاها على أنها كأسه الروية التي تبترد بها غلته، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها فينوس به، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب .

وكان يتحرق إلى لقائها، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضي، فاذا سعدت منه بزورة، أندغمت عبادتها للطبيعة في عبادتها له، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها!

وأحست حيرا[1] ببعض ما يشغله، ولحظت انه صادف عنها، فأيقنت أن لابد من أمر، وأن في الأمر أنثى، وأن في الأنثى صبابة وغراماً، فبثت العيون ورصدت الرقباء، حتى وقفت من شأنه على كل شيء!

ولشد ما دارت الدنيا بحيراً .. لقد ودت أن تقلب جبلاً على رأس يو! وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً، لكيلا لبعلها على خيانته حجة، ولكيلا يكون له من بدعها برهان.

وذر قرن الشمس في صبيحة ضاحكة، فذهب زيوس يسفي ما في قلبه من برح عند يو، وكانت حيراً قد أوهمته أنها ستقضي سحابة يومها هذا عند واحدة بعينها من صديقاتها، وزاد ذلك في ابتهاج الآلهة، وضاعف انشراحه، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الآخر لدى يو.

وأنه لفى لهو النشوة وأبان السكرة، وعنفوان المرح، إذ به يلمح حيراً مقبلة!

---

(1) حيرا: ربة الأولمب وزوجة زيوس الأولى.

وكانت لا تزال في أول الأفق، فأيقن أنها مكيدة دبرتها لتفجأه مع يوم، وأنها قد كشفت من سره ما بالغ في كتمانه. فتناول إذن صاحبته فنفق فيها نفثة سحرتها في أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها..

ووصلت حيرا، ولم تنطل حيلة الآلهة، وما شكت قط في أن البقرة الواقفة تبحث بأنفها في الحشيش الأخضر كأنها تنشد الكلأ، أن هي إلا يو ..! عدوتها اللدود!

فبسمت لزوجها بسمة كلها دل وكلها فتون، وسألته، وهو يحاول منها قبلة، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التي لم أر في حياتي أرشق منها ولا أجمل .. لقد أحببتها، وهي من غير ريب، حتى تكبر ستعطبنا أجود اللبن وأسلمه، وسيكون لبنها خير غذاء لولدينا الحبيبين أيرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب[1].

وارتبك زيوس، ولم ير بدا من إجابة زوجته إلى ما تريد.

ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها أحد أتباعها الأقوياء: أرجس الهائل، ذا مائة العين التي لا تنام! ناطته بها، وأمرته ألا يغفل عنها .. "وإلا فالويل يا أرجس إذا هربت منك، أو احتال أحد عليك فألهاك عنها ... إذن يحل عليك غضبي، وأسقحك سحقاً ..".

---

(1) أيرس هو مارس الروماني إله الحرب، وهيفيستوس هو فلكان الروماني إله النار، وهيب هي ربة الشباب وندمانة الشارب، وحاملة الكؤوس فوق الأولب.

وظل الحارس الساهر يرعى يو، ويرقب كل حركة من حركاتها، حتى فوعت المسكينة من سوء منقلبها، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذي ردها بعد جمالها إلى هذا الخلق الشائه، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم. لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة، ولكن كيف؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السهد وأعياه السهر، ينام بخمسين عيناً، ويقدح الشرر بخمسين أخرى!! فإذا استيقظت هذه نامت تلك، وهكذا دواليك حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها! وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها، فتود لو تستطيع مخاطبة أحداهن، ولكن ... هيهات! لقد كانت .. مو .. مو .. تنطلق من فمها الكبير مالئة أشداقها، فتنزعج صواحبها أيما انزعاج!

ومضت أيام .. وأيام ..

ثم لقيت أباها مرة، فنظرت إليه وهو ينكرها، ونظرت ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها، فذرفت أحر الدموع وأدمى العبرات! وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته، فلم يأبه لها!

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد، فلما قرأ ما رقشته في أديم الرمل، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان، ثم عانقها عناقاً طويلاً! ولكنه أسقط في يديه، إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع في سحر الإله الأكبر؟!

ولما شهد آرجس ما كان من بكاء البقرة ثم بكاء رب النهر وعناقه إياها، تأثر تأثراً بادياً. ولو لم يفقه من كل ما كان شيئاً. ثم ذكر وعيد حيراً، فانطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق، وثمة، تخير بفاعا عالياً أقام عليه ليشرف منه على كل شيء، فلا يخشى على بقرته رهقاً، ولا تستطيع هي مهرباً.

وذكر زيوس فتاته التي كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها، وذكر تلك الأويقات الحلوة التي يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة التي لم يتيسر له مثلها في مملكة الأولمب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم، فثارت في قلبه عوامل الرحمة، وتحركت في صميمة تلك الشفقة الإلهية التي اتصف بها في قديم الآباد ..

و فكر وفكر ... ثم استدعي من فوره ابنه من زوجته مايا، البطل الطيار الشهور، هرمز، وأمره بالتوجه إلى حيث أرجس فيحتال عليه ويقتله ..

ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التي جلس فوقها جلس فألفاه يحرس البقرة حراسة شديدة منكرة، وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل، وكان البدر يتنقل في دارات السماء، والرياح تهب سجسجا والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح تطرب وتشجي، وكان سنة من النوم خفيفة رقصت في خمسين من عيون أرجس فأطبقت قليلاً ولكن ما برحت

الخمسون الأخرى تنافس الثريا ببريقها، وكانت البقرة ملقاة على الثرى المندي من الأعياء، فلما شهدت هرمز لم تحفل به.

ولكن ما هذه الموسيقى الحنون!

ومن العازف في هدأة الليل!

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب؟

آه .. لقد تحول رمز الصناع إلى شاب ذى قوة وذي فتوة وذي جمال، وبدا في شكل راع من رعاة الضأن، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لأرجس، ثم انبرى وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لآرجس، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذي اتخذه من قصب البرية الفسيحة التي أقيل منها، وانبطحت في السفح شاؤه ونعمه[1] تغط في شبه نوم عميق ..

واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون أرجس، ودب النشاط في هيكله الضخم لما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن، فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز – الراعي الفتي – فسلم عليه وصافحه. وجلس بين يديه كالعنز يسمع ويطرب وينتشي، ثم أخذ معه في حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة، ثم استطرد فسأله عن نايه، مم صنعه، أو من ذا الذي وهبه؟ ...

---

(1) الشاء جمع شاه، والنعم يطلق على الأبل.

فقال هرمز: "في أحدى الغابات ذات الايك البالغ عنان السماء، والدوح المنتشر في الأرجاء، كانت تعيش سرينكس عروس الماء المرحة، ذات السيقان الناعمة، والجسم الأبيض الخصب الجميل. و كانت تهوى الرياضة وتقبل عليها، وتؤثر منها الجري والوثب والقفز، والتعلق بأطراف الشجر، ثم السباحة. وكانت تجري فتسبق الريح، و تعدو فينعش الظليم[1] في آثارها، ولا تدرك الصافنات[2] غبارها. وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلها مرحلة، ثم تنطلق فتلحق بهم، و تسبقهم بمراحل! ..

وتثاءب هرمز الخبيث وقال: ومن طريف ما حدث لها، أن بان العظيم، رب الرعاة واله المروج وسيد الغاب، ومعبود الناس في أركاديا، لمحها يوماً تعدو كأنها زوبعة، فتبعها، ولكنها شأته[3] وأجهدته! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق في الجري، وحاول أن يلحق بها، فضاعف سرعته وأطال خطواته .. ولكن هيهات! ... والتفتت سيرينكس فرأته يطوي أديم الأرض من خلفها. ففزعت أيما فزع وهالها منظره الشائه الغريب، فسيقانه العنزية الأربع، وأذناه البهيمية الشاخصة، وجسمه المفتول ذو العضل، ووجهه الواسع العرض .. كل ذلك بعث في قلبها الذعر، وهاج في نفسها الرعب، حتى كادت تذهب شعاعا".

---

(1) ذكر النعام.

(2) الخيل.

(3) شأنه: سبقته.

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة، ثم قال: "واعترضها نهر عظيم فصرخت عرائس الماء تستغيث بهن، وتطلب إليهن هذه العرائس النجدة، فما أذهل بأن عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبنها في اليم، ثم ما أذهله أيضاً إلا أن تنمو قصبات رقيقة، ذوات أرباش صفيقة، في الموقع من الماء الذي غيبت فيه سيرينكس!

ووقف بأن مشدوه اللب، ذاهل الفكر، يحملق في النهر الذي طوى منية القلب، وهوية النفس، ثم انثنى فنزع القصبات النامية، وراح يصنع منها نايا حلو رقيق اللحن، حنون الجرس.

ولقيته مرة في روضة مونقة، منضورة منسقة، وكان بأن يجلس على رابية بها معشوشبة، عازفاً على براعة، فطربت لموسيقاه طرباً شديداً، ودلفت إليه، فهجوته أن يهب الناي لي، فتبسم قائلاً: "إليك يا بني أكرم القني[1] وأعز الزكريات .. ".

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه وحاول أن يخفيها عني ..

وكان هرمز وهو يلقي هذه الأقصوصة التي اخترعها اختراعاً، يحاول أن يمطها مطاً، ويزيد في ثناياها حواشي مملة، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها، و كان يتثاءب ويتثاءب، وكانت الكلمات تساقط من فمه كأنه

([1]) جمع قنية ما يقتنيه الإنسان.

مشدودة بسلسلة من حديد، حتى تثاءب آرجس هو الأخر، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها. وابتهج هرمز الخبيث لذلك، وجعل يروح على وجه أرجس، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير يجاوب أصداء أضفادع.

وهنا .. امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل، فانفصل الرأس عن البدن، وغادرهما معفرين بالتراب، وعاد أدراجه إلى الاولمب يحمل إلى والده نبأ المعركة ...

وحزنت حيراً على خادمها أمض الحزن وأشده وذهبت بنفسها فحمات رأسه إلى مخدعها في قصر الأولب الكبير، وطفقت تسهل العيون عينا عينا وتر كيها في ريش طاووسها[1] الجميل لتظل إلى الأبد رمز حبها له ووفائها لذكراه .. ثم آلت لتسلطن على يو – البقرة المسكينة – ذبابة صفراء من ذباب الأبالسة تقرصها وتجعل من حياتها نكالاً، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحية من زيوس ... كبير الآلهة ورب الأرباب: "يا إلهي العظيم الرحيم! يا أبا الالهة، وابن الالهة! أتوسل اليك بأبنائك الكرام الرحماء! أدركني يا أبا زجريوس! اغفرلى زلتي حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبني! ان كنت قد عمتعت بي ما صنعت، انتقاماً، فحسبك ما حل بي من عذاب الهون، أن أزل يا إلهي إذا غفرت لي ورفعت عني وزر غضبك! أقبل يارب الأولمب صلاتي واجعلها شفيعي إليك! أنا .. والمسكينة ... كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر،

---

(1) كان الإغريق يرمزون لحيراً بالطاووس والكوكو وكانوا يحبونها حباً جماً لأنها آثرتهم بعطفها وضحت في سبيلهم بحب زوجها وثقته فيها – واسمها اليوناني هو جونو.

فكنت أنزوي عن العالم، والبث وحدي بين يدي قمري الحبيب، أصلى لك ولابنتك المعبودة، في هدأة الليل، وسكون السحر، فما هي إلا ان قطع على هذا الفتى صلاتي وهو من خالقك، وجماله الفتان آية من آياتك، فإذا سحرني وأذهلني عن عبادتي، فاني أستاهل كل هذا الذي أنا فيه! يا إلهي اغفر لي، فقد وسع غفرانك كل شيء".

ويستجيب الإله لهذه الصلاة الحارة الخالصة، فينطلق إلى حيراً، حيث يجدها مكبة على رأس أرجس تسمل عيونه، فيواسيها ويسليها، ثم يرجوها أن ترحم يو، وأن تخفف عنها العذاب، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق إلا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى. فترق حيراً، وتتفجر الرحمة لأول عهدها بها، في قلبها، وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة، و تأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى: الصورة القديمة المحبوبة.! ولكنها الأرض تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض، حتى تطمئن عليه وعلى قلبه المتصابي من حبها.

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو إلى ... ضفاف النيل! وتخرج من الصحراء على المصريين، فتبهرهم بجمالها الرائع، وحسنها الوضاء، ومفاتنها البارعة، ثم يجتمعون على عبادتها، ويقيمونها مليكة عليهم ويسمونها: "ايزيس".

وتمر الأيام ...

فيتزوجها كبير آلهة مصر، أوزوريس، وتلد له ابنه حوريس!

برسيوس وأندروميدا والجرجون الثلاثة

في إحدى مدن الشاطئ الاغريقي، كانت تعيش أميرة جميلة تدعى "داناى"، هي وابنها الجميل برسيوس، الذي كتب عليه أن يحرم صدر والده الحنون، ذلك الوالد الذي طرحت به أسفاره، فشط مزاره، ولم يعرف أحد أين انتهي قراره.

ولقد كان هذا الوالد – فيما يظهر – على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحاً شديداً، ولخوفهم من ان ينشأ طفله برسيوس على وتيرته، تآمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به إلى أليم، والأمواج المتلاطمة كفيلة، ثمة، باجراء حكمها فيهما.

يا للوحوش! لقد أنفذ الأشقياء تدبيرهيم، وتناوحت الأمواج حول الزورق تقذف به ها هنا وها هنا، والأم المسكينة تغالب أحزانها وتنسى مخاوفها، فنغنى لطفلها الراقد في حضنها، وتدلله، كي بنام، وكي يكون بنجوة من هذا البحر المصطخب.

وبعد أن كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريسيتين، وبعد أن كانت كل موجة تشق للزورق قبراً في أعماق الماء، شاءت العناية أن

تسخر موجة هائلة تدفع به، في هوادة ورفق إلى ساحل جزيرة نائية في وسط المحيط. وهنالك، نزلت الأم الموهونة متهالكة على نفسها، حاملة وديعتها البريئة، شاكية إلى الآلهة صنع الإنسان بالإنسان. ولمحت في الأفق قرية متطامنة، فيممت شطرها، وما فتئت تتعثر في خطاها حتى بلغتها. والشمس تتوارى بالحجاب.

ورحب الناس بالضيفين البائسين، لأن دينهم كان يأمر بإيواء أبناء السبيل، وإكرام الغرباء واللاجئين، فعاشا ناعمين، وشب برسيوس سليماً من الآفات، مكتنز العضلات، بادي الفتوة، موفور القوة، عذب اللسان، مشبوب الجنان، وأحبه الناس وأعجبوا به، والتف الجميع حوله يصغون إلى أحاديثه العذاب، وقصصه الرطاب .. و تسامع الكل به، وترامت إلى ملك الجزيرة أخباره، فشغله انصراف الناس إليه، وافتتانهم به، وكان (قاتله الله)، غيوراً رعديداً، فإلى أن يكيد له ويدبر حيلة يقصيه بها عن طريقه ليطمئن على نفسه .. وعرشه!

وكان في إحدى الجزائر النائية ثلاثة من الجرجون الضارية، وهي من أفزع ما جاء في أساطير اليونان، وكل من هذه الجرجونتين هائل له رأس امرأة، ويدان من النحاس الأصفر، ذواتا أظافر حادة، تنفذ في أقسى المعادن وأصلبها، وليس لها شعر في رؤوسها كما للنساء، بل لها، عوضاً عن الشعر، حيات وأفاع ذوات رؤوس تنفث السم الزعاف، وقد أوتيت قوة خارقة، حتى لتستطيع أحداها أن تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار، وليست هذه الجرجون مخيفة بسمها، وقوة بنيتها فحسب، بل

الأدهى والأمر، هو هذا السر الدفين في عيونها، إذ كل من جرؤ على النظر إلى هذه العيون، يتحول في الحال إلى صنم من الحجارة، لا يتحرك، ولا يعي!

وكانت الجرجونة (مديوساً) أفظع أنواع الجرجون جميعاً، ولذا كانت أختاها الأخريان تحترمانها، وتسهران على راحتها.

ولكن ماذا اعتزم الملك الجبار من كل ذلك؟ لقد دبر أن يغري برسيوس بالذهاب إلى جزيرة الجرجون لقتل (مديوسا) والأياب برأسها كأحسن هدية تقدم إلى ملك. وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم أن مجرد محاولة الذهاب إلى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا المأفونون، فإن نظرة واحدة من عين مديوساً كفيلة بوضع حد لكل شيء ..

وأرسل الملك إلى برسيوس فمثل بين يديه، وطفق يكيل له المدح جزافاً، ويبالغ في الثناء على ما ترامى إليه من أخباره وضروب شجاعته التي يتحدث بها الجميع.

وامتلأ برسيوس، الفتى، زهواً، وشاعت في أعطافه الكبرياء، وراح هو بدوره يشكر للملك حلو ثنائه، وجميل اطرائه. فما أن أدرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب برسيوس الغرير، ونفسه الصغيرة، حتى أخبره بما انتدبه له، فقبل الفتى المسكين وهو لا يدري ما هي هذه الجرجون ولا أين جزيرة الجرجون؟

وانطلق من فوره، وأرسل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الأسوار في مهرجان فخم، وموكب أنيق. ثم غربت الشمس فغلقت الأبواب ثم جلس برسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر في هذه الجرجون، وينظر إلى القمر يشرق من الاتباج، فيفضض الموج، ويحور به البحر رجرجاً من لجين! ويذكر فجأة أنه لم يودع أمه، ولم يتزود منها قبلة أو دعاء السفر الطويل. فيبكي .. ويبكي بكاء مراً!

وتصدع قلبه حينما خيل إليه أنه قد لا يعود إليهما مع أنه عزاؤ الوحيد في هذه الحياة!

وانتصف الليل ..

وفيما هو غارق في لجة الفكر، شرق بواكف الدمع، إذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة: "برسيوس أيها العزيز! فيم بكاؤك؟ ولم تذرف كل هذه الدموع؟ لقد هجت الآلهة، وأحزنت أرباب الأولمب!". ونظر برسيوس ليرى من صاحب هذا الصوت الرخيم الذي يناديه، فعجب عجباً شديداً! لقد رأى مخلوقاً جميلاً مشرق الجبين، يترقرق البشر في وجهه، لا يعقل أن يكون بشراً! يلبس فوق هامته قلنسوة ذات أرياش وأجنحة، وفي قدميه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح البازي، وفي يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الأعلى ثعابين وحيات!!

على أن برسيوس لم يعلم أن الذي يتحدث إليه، أن هو إلا الإله هرمز[1] رسول الآلهة بين السموات والارض، الذي لا يفوقه في سرعته أحد.

وبعد، فلقد قص برسيوس قصته على هرمز، وما فرغ منها، حتى قال الإله له: "بني! إنك مقدم على أمر جلل، وشان بعيد المدى، صعب المنال. ولقد أراد الملك أهلاكك حين اختارك لهذه المهمة، لأن أحداً لا يجسر على الذهاب إلى جزيرة الجرجون إلا إذا كان أحمق أو مجنوناً، ولكن اصغ إلي! انك لابد فائز اذا عملت بوصاياي، ولم تجد عما أشير عليك به، وسأذهب عنك لحظة، ثم أعود إليك بآلاء من الآلهة، تقرب لك النجح، وتسهل عليك كل شاق من أمرك .. فانتظر"، ورقى هرمز ثم غاب في السماء، وبهت برسيوس حين رآه يطوى الأديم الفضي، ويطرق أبواب أورانوس[2]!.

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة، فرثت لنفتي المسكين وتحركت في قلوبها الرحمة العلوية، التي طالما تنهمر من السماء، لتغسل آلام الأرض: وتعاهدت أن تؤازر برسيوس، وتمده بكل ما يسهل عليه أشق أمره. فنزل بلوتو، إله الموتى عن قلنسوته التي تخفي من يلبسها فلا يراه أحد، وتبرعت

---

(1) هرمز هو الذي يسميه الرومان مير كيوري والعرب عطارد، وهو قائد أرواح الموتى بين الدنيا والآخرة.

(2) السماء.

ميترفا[1] بترسها الذي يحمي لابسه من حراب الأعداء، وهو ترس ثمين من الذهب الخالص، يلمع لمعاناً شديداً، حتى ليعكس المرئيات في صفحته، كأنه السجنجل.

* * *

وحمل هرمز المنحنين، وعاد بهما إلى حيث يجلس برسيوس فقدمهما إليه، وزوده بحرازه المتلوي القاطع، الذي ليس كمثله سيف ولا حسام. ومنحه نملبه المجنحتين، اللتين تسبقان به الريح، فلبسهما ثم قال له: "تلك يا برسبوس هدايا الآلهة أسبغها عليك. بيد أنه ينبغي قبل كل شيء أن تذهب معي إلى هذه الجزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث إناث من السيكلوب ذوات العين الواحدة، فتحتال عليهن حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون، لأن أحداً من العالمين لا يدري أين موضعها بالضبط غير هؤلاء السيكلوب. سر إذن على بركة الآلهة في اثري، واحترس لنفسك، والسماء تكلؤك".

وكم عجب برسيوس حين رآه يطير في اثر هرمز، والبحر من تحتهما يتلاطم، ويعج عجاجه، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة، وحطا في الجزيرة المنشودة بعد أن دوماً فوقه طويلاً. وكان ذلك بالقرب من كهف حالك في منحدر صخرة صعبة المرتقى، وقد لمح فيه برسيوس السيكلوب الثلاث، بفضل ترس مينرفا الذي كان يعكس في صفحته كل ما في الجزيرة.

---

(1) اسمها بالا أثينا في الميثولوجية اليونانية وقد آثرنا هذه التسمية الرومانية لذيوعها.

أنها مخلوقات غريبة حقاً، ليس كمثلها شيء في الآفاق، شاذة في خلقها، عجيبة في تنسيق جسمها، وهي إناث على كل حال يعشن في هذه الجزيرة المعشوشبة، بعيدات عن العالم، منزويات في هذا الركن السحيق من أركان الدنيا . وأغرب ما في أجسامهن من شذوذ أن ليس لهن أعين كما للناس، ولكن لهن، و با لحرى، لثلاثتهن، عين واحدة: تركبها لوقت معلوم، في حفرة غائرة من جبينها حتى إذا انتهى الوقت وجاءت نوبة السيكلوية الأخرى، نزعت الأولى تلك العين وأعطتها للثانية، وهذه للثالثة، وهكذا دواليك، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوب رؤية أصف شيء في أقصى جهات العالم، من دون ما مشية ولا عناء.

* * *

وبعد أن زود هرمز صاحبه بوصايا غالية، انتحي ناحية قريبة، واختبأ برسيوس خلف شجرة باسقة، ولشد ما دهش اذ رأى أحدى السيكلوب تقود أختيها، وفي جبينها العين المجيبة ترمق بها أصقاع العالم، وتحدث أختيها عما ترى، وبعد قليل ثار نزاع بين الأخوات على العين، كل تريد أن تأخذ نوبتها، وكل تدعي أن الدور دورها. وفيما كانت الأولى تنزع العين، وتوشك أن تعطيها للثانية، انقض برسيوس فتسلمها من السيكلوبة، دون وعي منها!! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئاً في العالم . وينشب نزاع شديد بين السيكلوب على العين كل منهن تتهم أختها بأن العين معها وتدعي الإنكار، حتى وضع برسيوس حداً لتنازعهن، بأن هتف بهن: "أيتها الأخوات العزيزات، لا تنازعن على عينكن، فهي في هذه اللحظة معي

وبين يدي"، وانقضت السيكلوب هلعات نحو مصدر الصوت، ولكن هيهات أن يقبضن على شخص تحمله نعلاً هرمز، فلقد قفز قفزة هائلة، أقصى بها نفسه عنهن، ثم قال: "أيتها الأخوات العزيزات! أنا أعلم أنكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية، وأنا أعدكن بردها إليكن، ولكن بشرط واحد: ذلك أن تخبرني عن المكان الذي تأوي إليه (مديوساً) وأخواتها الجرجون، فان لم تفعلن فلا عين لكن عندي".

وهنا تميزت السيكلوب من الغيظ و كدن لا يجبن بشيء، لأنهن منهيات عن إذاعة أسرار العالم، ولكن إذاعة السر في هذه اللحظة أهون ألف مرة من هذا العمر المطلق، والظلام المبين يغطش حياتهن، فأخبرته بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها، ولكي يثق مما أنبائه به نظر في العين التي بين يديه الجزيرة، وأيقن أنهن لم يخنه، ثم انه تحين الفرصة لملائمة ودفع بالعين في جبهة أقرب السيكلوب منه وغاب في الجو ميمماً شطر هرمز، حيث وجده يمرح في غيضة ناضرة، فتعانقا عناقاً طويلاً، وشكره برسيوس على جزيل لمساعدته، ثم افترقا على أن يبدأ برسيوس رحلته إلى جزيرة الجرجون.

* * *

وكانت رحلة طويلة شاقة، برغم نعلي هرمز. فكم بحار طوي، وكم وهاد رأى، وكم ريح صرصر كافح، وكم مشقة احتمل، حتى وصل إلى جزيرة الجرجون! ولم ينس ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر إلى أعلى

دائماً حتى لا تقع عيناه على عيني إحدى الجرجون فيحور حجارة صماء. وكان يتخذ من درع مينرفا مرآة صافية يرى فيها ما تعج به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات. ولشد ما سر سروراً لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث مستغرقات في سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق. وفي وسطهن مديوساً العاتية، تغط غطيطاً مروعاً. فاستخار الآلهة، وامتشق جراز هرمز، وتعوذ ثم تعوذ، ثم انقض كالصاعقة، فأهوى على عنق مديوساً بضريبة قاتلة، فانفصل الرأس من سائر الجسد، وهنالك، علا فحيح الأفاعي الباسقة في راس مديوساً، تدمدم في الكيس الجلدي الذي ألقاها برسيوس فيه، حتى لقد أستيقظ أختاها، وانطلقتا مرتاعتين في أثر الفتى، تودان لو تمسكان به، فتعتصران عظامه اعتصاراً ... ولكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما، وتحفظه من شرهها.

وبينما هو يطوي الضحاضح والبحار، وبينما هو منتش بخمرة انتصاره، مفكر في اللحظة التي يلقى فيها الملك برأس مديوساً، ويحظى لديه بثمرة فوزه، بينما هو كذلك، إذ يلمح في إحدى الجزائر زحاماً شديداً، وجماهير حاشدة، متكبكبة حول صخرة ناتئة، مشرفة على البحر، وقد تدلت منها قناة بارعة الجمال، بادية الحسن، مغلولة العنق، مربوطة الأطراف بسلاسل وأصفاد من حديد صلب، ونظر فراي تنينا بحرياً هائلاً يطفو فوق الماء، ويقترب من الفتاة قليلاً قليلاً، وراعه افزع الروع تلك الصرخة الهائلة التي صرختها الفتاة فرددت الغيران والكهوف ومشار في الجبال اصداءها.

ماذا ؟...

الفتاة مذعورة أيما ذعر، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكناً ... والتنين يقترب ويقترب ..، ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة، بل استل جراز هرمز وانقض فوق ظهر التنين وأهوى على عنقه بضربات سريعة متلاحقة غاص بها في أحشائه، ولبثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولاً، وكانت كلها فزعاً، والناس ينظرون مشدوهين، زائغة أبصارهم، لا يصدقون ما يبصرون. ثم أنجلت المعركة عن جثة التنين الضخمة طافية فوق الماء، الذي تحول بدوره خصما من الدماء. وقفز برسيوس الي الشاطئ، وذهب إلى الفتاة ففك أصفادها، وهدأ من روعها، ثم حملها على حصانه، وسأل الناس فقادوها إلى والدتها المسكينة المعذبة، التي حبست نفسها في حجرة مظلمة، وانتظرت ثمة من ينعي إليها ابنتها.

أما هذه الأم فهي الغادة الاغريقية كاسيوبيا، المشهورة بجمالها، وحسن روائها، والتي كانت أفتن حسان هيلاس في زمانها، ولقد امتلأت زهواً بما أضفت عليها الآلهة من قسامة، وما أسبغت عليها من وسامة، فزعمت، وهي تفاخر أترابها، أنها من عرائس البحار التي لا يدانيها في جمالها الباقي، جمال هذا البشر الفاني. فغضبت عرائس الماء، لهذا الادعاء، وأقسمن ليعذبن أهل الجزيرة التي فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذي شرع يغدو كل يوم إلى شواطىء الجزيرة فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها!
..

وذعر القوم. وحاروا في أمر هذا التنين، وذهبوا إلى الهيكل يقدمون قرابينهم للآلهة، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره، وتكفيهم أمره. ولقد أجيبت ادعيتهم؛ وتقبلت أضحيتهم، وأرهفت الأسماع، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب، وما هي إلا لحظة حتى انطلق صوت خفي من أعماق المذبح، يقول: "قدموا العذراء أندروميدا، ابنة الغانية كاسيوبيا، ضحية حلالاً لتنين البحر، جزاء غرورها وكبريائها – ذلك ان أردتم أن يكف الثنين عنكم شره، ولا يعاودكم أذاه!".

وانكفا القوم منحزونين مروعين، لأنهم كانوا يحبون كاسيوبيا وابنتها، حبا هو العبادة، وحاروا كيف يتقدمون اللام بهذا النبأ العظيم؟!

وكان لابد من النفاذ، لانقاذ الجزيرة وجميع سكانها..

والآن، لقد أنقذ برسيوس أندروميدا الجميلة من التنين، وشعر في سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه إلى هذه الفتاة وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلها برباط قدسي تباركه السماء وتحرسه العناية، فتقدم إلى والدتها يطلب يد آندروميدا ..

ووافقت الوالدة، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشاب الذي أنقذ حياتها مرتين: مرة من هذا الوحش الضاري الذي تركه برسيوس جثة هامدة، ومرة ثانية من ذلك الشيخ الفاني الهرم الذي تقدم إليها يريدها زوجة له، وكادت أمها أن تقسر على الموافقة لما للشيخ في الجزيرة من صولة وجبروت، لولا المقادير التي تتابعت بعد ذلك.

وأقيم مهرجان كبير، وزينات فاخرة للاحتفال بالعروسين، فمدت الأخونة، واعدت الأسمطة، وبدأت الموسيقى الإغريقية تعزف اشجي ألحانها، وأخذ الجميع في نصف حلو وسمر برئ.

وأنهم لفي كل ذلك إذا بالرجل الهرم الذي تقدم لخطبة أندروميدا من قبل، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين، واذا بالرجل يهتف ببر سيوس قائلاً: "برسيوس! لقد اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداء صارخا بانتزاعك أندروميدا من يدي، وانك أن لم تنزل عنها طواعية فسأكرهك على تركها قسراً، بعد أن تروى هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك!.. "فحدجه پرسيوس بنظرة ساخرة وقال: "من أنت أيها الرجل الذي يجسر على مخاطبتي بهذا الهراء؟ لقد أصبحت أندروميدا زوجتي، وإن كانت من قبل خطيبتك، أنت من غير ريب تحلم ... غير أني أسألك. أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة أن تنزل عنها قربانا للتنين؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم إنقاذها من الأفعوان البحري الذي أذلك واذلهم .." ومد يده إلى الكيس الذي كان به رأس مديوساً، فأخرجه وقال : "ولكن انظر إلى هذا قبل أن تقتلني". وما كاد الرجل ينظر إلى مديوساً، حتى تصلبت عضلاته، وتحجر جسمه، وظل مكانه كأنه تمثال! ودهش أصحابه لجموده؛ وظنوه قد سمر حيث هو، فلما لمسوه أستطيرت ألبابهم ولاذوا من الفزع بالفرار.

وأخفي رسميوس رأس مديوسا، واستمر القوم في سمرهم كأن لم يحدث شيء ... اللهم إلا هذا التمثال المنتصب في أول الردهة، والذي كان يهرف منذ لحظة، فأصبح عبرة الزمان، وضحكة الأيام!

وحان يوم الرحيل، فخرج أهل الجزيرة يودعون الزوجين، وظلت كاسيوبيا تعانق برسميوس مرة، وأندروميدا مرة أخرى، والدموع فيما بين هذه وتلك، تنهمر على خديها انهماراً ... والناس ينظرون ... ويبكون.

ثم حمل برسيوس عروسه، ومرق في الهواء كالسهم، والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون.

وكانت الرحلة هذه المرة، على شدتها وطولها، من أروح الرحلات إلى قلب برسيوس: وتستطيع أن تتصور القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين، في ملكوت السماء، لتدرك أي سعادة شعرية، وأي هنيهات سحرية، فازا بها في لازورد الفضاء.

وبلغ مدينة الملك بعد نأى طويل، وسنين عدة، فذهب أول ما ذهب إلى منزل أمه، وناهيك بما كان من عناق، وما تبادلا من تحيات، وبكت داناي المسكينة، وهي تهنىء ابنها باندروميدا، ثم أخذت تقص، ملء أحزانها، وفي فيض أشجانها ما انتابها من سوء، وما لحقها من عسف، لأنها أبت أن تكون خليلة الملك المخاتل الجبار، الذي صب عليها جام نقمته، وأذاقها من الهوان ألواناً! فحزن بريوس حزناً ممضاً، وهيج حتى خيف عليه، وذهب من فوره إلى قصر الملك بكل عتاده! ودخل إلى البهو الملكي بدون

استئذان وهو يضمر في القلب غصة، وفي النفس لوعة، وفي الكيس رأس مديوساً!!

وقال الملك حين لمح برسدوس: "أهلاً! برندسيوس! لقد عدت أخيراً، وما أحسبك وفيت بما قطعت على نفسك من عهود! لعل شجاعتك التي بالغ الناس في أطرائها والثناء عليها قد واتتك في حربك مع الجرجون؟!".

فأجاب برسيوس، دون أن يحيي بالتحية الملكية: "أيها الملك! لم تخاطبني هكذا ولا تتريث حتى تنظر أن كنت قد عدت إليك برأس مديوساً الرهيب؟".

فقهقه الملك، وملأ التهكم شدقيه، وقال: "طبعا، يستدعي أنك قتلت مديوساً ولكن رأسها وقع منك في البحر، فالتقمه الحوت؟ يا للشباب المخدوع؟!".

وثارت ثائرة برسيوس، ولم يجد إلى صبر من سبيل، فحسر عن راس مديوساً وقال: أيها الملك ... أنظر!".

وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عيني مديوساً، تم تحول في لمحة إلى تمثال من الحجر ما ياتي بحركة، ولا ينبس ببنت شفة!!

وحدث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت إليهم أخبار الملك، وما تم له مع برسيوس. لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم

مثل هذا الظالم العاتي المستهتر، ولقد كانوا يودون له الهلاك، حتى خلصهم برسيوس منه، فهرعوا إليه، وهتفوا في كل مكان باسمه، وحملوه على الأعناق إلى حيث الملك التمثال ... وهناك، صبوا لعناتهم على الطاغية، وانصرفوا، يهنيء بعضهم بعضاً، بعد أن اختار هم برسيوس ملكاً منهم ... فاضلاً، عادلاً ... وقد عرضوا عليه الملك فأبي ... لأن مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه، ومن أندروميدا كانت آثر لديه من كل ملك عتيد!!

وتوجه إلى حيث لقي هرمز، عند الصخرة المشرفة على البحر، فوجده ينتظره، فتعانقا عناقاً يفيض محبة، ويقطر وداً، ثم رد إليه هدايا الآلهة بالحمد والثناء ...

أما رأس مديوساً، فقد أهداه إلى مينرفا، ففرحت به في فرحاً شديداً، وهو إلى اليوم مركب في وسط تريها ترهب به أعداءها الألداء ...

أرفيوس الموسيقى

أرفيوس! لسان الطبيعة، ونجي الآلهة، ووحي السماء إلى
جي[1] وصاحب القيثار ذات الرنين ... والأنين!

كان يعزف، فتشيع الحياة في الصخر، ويقف أبوللو العظيم في مركبته الذهبية[2] مطلاً برأسه من عليين، يسمع ويطرب .. وكذلك كانت تصنع ديانا، فطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية[3] في أعلى أجواز السماء التلبث هنيهة بباب أرفيوس، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة، من مشرق الدنيا إلى مغربها.

كانت الوحوش تسكن إليه، وتجتمع من حوله تنصت وتلتذ ... وتغفو ..

والأشجار! أن لها لجذوراً متغلغلة في أطباق الأرض، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس، تنزع إليه، وتسير وراءه خبباً! وكم شهد الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم، والإيك الذاهب، سمعت إليه ثلتذ موسيقاه، ثم هي تنصرف في المساء فتنغرس في أصولها، وقد ازدادت نضارة وازدهاراً!

---

(1) جي هي الأرض في الميثولوجية اليونانية.

(2) مركبة أبوللو الذهبية هي الشمس.

(3) القمر.

ومع ذلك، فقد كان ذا غرة مشرقة، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل. وكان جم الحياء، لم ينهر مرة أحد رواده، أو المترددين عليه، بل كان يلقي الجميع ببشاشة الإخوة، وهشاشة الود.

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر، وأفتن من وشي الأصيل، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح.

اسمها يوريديس ... مصدر الهامة، و معين عبقريته، وجمال لحنه، وأغنية حبه، وأنشودة هواه. سئل مرة: "ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس؟".

فأجاب: "قيثارتي ... ويوريديس!".

* * *

كانت يوريديس تجمع الأزهار البرية في ربرب من أترابها، لتصنع منها باقة مفوفة تقدمها سالارفيوس. وكانت كلما راقتها سوسنة، أو وقعت في نفسها زنبقة، طبعت عليها قبلة ندية وضمتها إلى الباقة، وهي تقول: وأنت أيضاً لحبيبي أرفيوس ...

وبينما هي كذلك، اذا أفعى هائلة تنسل من بين الأشجار، فتلدغ قدمها الصغيرة الجميلة المطمئنة في الحشيش الأخضر، فتصرخ المسكينة صرخة مدوية، ثم تنطرح إلى الأرض، وتتناثر الورود والرياحين التي جمعتها حولها، كأنها تنضد سرير موتها.

وتجتمع صديقاتها مذعورات، فتعولن وتبكين، و تحملنها إلى أرفيوس الذي يستطار من هول الكارثة، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب، ويحاول المستحيل لإنقاذ أعز الناس عليه، ولكن .. ولكن هيهات! لقد ماتت! وأحتلكت الدنيا في عيني أرفيوس التعس، وأجدبت قيثارته من ألحان المرح، واستروحت إلى البكاء والأنين، فيا رحمتاه لمن ينصت إليها ويصغي لها! زفرات تنبعث حارة تصعدها أوتارها، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها!

وأرفيوس، مع ذلك منزو عن العالم، عزوف عن الناس، مستغرق في وحدته القاسية، يفكر في توريديس.

وصمم على إلا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم. بل لابد من رحلة طويلة إلى الدار الآخرة .. إلى هيدز .. حيث إله الموتى بلوتو، فيضرع إليه أن يرد عليه زوجته التي لا حياة له إلا بها.

فكرة غريبة، وتصميم عجيب، رجل من دار الفناء، له جسم، وفيه نفس تتردد من أخمصيه إلى ذؤابة رأسه، كيف ينفذ إلى دار الموتى وعالم الأرواح، مملكة الظلال والأشباح؟!

لكنه أمل ملا قلبه على كل حال، وها هو ذا يحمل قيثارته، ويبدأ رحلته، ولا يدري إلى أين؟

ضرب في الآفاق على غير هدى، وذرع الأرجاء في ضلال وحيرة، حتى رثت له الآلهة، فرشدته، وأنارت له سبيله، فاهتدى إلى ضفاف ستيكس[1] ذي الزبد، حيث وقف شارون النوتي الجبار، الذي يحمل أرواح الموتى في زورقه، يعبر بها أنهار الجحيم اللقاء بلوتو العظيم ..

وصاح شارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس، وزمجر قائلاً: ويا ابن العدم، يا سليل الفناء، يا من لم تفض روحه بعد، ماذا جاء بك إلى هنا، ولا تزال تتعث في برد حياتك الرث، وتتكفأ في قيد دنياك الوبيلة، عد من حيث أتيت، وإلا فوحق بلوتو المتعال لأسحقن عظامك، ولا قذفن بك إلى ستيكس، فيطويك اليم وتشريك الحمم .. عد .. عد أقول لك..وى. وكأنك لا تسمع!!.

ولكن أرفيوس يثبت غير هياب، ويتناول قيثارته غير وجل، ثم يعزف لحناً من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون!

شارون! هذا الفظ، غليظ القلب، أقسى حراس جهنم، يذوب رقة ويمتلئ حناناً ورحمة لما رأى وما سمع، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء، وعبارات البذاء، ويسأله في لين ورفق عن حاجته فيجيب: "ولا شيء إلا لقاء بلوتو!".

فيسأله شارون: "وكيف، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم؟".

---

(1) ستيكس هو النهر الكبير الذي يحيط بالدار الأخرة "هيدز" في الميثولوجيا، وهو يحيط كذلك بالأنهر التي تنحصر بينها جهنم، وسيجيء ذكرها.

فيجيب أورفيوس : "لا عليك ما دامت هذه – ويشير إلى القيثارة – بيميني".

فيقول شارون: "يا صاحبي أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم، وأني مخلص لك أمين، أنك غض الإهاب، موفور الشباب، وإن جهنم لا تبقى ولا تذر، وأنها أبداً ترمي بشرر كالقصر، وان أمحضك نصحاً علمتني موسيقاك كيف أمحضك إياه، وأستنقذك من عذاب مقيم ... إلا فلتفكر فيما أنت مقدم عليه، فإن من دونه مهالك، وأن من دونه أنكالاً وأهوالاً...".

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة، كانت رداً صامتاً على ما حذر شارون، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغنى أغنياته.

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة، حتى تتحدر الدموع من عيني شارون، ويتقدم إليه معتذراً، فيحمله في الزورق، ويجوس به عباب ستيكس، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيظ الموج وتلاطمه، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح، فيقول: ولو أنك، وأنت من أنت، من فوقه، سبب هياجه واصطحابه، ولو خلى أعماقه!!" ولكن أرفيوس بينك وبينه لما أنجاك منه شيء حتى تكون في أعماقه!!" ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة، ويتناول قيثارته فيوقع احدي آناته المشجية، فيهدأ سيكس الصاخب، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه!..

وتطول الرحلة، ويعبران (أشيرون) نهر العدم، و(ليث) نهر النسيان، و(كوكيتوس) نهر الآلام، و(فليجتون) نهر الحمم واللهب، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز) – دار الموتى – ومملكة بلوتو، بعد عقبات الرقيقة، وأنغامها الباكية ..

وتبدأ من هذا الشاطئ الأخير رحلة شاقة في ظلام دامس وحلك شديد، في مسالك ملتوية، وشعاب متداخلة، لا تجدي معها موسيقي ارفيوس فتيلاً، وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس، كيف حملها شارون في زورقه، وكيف إلى المقر الأخير، وهل كانت تبكي؟ أم كانت راضية بالقضاء الذي فصلها من أحب القلوب، وأقصاها عن أعز الناس؟ وهل حدثته عن الشاب أرفيوس؟ أم كانت في شغل عن كل شيء بما هي فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن في عبور أنهار هيدز وفيائيها؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها؟ ...

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلاً إلى بوابة كبيرة الحجم تصل إلى قصر بلوتو، ولكن كلباً ضارياً بادي النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها، فلما لمح أرفيوس، وهو من غير الأموات هاج وماج، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع ..!

وتنبه أرفيوس، فحرك أوتار القيثارة، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه، فثاب الكلب وهدأ، وبعد أن أقعى قليلاً، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميه، ويتمسح به، ويا للموسيقى!

ثم هذا عرش بلوتو، وإلى جانبه زوجته ربة الربيع، برسيفون[1] كسيرة القلب مهيضة الجناح، تعلو أساريرها عبوسة قاتمة، وتجثم على قلبها لوعة دائمة. يا لبرسيفون! ويا لهذا المنفى السحيق!

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذي استطاع أن ينفذ إلى هيدز، وفيه رمق من حياة!!

وقبل أن ينبس بلوتو، جثا أرفيوس لدى قاعدة العرش، وطبع على الأرض قبلة كلها احترام ووقار، ثم تناول قيثارته، وطفق يتغنى قصته المشجية، يرسلها خلل أنغامه الحزينة، وملء ألحانه اليتيمة .. حتى أتمها.

وكانت الموسيقى الممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامي، قد تغلغلت في السويداء من قلبي الزوجين، وكانت الرنات، الممتزجة بالاناث، والهديل ليس مثله هديل، قد أحدث أثره في نفسيهما، حتى أن دمعة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد برسيفون!

---

(1) برسيفون، أو بروزربين كما يسميها الرومان، هي ربة الربيع التي اختطفها بلوتو لتؤنسه في وحشته في هيدز، بعد إذا رفضت جميع الربات مقاسمته ملكه.

وفي الحق، لقد هاجت قصة يوريديس شجون برسيفون، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة، في هذا الملك البغيض!

وانزعج بلوتو لمجرد وسواس لج في صدره، لما شاهد من تأثر زوجته، وانسكاب هذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب، حتى لقد خيل إليه أن شياطين الحب قد إلى قفزت من فم أرفيوس الخبيث، ومن هو سيقاه الشاجنة، إلى قلبها الغض الصغير!

وقال بلوتو: "انهض أيها الشاب" فوحق أورينوس[1] لقد كدت تكون من الهالكين، لولا قصتك الباكية، و موسيقاك المبللة بالدموع. والآن، ماذا جاء بك إلى هنا؟ وما الذي تطلب أن ينتهي إليك من إحسان بلوتو؟".

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة، ثم قال: "مولاي! يوريديس يا مولاي؟ تأمر فتعود أدراجها معي إلى الحياة الدنيا!".

فأجاب بلوتو: "طلبت المحال أيها العبد، ولكن بلوتو الكريم، لن يرد رجية بائس مثلك ... لك ما سألت، وستعود يوريديس معك، ولكن على شريطة واحدة، ألا تراها حتى تخرج من هيدز. أنها ستتبعك، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى!".

وركع أرفيوس ركعة الشكر، ثم قال: "سأنقذ مشيئة مولاي".

---

(1) أورينوس هي السماء، أبو الآلهة، في الميثولوجيا.

وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى يدلجان، في ظلمات بعضها فوق بعض، والحبيبان يدلجان خبباً.

وكان قلب أرفيوس يدق .. ويدق.

وأنهما ليكادان يبلغان العدوة الأخيرة من نهر ستيكس حتى يوجس أرفيوس خيفة، ويظن – ويا شر ما يظن – أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه، فينسى شرط بلوتو، ويلتفت فجأة خلفه، ليرى أنها ما تنفك تتبعه. ولكن يا للهول! لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها إليه، كمن يتلمس طريقه في الظلام، وحين تراه يلتفت إليها. فيخل بالشرط الذي عاهد ربها عليه، تنثني من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدز .. متمتمة في صوت ضعيف خافت : "وداعاً يا أرفيوس"! يا حبيبي أرفيوس .. وداعاً ...". فيصرخ المسكين صرخة يكون معها في هذه الحياة الدنيا، حياة الشقاء والآلام!

ويظل على شاطئ ستيكس سبعة أيام منجعاً محزوناً .. يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدز .. ولكن .. هيهات!

ويدخل الدنيا محطم القلب، خفق الأحشاء، موهون القوي ... لا يطيب له عيش، ولا يسيغ لذة من لذائذها، ويتخذ مأواه في شعاب جبل تزمزم الرياح في جنباته، وتزمجر الوحوش في غيرانه، وتدوى البواشق في قننه، ويكون كل أولئك خير صحابه، ويا ما أعز الرفاق!

وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف إليه في أيامه المواضي، فيحتلن عليه ليعزف لهن من ألحانه، ولكنه يعزف عنهن ويشيح، ثم يفر منهن، فيقتفي أثره، فيمعن في الفرار، فيتضايقن، ويصمينه بسهامهن، ثم يرجمنه بالحصى المسمومة، والحجارة الثقال، حتى يموت!

ويسمعته اذ هو يجود بروحه يقول : "يورنديس ... يورديس!".

فتردد الأصداء نداءه الحزين: يوريديس .. يوريديس!"

ولا تزال الأشجار والأطيار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المغبون المحزون: "يوريدس .. يوريدس!".

* * *

وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس، وأشيرون، وليث وكوكيتوس، وفليجتون .... فيتلقاه شارون الجبار باسماً هاشاً منحيياً .. ويجلسان معاً في الزورق، يقصان ذكريات الماضي ... القريب! ويتلقاه الكلب عند البوابة، فيهرول إليه، ويتمسح به، وفاء وذكرى!

ويتلقاه بلوتو كذلك، فيهنئه بالعود ... اذ كان العود أحمد!!

أما يورديديس ...!

فلشد ما يكون فرحها بعودة حبيبها!

مأساة أم

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه في حدائق السوسن، وتنشد مع البلابل ألحان الشباب، فتنصت الطبيعة و تتفتح آذان الورد، وتحملق أحداق النرجس ترى إلى كليستو الرقيقة رقة النسيم، الحلوة كأنها حلم جميل في أجفان عاشق، الموسيقية التي يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء، ويتسع حتى يغمر الكون، فيثوى بكل أذن، ويستقر في كل قلب، ويخفق مع نبضات المحبين، وينسكب ذوباً من دموع المدنفين المعذبين!

رآها زيوس فجن بها! وبالرغم مما أعطى على نفسه من مواثيق الزوجة حيراً إلا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائي كن إلى هذه اللحظة ستاً أو أكثر من ست، فقد ذهب يقتفي أثر كليستو، ويرهف سمعه ليملأ بموسيقاها قلبه وقلبه ..

كانت تمشي بين صفين من أعواد الزنبق، تثمقهما ورود ورياحين، وكانت تنثني و تميس، فيهتز الروض وينتشي الزهر، وكلما ترنمت بأغنية من أغنياتها الساحرة، رددت الأزهار والأطيار ما تغنت، كأن كل شيء في تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو في فرقة كليستو الموسيقية.

وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من ثمرها الجني، ورطبها الشهي، فتتذوقه كليستو وهي تبتسم.

وأسكر النسيم الخمري عينيها الساجيتين، فاستسلمت للكرى الطارئ، والغفوة المعارضة، وتمددت على البساط السندسي ليحسر الهواء عن ساقيها ولتكون فتنة يضل في تيهها قلب زيوس، وتضرب في بيدائها نفسه ... على غير هدى!! .

وبدا للإله الأكبر أن يرتد فني موفور الشباب ريان الإهاب، ثم يسوق آلهة الأحلام فترقص في أجفان كليستو، تبهرج لها من الرؤى ما يشب في نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب، ويشير فيها حرارة الحياة.

وقام الخبيث إلى جانبها، وطفق يروح على وجهها ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد، وراح يضغط قليلاً ... قليلاً ..

ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها في قلب كليستو، فلما استيقظت، ووجدت نفسها في حضن هذا الشباب اليافع الجميل، لم تنفر، بل خجلت خجلة زادتها جمالاً، وضاعفت سحرها، وفتونها، وفترت أهدابها فاسترخت، وفنيت في حبيبها المفاجيء .. وفنى هو الآخر فيها.

***

وجاءها المخاض!.

ووضعت غلاماً أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلها الندى.

فلما زارها زيوس وبشرت به، اهتز الإله الأكبر وشاعت الكبرياء في أعطافه، فباركه، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة، ثم زف إلى كليستو تلك البشرى التي ظل يخفيها عنها طوال حبه لها، وذلك حينما أشار إلى ابنه بيمينه البيضاء هاتفاً:

– "بوركت يا أركس! يا أجمل أطفال الأولمب!".

وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى حبيبها كأنها تستريب، وقالت له:

– "أجمل أطفال الأولمب؟ إذن من أنت أيها الحبيب؟".

– "بشراك يا كليستو! فأنا ربك وزوجك وحبيبك زيوس!".

ولم يسع كلبستو إلا أن تسجد لربها وهي ترتعد من الخوف، فقال لها:

– انهضي! انهضي! ماذا تصنعين يا حبيبة؟ انهض فقد رسمت ابننا آركس إلهاً، فاكفليه حتى يشب، واياك أن تراكما حيرا فتسحقكما ..".

وقبل الغلام وقبل الأم .. وغاب في الأفق ..

***

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة، فإذا خرجت للصيد في الغابات القريبة، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر، يكفي أحدهما لتشتيت شمال جيش بأكمله .. وكانت تحمل إليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة، حتى إذا اشتد ساعده، علمته الرماية وألعاب الفروسية، مستعينة في ذلك بالسنتور العظيم، شيرون، مؤدب هرقل ومدربه.

وذاعت الأنباء في دولة الأولمب، أن لزنوس خليلة يختلف إليها في الفينة بعد الفينة، وأنه أولدها طفلاً بارع الحسن، وسيما قسيما، تكاد تكون في مستقبله هرقلاً آخر، يضارع هذا الهرقل الهائل، ابن الكمين الذي كان يدوخ أبطال العالم في ذلك الوقت ..

وقد مادت الأرض بحيراً حين علمت هذه الأنباء، لأنها كانت تغار من أزواج زيوس، وتخشى أن تلد أحداهن بطلاً يكسف شمس ولديها مارس وفلكان. وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها، فكم نثرت في طريقه شوكاً، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار. أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر يغطش حياتها، ويراوحها بالأشجان والآلام!!

و كانت كليستو تصدح في أصيل يوم من أيام الربيع، فتستجيب لها الغابة، ويردد غناءها الطير، ويمشي في أثرها الدوح، وتهتز الأرض والسماء، وكانت حيراً قد عرفت أوصافها من شيرون، مدرب فتاها أركس فلما سمعتها تغني، ويمشي وراءها العالم بأسره، عرفت أنها هي!!

وكاد قلب حيراً يصبو إلى كليستو، مسحوراً بروعة الغناء، مأخوذاً بترجيع البلابل .. حتى لكانت تخال الورد نفسه يغني معها!! وكادت بذلك تنسي غيظها، بل كادت تنخرط في هذا الحشد الموسيقي الذي يصا لكليستو ويستجيب لألحانها! ولكن! ..

لقد ذكرت أبنيها مارس وفلكان، وذكرت كيف صرعهما هرقل في حفل الأولمب، حتى لكانا ضحكة كل راء، فنسيت الغناء وأصمت أذنيها، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية، ورقى غيبية، ثم صاحت بالفتاة فسمرت مكانها دهشة مأخوذة، فنثرت حيراً في وجهها الماء وهي تقول: "شاهت دية! شاهت دبة!" .. وا أسفاه..

لقد أحست كليسترو في ذراعيها العاجيتين بخدر شديد ثم نظرت فرأت شعراً خشناً ينمو بسرعة فيغطي جسمها البض الجميل كله!

وأحست أظافر طويلة غليظة تنبت في أطارف أصابعها، ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رجليها المعبودتين!

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول، ثم يتغير ويتحول حتى ركب فيه أنف كبير أسود، وفم مغبر في منتهى القبح، يسيل على جنباته لعاب شائه كريه!

وخيل لها أن ذنباً ينبت وراءها، فتحسسته فأيقنت انه ذيل خبيث .. ما في ذلك ريب!

وفزعت كليستو، فأرادت أن تصيح تستنصر الغابة. ولكن .. يا للهول! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات، و تعوي كيا تعوي الذئاب!! .

وانخلع قلب الفتاة فيحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين، بل انطلقت تعدو على أربع كأنها بهيمة من بهائم الأرض!

واصابتها حيراً بظمأ كاد يصهر حلقها، فذهبت إلى غدير ترتوي، ولا أنحنت ترشف الماء رأت صورتها الفزعة تتقلب في صفحته، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد، بل أنها قد أنسحرت فصارت دبة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود، وعينين رجراجتين تقدحان الشرر.

وانطلقت في الغابة تعدو وتعدو، وتتواري بين الأشجار حتى لا يراها أحد، وكانت الحيوانات – حتى ضواريها – تفزع منها كلما مرت بها،

وهكذا شاءت المقادير الظالمة إلا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الموحشة، التي كانت قبل لحظات ترقص بين يديها .. وتنشد وتغني!!

وضربت في القفار والفلوات، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزعه، و كانت تختلف إلى الغابة، فإذا مر بها بعض أصدقائها القدماء عرفتهم ثم تتوارى عنهم، وفي نفسها هموم وحسرات..

خمس عشرة سنة!!

خمس عشرة سنة قضتها كليستو التاعسة في هذا الشفاء الطويل، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر في ابنها وتبكي .. تفكر في آمالها .. وتبكي، و تفكر في ذكريات شبابها .. وتبكي، وتذكر الموسيقى والغناء .. وتبكي!

وأشتعل قلبها شوقاً إلى أركس، فجلست إلى أيكة حزينة تتناجى:

"ترى! ماذا تصنع الآن يا بني؟ الا تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأولمب؟هل أنت مريض يا أركس؟ هل في جنبك جرح يتفجر دماً لبعد أمك عنك، كهذا الجرح الذي تنزف منه نفسي، وتنسكب حياتي؟ وهل إذا أصابك ضر، فأنت واجد قلباً يحنو عليك وترفق بك .. ويرعاك؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق يا ترى؟ أي بني!. يا ولدي!! يا حبة القلب يا أركس!!".

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر، ويحرق فحمة الليل، ويزلزل أركان الكهف المظليم الذي تعودت قضاء لياليها فيه ..

أما أركس فكان هو الآخر يبكى أمه، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حزنه، ويطفئ بمواعظه نار أساه، فنسي، أو تسلى .. أو تناسى.

واشتد ساعده، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم، ولا تخيب له رمية، وأحبه شيرون من سويدائه، ولازمه طويلا، حتى كانت حرب السنتور فودعه، وعاش الفتى وحيداً .. يحيا حياة هي بحياة أمه في شبابها الأول أشبه، يختلف إلى الغابة يصيد منها الثعالب، والى البرية يرمي فيها الوعول، ويعود مع الغروب مثقلاً بالصيد.

وفيما هو يرتاد الغابة في ضحى يوم شديد القيظ، إذا أمه المسكينة تلمحه فجأة، وتعرف فيه ابنها، وأعز الناس عليها! .. فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لا تشبس ولا تحير!

فهل عرفت هذه التماثيل المرمرية التي تقف صامتة كالألغاز في المتاحف ودور الآثار؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجراً عندما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال!

ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها، لأن الصيادين لا يرهبون من ضواري الغاب شيئا كما يرهبون الدباب، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها، ولكن .. هيهات. فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك!

والتفت أركس ففزع أيها فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه، وهو غير متهيئ للرماية، فارتبك لحظة، ثم تناول قوسه بيد مرتجفة، وأصابع مرتعشة .. ولكنه، ويا للعجب! أحس ببريق غريب ينبعث من عيني الدبة، وشعر بحنان وعطف يتحركان في صميمه من أجلها، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع، وضاعف دهشته أن الدية سمرت مكانها دون ما حراك، وأن دموعاً حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين جعلنا ترنوان اليه، وما تريمان عنه!!

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الكلام فتقص حكايتها على ابنها، بيد أنها خافت أن تضاعف انزعاجه بصراخها الحيواني المخيف .. فصمتت .. وتكلمت عبراتها! .. ثم ..

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه، وكاد السهم المميت يمرق فيودي بحياة أعز الأمهات .. لولا أن زيوس .. الإله الذي طال رقاده!. كان يسمع في تلك الآونة ويرى، ولولا أن تحركت في قلبه الرحمة هذه المرة، فلم يبال التدخل في سحر زوجته – حيراً الخبيثة – فأطلق لسان كليستو، وصاحت فجأة:

"أركس..ابني العزيز .. أنا هي .. أنا هي أمك ..

وسقطت القوس من يد أركس .. وكانت مفاجأة مشجية! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق! وقال لها:

– "ماذا تقولين؟ أدبة تتكلم؟ أم من ؟ .. من أنت؟".

– "أنا هي يا بني .. أنا كليستو أمك البائسة .. فعلت بي حيرا ما ترى .. خمسة عشر عاماً يا أركس وأنا أتعذب وأبكي من أجلك في هذه الغاية المتوحشة! ..".

ولم ينبس أركس ببنت شفة، بل تقدم مهدها من الهم، فعانق أمه .. ووقفا لحظة يبكيان!!

ثم تدفق حنان السماء، وأمطرت رحمة الإلهة، وأمر زيوس فحملا إلى الأولمب .. أركس وأمه، ومن ثم أطلقهما رب الأرباب في السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها، لا نزال نراهما إلى اليوم، ولا نزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة إذ نسمى الأم "الدب الأكبر" ونسمي الابن، أركس الحبيب "الدب الأصفر" .. ولا تزال حيراً القاسية تنظر اليهما وتتميز من الغيظ[1].

(1) أورد الأستاذ جربس هـ. كيفر في كتابه الجميل عن أساطير اليونان زيادة في آخر هذه الأسطورة لم يأت بها غيره، بل لم يشر إليها. أحد من مؤرخي الأساطير، والزيادة – إذا صدق حدسنا – هي من ابتكار الأستاذ، ولذا لم نر أن تكمل بها قصتنا.

يوم قيامة وطيش فيتون

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسناء الهيفاء كليمين، بعينين مغرورقتين، ونفس مكلومة، وفؤاد خافق متصدع، فجرى بينهما هذا الحديث:

– مالك يا حبيبي! لماذا تبكي؟

– .. ؟ ..

– لا. لا.. فيتون يبكي؟ هذا عجيب! أيكون أبوك أبوللو وتبكي؟!

– أبوللو أبي؟ كذب، كذب؟

– كذب؟ وكيف يافيتون! أمك كذابة؟

– لا لا، عفواً يا أماه! أنت لا تكذبين، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بي!

– ولم أسخر بك يا بني؟

– الأولاد في المدرسة يغمزونني في أبي، وكلما حلفت لهم أن أبي أبوللو ضحكوا!

– دعهم يضحكون يافيتون. ماذا يضيرك؟

– يضيرني انني لم يعد لي وجه أريق ماءه بينهم، لأبد اذا كان أبوللو ابي أن ألقاه.

– تلقى أبوللو؟

– ولم لا؟ أليس كل الأبناء يلقون آباءهم؟ فلم لا ألقي أبي؟ أأنا بدع من الناس؟

– لست بدعاً، ولكن أبوللو في بلاد بعيدة .. إنه في الهند!

– ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبي؟ صفى لى الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه.

– اذهب إلى الأرض التي تشرق من افقها ذكاء. فهناك ترى أباك.

وذهب إلى الهند التي تقع في مشرق الشمس مباشرة، وكان عند شاطىء المحيط قصر باذخ منيف، لا يبلغ البصر مداه، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره .. وكان مع ذاك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء. وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع، ويكاد سناه يذهب بالأبصار، أما أبوابه فصيفت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم، وأفتن فلكان قصور فوق الجدران بالرسم البارز الأرض والبحر والسماء بما فيها من قطان، فأقام في

الأرض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجمالها ووديانها .. حتى آلهتها. وأبرز في البحر عرائسه المائسات الفاتنات، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج، وجالسات على النؤى يمشطن شعورهن الداكنة التي تحكي خضرة البحر، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن .. وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات، دليلاً على حذقه وجليل قدرته، وجمل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الأثنى عشر، بحيث جعل منها سنة إلى اليمين، ومثلها إلى اليسار .. خلق فلكان، ومن أحسن من فلكان خلقاً[1]

وهكذا كان قصر الشمم آية من آيات الفن عجباً، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة، فقد تقدم فيتون غير هياب، ودخل في غير رجل، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة، ثم يسلك سبيله قدماً حتى كان في البهو الأعظم الذي يستوي في صدره أبوه، على عرش ممرد ناصع، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة، تبهر الأنظار، وتخسي الأبصار. وسار الفتى مسافة قليلة، ثم وقف مكانه عشيا من شدة الخطف والإيماض، ولم يدر أبان يذهب، وكان أبوه متشحاً بوشاح فضفاض أرجواني، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة، ثم وقف الربيع – وتمثله هنا امراة – و فوق راسه اكليل جميل من ألغار والزهر، ومن بعده وقف الصيف، وقد نضا جيب قميصه عن صدره، وقبض على حزمة من سنابل القمح

([1]) ليذكر القارئ أن القصة أسطورة.

الناضجة يمينه، ثم هم الخريف متهالكاً على نفسه، وعلى قدميه أثارات من عصير العنب .. أما الشتاء، فقد بدا شيخاً وقوراً جال الشيب رأسه، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع.

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه، وقد خطفت الأضواء بصره، وأخذه المنظر العجب الذي سحره عن نفسه، فيهتف به ويباركه ويقول:

– فيتون! فيم قدمت يابني؟ لأمر ذي بال، ليس من ذاك بد؟

– أوه! يا نور السموات والأرض يا فوبوس[١]! يا أبي أن أذنت لى أن أناديك بهذا النداء! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول أني أنا ابن أبوللو

– برهان؟

– أجل، هب لي من لدنك برهاناً يثبت أبوتك لي، فلقد استهزأ بي التلاميذ، ففضحوني في بنوتي لك لابد من دليل، هل تسمع؟ لابد من دليل؟

(١) أحد أسماء أبوللو.

لا عليك يا بني! لك ما أردت .. على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قالت لك أمك، وأنا من جهتي لست أنكرك، فأنت ابني وأنا والدك، والآن سل ما شئت فإني مانحك أيا ما تريد.

– صحيح يا أبي؟

– أولاً تصدق ما أقول؟

– بلي، ولكن ليطمئن قلبي!

– صحيح يا بني، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة!

فيتلفت فيتون حوله ليرى البحيرة، ولكنه لا يجد لها أثراً ..

– وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه!

– ولد ظريف يا فيتون! أنا ما رأيتها قط، ولكنا نحلف بها في كل أمر جلل يا بني؟

– إذن هب لي أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً – بدلاً منك.

– وي! فيتون! أي طلب هذا؟.

– لابد؟

– محال يا ولدي! أنت حدث، ثم أنت بشري من بني الموتى! سل ملء الأرض ذهبا أمنحك ما تريد؟أما هذا، فلا!

– كلا كلا .. لابد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ، وليتأكدوا أنني ابن أبوللو؟!

– أنها ستحرقك وتحرق التلاميذ اخوانك قبل أن يروك!

– لا.. لن تحرقني، أنت قادر على أن تجعلني احتمل كل شيء! .. ألست إلهاً؟ ..

– بلى، ولكن ..

– لكن ماذا؟ لا بد، لابد، محال أن أسألك شيئاً آخر!

– يا بني، أن هذا ليس في طوقك، أنك ضعيف صغير، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة، أني أقوم به والرعب يملأ قلبي، وأنا، من أنا يافيتون .. أن سيد الأولمب نفسه، الاله الاكبر زيوس، جل سناؤه، وتقدست أسماؤه، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتهبة ذات اللظى يوماً أو بعض يوم، فما بالك أنت؟ أن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقي لأنه يميل قليلاً قليلاً عن خط العمود، وخيلي ترقي مزالفه[1] في صعوبة ليس بعدها صعوبة، والثلث الثاني عال شديد العلو،

([1]) المزالف: المراقي.

لأنه يرتفع فوق قمة العالم، حتى لا جزع أنا نفسي من أن انظر إلى أسفل تقية للدوار أن يأخذ في رأسي[1] حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشهم تزدلف من تحتي، أما الثلث الأخير: فحدور شاق كمهاوي الجبل إذا وقفت عليه فوق شعفته[2]، ولذا فهو يقتضي الحذر وحصر البصر، حتى أن تاتيز الواقف في نهايته ليتلقاني، يرتعد من الخوف على، والرثاء لي، خشية أن أتردى في هاوية اللانهاية هذه، ولا تنس السماء التي تجري فوقي لمستقر لها، بكل ما فيها من كواكب وأجرام، فإذا غفلت لحظة، أو أخطأت قيادة العربة، جرفتني في دورتها إلى حيث لا أعلم أين تذهب أو تستقر بي. ثم تدبر معي قليلا يافيتون، إذا أنا سمحت لك بقيادة العربة، فماذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى السفل فترى الأرض تلف، والسباع تهمهم في الأدغال، والناس يكظون المدن والآلهة تطل من قصور الأثير، والأشباح تسري حواليك كالسمادير؟ ماذا من الروع يعتريك يا ولدي؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو تملك إلا يفلت العنان منك؟ أنك ستمر بين قرني الثور أمام الحوت، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعي السرطان[3] .. يابني! هل تستطيع أن تقود الخيل التي تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدنى الدائبة؟ اختر لنفسك يا بني ولا تجعل الناس أن يقولوا أهلكه أبوه".

---

(1) هذه عبارة القاموس.

(2) قمته.

(3) كل هذه أسماء بروج في السماء.

وتشبث فيتون، وركب رأسه، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة، فلم يسع أبوللو إلا أن انطلق به حيث عربة الشمس؟ العربة العظيمة المطهمة، المصنوعة كلها من الذهب الخالص، وقليل من الفضة المزركشة باللآلىء والجوهر، وأحجار الماس التي تعكس أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها، وتزيد كثيراً في لالائها.

وتقدمت أورورا ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق، ونضرت بالورد طريق أبوللو، ثم أخذت النجوم تثب .. كالحمائم قبل المغرب، وفي أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء ..

وتلفت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه، فأمرهن أن يسرجن الخيل، فأطعن، وقصدن إلى الأسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس، فوضعن في أفواهها اللجم، وأسر جنها بكامل عدتها ..

وتناول أبوللو وجه ولده فنضحه بطيوب الهية، وضمخه بدهن كريم، ثم قطر في عينيه قطرات من ماء أولمب، كي يقوي الفتى على تحمل الحرارة الفائقة، والصبر لضوء الشمس القوي، ثم وضع على رأسه الصغير هالة الثور الربانية، وأشار إليه فأستوى على العربية العظمى التي تجر الشمس، فتثير أقطار السموات والأرض، وقال يوصيه:

"أي بني! ها انت قد أستويت على عربة أبيك التي ما قادها من قبل أحد غيره، ولا يقدر عليها أحد سواه! أي بني فاشدد إليك أعنة الخيل،

وتجنب أن تلهبها بهذا السوط، فهي قد مرنت على الطريق، وهي لا تبطئ حتى تحتاج إلى أن تساط، أي بني ولا تنحرف عن شمالك أبداً، وظل منتهجاً سبيل الاستواء الذي هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس، واحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى، وسترى آثار رحلاتي من قبل، فسر على دربها تصل أن شاء الله. أي بني ولا ترتق معارِج السموات فتصيب مساكن الآلهة، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها هشيماً جزراً، بل خذ الطريق الوسطى أبداً، فإن خير الأمور أوسطها .. فإذا أفلتت الأزمة من يديك، فظل حيث أنت، ولا تذهب مذاهب شتى في رحب السماء. وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات. أي بني وما دمت قد اخترت لنفسك برغمي، فلا أقل من أن تعي نصيحتي والسلام عليك".

ورد فيتون على ابيه السلام ... وانطلق من أبواب المشرق، وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب، وتسابق أنفاس النسيم التي تهب هي الأخرى رخاء من أبواب المشرق ..

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذي لا عهد لها به، وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذي ليس له صبرة[1] تثبت به في مهب الأعاصير.

([1]) الصبرة والصبارة: الحجر الذي يضعه الملاح في قعر زورقه حتى لا يميل فيغرق، ويسميه العوام (الصابورة).

وجمحت الخيل .. وانطلقت في غير طريقها المعهود .. ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تلامس الدبين الأكبر والأصغر، فثار ثائرهما من لفح الحر، ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان المتحوى فوق نجم الشمال حين أحس الدفء فنفث سمه الزعاف، وفرت من طريقه الكواكب .. ونظر فيتون تحته، فرأى الأرض تلف كالخذروف فريع قلبه، وزلزلت نفسه، وسقطت من يديه أعنة الخيل فجرت به في السفل حتى اقتربت من الأرض .. ونظر وراءه .. فرأي أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله، ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطرق وأوعره، فزادت حيرته، وأسقط في يده، وترك كل شيء للقضاء والقدر .. وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد .. وحدث أن ارتفعت هذه فجأة، حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب، ذلك الهولة المخيف الذي أوشك أن يبتلع العربية بمن فيها .. وشدهت ديانا ربة القمر حين رات عربة أخيها تتخبط في الآفاق، وتصطدم بالكواكب، فتحدث الشهب، وتحرق العوالم السماوية: "ترى ماذا أصاب أبوللو؟ مسكين؟ لا بد أنه نام. على كل حال سيستيقظ!" ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت في سماء الأرض، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية سهم .. فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق في كل الأرجاء .. ها هي ذي الغابات العظيمة تشتعل .. وها هي ذي السن النيران ترقص في كل فج .. وها هي ذي الوحوش تجرى هنا وهناك ثم تسقط في كل البقاع .. والمدن! المدن المغامرة الأهلة .. أنها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان .. أما الشباب؟ فواأسفاه على الشباب! أنهم يجرون كالجان الي البحار والمحيطات والأنهار والينابيع! وها هم أولاء يقذفون بأنفسهم فيها.

ولكن! وا أسفاه: أن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتفور، ويعب عبابها بالحمم، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار؟ لقد بادت أمم، واختبأت أمم في الغيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال .. أما الطيور فقد خربت أو كارها ووكناتها، ولم يسلم منها إلا مالاذ بافحوص أو أدحي[1] .. ومسكينات عرائس البحار! لقد شحبت ألوانهن، وذوى جمالهن وغصن في الأعماق مع السمك يلتمسن الماء البارد، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية، وآثرن أن يعاشرن البنجوين؟ أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل الأول مجللة بركام الثلج، فقد خلعت حللها الناصعة، وحلت عمائمها المخملية، وصارت تلتهب .. فهذه طوروس الشماء وتلك القوقاز العاتية، وهاتيك الألب المزهوة كلها تلتهب .. كلها تقذف بالجمم .. حتى أولمب المزهوة كلها تلتهب .. كلها تقذف بالجمم .. حتى أولمب مثوى الآلهة، لقد غدا كومة عالية جداً من النار.

ولقد كانت الصحراء اللوبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها إلى رمال وكثبان، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب مهيل منها لجف ماؤه، وتبخر في السماء كله، ليجري في كوكب آخر! وهكذا فعل الفرات وأخوه، وكذا صنع الكنج والسند .. فشكراً لكل الأنهار التي ضحت بنفسها من أجل س عادة البقية الباقية من النوع البشري!

يا له يوم قيامة ؟. لقد ضجت الآلهة في الأرض، و كلما حاول نبتيون الجبار إله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى إلى أخيه كبير

---

(1) الأفحوص عش في الأرض، والأدحى بيت النعام.

الآلهة، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون .. ولولا أن جازفت أمناً الأرض فبرزت من المحيطات وهتفت بزيوس العظيم لأصاب من بقي العذاب الأليم .. لقد قالت له: (يا جوف العلى! يا رب الأرباب! أصغ إلي، واستجب لدعائي؟ ما هذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزرعي وضرعي؟ أهذا جزاء خصوبتي وما تهب عبادك من حب وأب وعنب وقضب وحدائق غلب؟! أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهياكل ويبثون باسمك الصوامع والمعابد؟ ماذا من القرابين يا رب الأرباب يذبح باسمك بعد أن يهلك كل ما على من قطعان وأسراب ورعال؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد؟ كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً، وتصير كل شيء في ملكك إلى هيولي؟ استيقظ يا جوف واستمع، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التي نحن فيها أشد مانكون في حاجة إليك".

* * *

وهب جوف من سباته العميق على جوار ربة الأرض، وأبصر فرأى ما حل بالعالم الجميل من تدمير ووبال .. فألم وتصدع .. ونظر إلى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون ابن أبوللو فهاج وماج، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها، ثم احكم تسديدها إلى الراكب المجنون .. وأرسلها تقصف وتعزف .. وتهز الأفلاك. فأصماه وارداه.

وسقط الغلام الاحيمق من علو العالم يتقلب في نهر اريدانوس المتدفق في سهول ايطاليا .. حيث مات ..

واستراحت الدنيا كلها منه؟ وعادت الشمس إلى ربها .. أبوللو المسكين .. فهو يجري بها إلى اليوم المستقر لها!

أما كليمين البائسة، فهي إلى اليوم تبكي ولدها... وقد بكته معها أخواتها، وكن في كل صباح يذهبن الي النهر الذي سقط فيه فيسكبن دموعهن، حتى رثت لهن الآلهة، فسحرتهن إلى ايكات ثلاث من شجر الحور، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم.

وكلما سكبن دموعهن حارت الدموع إلى كهرمان كريم.

وحزن سيكتوس، صديق فيتون، على خدن صباه، فجمع رفاته، وبني لها قبراً من الرخام تظله الشجرات كتب عليه: "ما أتعس الإنسان اذا أحتاج إلى برهان على أنه ابن فلان!".

بلوفو يخطف برسفونية

أسطورة الربيع

كانت ديميتير الطيبة[1]، ربة الخيرات ومغدقة البركات، الرحيمة البارة، ملونة الزهر ومنضجة الثمر، واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها .. كانت ديميتير الطيبة تسكن في قصر منيف يشرف على سهل أنا Enna، أروع سهول جزيرة صقلية جمالاً وأعذبها وأطيبها هواء، وكانت حين يتنفس الصبح، تلبس تاجها اليانع الذى ضفرته من سنابل القمح، وتتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة، وتقبض بيمينها على صولجانها العتيد، المرصع بالزبرجد ثم تستوي في عربتها المطهمة، فتنطلق بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الأرض، وتمر بكل مزرعة، وتقف عند كل كرمة، تهب القمح من نفحاتها فيربو من بركاتها ويزكو، والمنع من أنفاسها فيطيب. ثم تعود أن يجن الليل، فتهرع إليها ابنتها الصغيرة برسفونيه فرحة متهللة، لافة ذراعيها الجميلتين حول ساقي أمها، كأنما تبثهما ما في قلبها الصغير من لوعة وغليل.

---

(1) برسفونية اليونانية هي بروزور عند الرومان، ربة الربيع. وهي بنت ديميتر ربة القمح والخصب، ويسميها الرومان سيريز Cérés وكان هؤلاء يقدسونها ويقدمون لها القرابين من الخنازير خاصة في عيدها العظيم الذي كانوا يسمونه Caronlia وكانت لوائح مجلس الشيوخ الروماني تحتفظ بها عادة في معبد سيريز. وقد اشتقوا من اسمها اللفظة Cereals للحبوب.

وكانت الفتاة برسفونيه – تقضى سحابة النهار، إلى أن تؤوب أمها، في مسرب من أترابها، بنات الغاب الحسان فيظللن يقطفن الزهر، ويجمعن الرياحين، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة، وملحمة صاخبة من ملاحم الصبي، فيتراشقن بالورد، ويترامين بالزنبق الغض، ويتضاربن بأفواف السوسن .. وهن فيما بين هذا وذاك يقر قعن بالضحك ويتبادلن النكات، ويتغنين الأغاريد، فتستجيب الغابة لهن، وتترقرق الفدران من تحتهن، وتهدل الأطيار من فوقهن، وتمتلئ الدنيا حولهن نشوة وحبوراً.

وكان بلوتو: إله الموتى، ورب الدار الآخرة، قد مل هذا السكون المخيم في مملكته تحت الأرض: هيدز، وسئم هذه الأشباح التي تطيف به هنا وهناك في الظلمات المحيطة به، وأرواح الموتى تئن وتتوجع في كل مكان من ملكه الوحش الحزين، فأسرج عربته الضخمة، وألهب جيادها بسياطه القاسية، فانطلقت تعدو به إلى: الدار الأولى. هذه الحياة الدنيا؟

خرج بلوتو يروح عن نفسه، وينشق هذا النسيم الحلو الذي يغمر ملكوت أخيه زيوس، ويروى روحه الظامئة بالتفرج على عرائس الماء وبنات ألغاب، إذ أبين جميعاً أن يشاركنه ملكه الرحيب، ورفضن التزوج منه، برغم ما أغراهن به من اللآلئ واليواقيت.

وفيما هو ينهب الأرض بعربته، إذا به يسمع في غيضة قريبة، ضحكات مرنة، وأصواتاً موسيقية، وأحاديث كأنها دنانير من ذهب في كف

صيرفي حذق: فساقه الفضول إلى استكشاف أولئك الغيد اللائي يتضاحكن هكذا، كأنما يترنمن بالشدو، ويرجعن بالغناء: ففرق العساليج التي كانت تحجبهن، فرأي البدور البيض على الحشيش الأخضر، كأنهن نغمات حلوة تنطلق من أوتار أرفيوس!

وجن جنون بلوتو!. وأقسم ليخطفن هذه الفتاة الخدلجة الممشوقة التي تدل على الجميع كأنها فينوس في دولة الحب، أوديانا تخطر بين أماليد.

"الأم أظل في هذا الديجور الحالك وحدي؟! وحتام آقاسى منفاي السحيق من غير صديق أو رفيق؟! وما قيمة ملكي الشاسع، وأنهاري الفائرة بالحمم ما دمت لا سمير لي ولا مؤنس، إلا زبانيتي وكلابي؟ والاشارون(١) السن الكئيب؟

لقد مللت؟ ولا بد لي من هذه الكاعب الحسناء، والفادة الهيفاء أن لها لفها رقيقاً ... وأنها لتنثني كالغصن، وتخطو كالقطاة!

يا للثديين ..!

ما لهما بارزين هكذا؟ أتطلبان حضنا قويا كحضني؟ أم يملؤهما لبن الآلهة، ورحيق السموات يا للفخذين الملتفتين الممتلئتين!!

---

(١) شارون حارس بوابة الجحيم ونوتى أنهارها.

أنهما مترعتان باللذة، فياضتان بالإغراء والترغيب! مالهما تنفجان شهوة هكذا؟!

وهاتان حماتا[1] الساقين! ويلي عليهما وويلي منهما!!

انهيا حماتان خبيثتان كأبرع ما تنحت يدا فنان! أنهما تمتلئان لذاذة، وتطلقان رقى السحر في قلوب الناظرين.

كورتا تكويراً خفيفاً من فوق، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف العضل، فأنعمهما رغبة واشتهاء!!

وقدماها!!

يا للعقبين المستديرتين، والجنة النائمة فيهما!!

والذراعين الناعمتين!

والظهر العاجي الناصع!

والشعر الذهبي يداعبه النسيم كأنه خصلة من ظلال الخلد!!

ويلي!

---

(1) حماة الساق أو ربلتها: بطنها.

أنا لا أري إلا هذه الأعضاء السيابية، وأغفل عن هذه الابتسامة التي ترف حول الفم!!

أنها أجمل من زهرة التفاح في أوائل فصل مايو، وأرف من بتلات أزهار اللوز في شهر أبريل!!

تلمظ يا فمي، فانك ظمئ إلى قبلة تطبعها على هاتين الشفتين الأقحوانيتين!

وسمع إحدى الفتيات تناديها: "برسفونيه! أنظري هاك بنفسجة حلوة!".

فتحدث إلى نفسه:

"برسفونيه.

هذه عروس الربيع إذن! ابنة ديميتير من أخي زيوس!

لقد كبرت وترعرت، ونهدت، وطابت في جسمها البض ثمرة الحياة!!

اغفر لي يا أبي ساترن[١]! سامحيني بارها[٢] سأخطفها! سأجلسها بجانبي على عرش هيدز ستصبح مليكة دار الموتى! ستنقشع ظلمات ملكوتي بوجهها المشرق الجميل ..

لن أشعر بشقوة، ولن أحس خباء في ملكي! أنها ستكون جوهرة التاج وفتنة العرش، وستجد الأرواح تحت قدميها المعبودتين!!

سأترك لها أن تغفر وتثيب، وسأدع لها مقاليد السفل تصنع فيه ما تشاء!"

* * *

ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات، ولشد ما تفزعن إذ لمحن وجهه الأغبر، يتدلى عليه شعره الأشعث. والظلال المظلمة تتخايل فوق جسمه كالسمادير[٣]!

ولقد كان كلبه سمير بيروس، ذو الرؤوس الثلاثة، يلقى الرعب في القلوب!

---

(١) تزاوجت السماء (أورانوس) والأرض (جي) فأعقبت آلهة كثيرة منها سأترن الذي أعقب بدوره الآلهة زيوس رب الأولمب وبلوتو رب الموتى وهستيا رب النار المقدسة وديمتير وحيرا الخ ومن أشهر أبنائه بوسيدرن رب البحار.

(٢) رها زوجة ساترن وأخته.

(٣) الظلال التي تتراءى في عين كليل البصر.

وفي الحسان مذعوراً ... إلا برسمفونيه، فقد قبض بلوتو على ذراعها. الرخصة وجذبها إليه في العربة، وذهب يسابق الريح و يلاحق البرق، حتى اعترضه ماء نافورة أخذ عليه سبيله. وسرعان ما فار الماء كالتنور، وصار يغلي كالحميم، حتى خشي بلوتو الجبار أن يعبره، وأوجس، أن هو انثني عن طريق آخر، أن يضيع الوقت، و تفلت الفرصة، وتروح ديميتير تفتقد ابنتها حتي تستنقذها من يديه. فتناول صوجانه الهائل، وضرب به الأرض فرجفت وزلزلت وانشقت عن أخدود كبير بعيد الغوز ...

وكانت برسفونيه قد أفيقت من هلعها، فلما رأت النافورة تغلي وتصطخب، أدركت أن إحدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شيء، وأنها قد تستطيع أن تؤدي لها خدمة في ذلك المأزق الحرج، فحلت (برسفونيه) زنارها الحريري الأبيض، وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوماً إلى أمها عن طريق هذه العروس، فتعلم أين هي، وماذا تم من أمرها.

وانطلق بلوتو في ظلام الأخدود حتى وصل منه إلى مملكته ... هيدز! فاستوى على عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد!

ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل، وهي لا تزداد إلا شماساً ونفوراً ... طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة، وأراها شطئان ستيكس وأشيرون وليث، وسائر أنهار الجحيم، ثم خاض بها وادي الأفاعي والعقارب. ومدينة الزنابير واليعاسيب، والدرك الأسفل من النار حيث

المنافقون والكذابون، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى و لهب ... ولم يفقه المغفل أنه كان يضاعف فزعها أضعافاً مضاعفة كلما مر على منظر جديد من ملكه البغيض!!

* * *

وعادت ديميتير في المساء، ولكن پرسفونيه لم تهرع للقائها كعادتها، فحسبتها نائمة ... بيد أنها لم تجدها في مخدعها، فافتقدتها في جميع الغرفات، ولكن عبثاً حاولت أن تقف لها على أثر فاضطربت نفسها بالوساوس، وخرجت تبحث عنها في الحديقة، فلم تجدها كذلك!

ريعت الأم وارتعدت فرائصها، وانطلقت تعدو وهي تصبح كالمجنونة:

"برسفونيه! بر سمفونيه! أين أنت يا برسفونيه! ولكن لسان الصدى – ايخو – هو وحده الذي كان يردد نداءها ...

ووصلت إلى ابن أخيها هيفيستون[1] اله النار فأعارها شعلة عظيمة تنير لها ظلمات العالم، ودياجير الليل، عسي أن تهتدي إلى برسفونيه.

جاست خلال الغابات، واخترقت الأودية. وفتشت الشطوط، ونفذت إلى أعماق الكهوف، وجالت في مهاوي الجبال، ورقت إلى شعاف الآكام ... وبحثت عنها في جميع الآفاق ... فلم تعثر بها!!

---

(1) هو فلكان الروماني.

استعانت بالآلهة، واستنجدت بعرائس البحار، ولكن جهودها ضاعت عبثاً ...

وجلست ديميتير كاسفة البال ملتاعة القلب، تعلو جبينها عبوسة قمطرير، وتنوء بروحها آلام وأشجان ... وأضربت عن الطعام.

وآلت لا ينضر حقل ولا يذر نبات، ولا تثمر شجرة، مادامت ابنتها نائية عنها.! فجفت السهول، ويبست سوق الحنطة قبل أن تؤتي أكلها، وخرفت البساتين دون الثمر، فعجف الناس، وضمرت بهيمة الأرض، ونشر الجوع الوية الخراب في العالمين!!

وانصرف الناس يصلون لزيوس، ويضرعون إلى ديميتير، ولكن الحزن صرفها عنهم فلم تسمع لصلاتهم ولم تلب نداءهم ...

وفيما كانت تجوب القفار، وتطوي المهامه البيد، إذا بها تصل إلى النافورة التي ألقت عندها پرسفونيه بزنارها.

وأنها لتجلس عند حفافيها تفكر في أعز البنات، إذا بعروس الماء أريثوذا، التي لمحت بلوتو يخطف برسمفونيه والتي أهاجت النافورة لتقطع عليه سبيله، تظهر من الماء فجأة لترى من هذه الجالسة عند دارتها تئن وتتوجع، وتعلم أنها الربة ديميتير أم الفتاة، فتتحدث إليها قائلة: "ديميتر! عزيز علينا أن تجزعي هكذا؟! طيبي نفساً وقري عيناً، فأن بلوتو رب هيدز هو الذي خطف برسفونيه! وهاك زنارها شاهد على ذلك ولقد تبعتها إلى

الدار الآخرة احسب أني أستطيع أن أؤدي لها يداً أو معونة ولكن الإله القاسي أغرى بي زبانيته، فانطلقت مذعورة من اللعين الفيوس .... فعليك أن تخلصي الفتاة فأنها لا تذوق طعاماً، ويكاد الحزن يصعقها برغم أنها أصبحت مليكة دار الفناء".

وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته ثم طفقت تلقيه على عينيها وصدرها ... ساكبة دموعها الغوائي!

وقصدت من فورها إلى زيوس فحدثته بما قالت عروس الماء أريثونا وأقسمت لدية أن لم يأمر أخاه برد برسيفونيه، لتهلكن عباده جوعاً، ولتجعلن وجه الأرض فدفدا يبابا ... لا تسمن بزرع، ولا تروى بضرع!

فتأثر زيوس من قولها، وابتسم ابتسامة حزينة، ثم قال: "لا بأس من عودة برسفونيه إذن ... ولكن! على شريطة ألا تكون قد ذاقت طعاماً في هيدز، مملكة أخي، فإنها ان كانت قد فعلت، لا تصلح للحياة في الدار الأولى!".

ولسوء الحظ كانت برسفونيه، بعد امتناعها عن ذوق شيء من طعام هيدز طوال هذه الأشهر، قد أكلت في نفس ذلك اليوم الذي وعد فيه زيوس بعودتها إلى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب! فلما علم زيوس بذلك، عدل حكمه، فقضى أن تلبث برسفونيه في هيدز عند شقيقه بلوتو ستة أشهر من كل سنة، أي شهراً بكل حبة مما أكلت!! وتعود إلى أمها

فتلبث معها سنة أخرى، فيعود بعودها النماء إلى الزروع، والأزدهار إلى الحدائق.

عاشت برسفونيه ربة الربيع! ولا طال على الناس مغيبها في هيدز ...! عند الشرير بلوتو ... الذي حرم الحياة من أن تكون ربيعاً كلها!!

مصرع بروكرديس

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرة يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروى من جماله، وتسقي نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان .. وحاولت أن في تكلمه فشاح بوجهه، وتصدت له فأعرض عنها، ثم انطلق ظبي فلم يزل به حتى أرداه، وأنحني يحمله .. ولكنه وجد مكانه أورورا، وجدها متجردة تمر جمالها تحت قدميه، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية، وجعلها ترمقه بعيني أفعى، تود لو تنفث في صدره فتردية ..

"أنا أورورا، ربة الفجر والندى، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد ،لا أروق هذا الأنسي المخلوق من تراب! وحق أبي لآسرته ولا سجننه، ولا جعلنه يتلوى تحت قدمي، ويبكي من أجل قبلة أمن بها عليه؟".

وأرسلت رقية من رقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه، والنسيان في قلبه، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً .. ثم حملته إلى كناسها[1] في شعاف الأولمب، وحبسته ثمة، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعي، وهب مذعوراً، ثم غرق في شيء كالحلم، لما رأى العماد من

(1) الكناس بالكسر بيت الظبي.

ذهب، والطنافس من عجب، والكأس حفها الحبب؛ والندامي والطرب، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف، فتميل وتختال، ويتأود السيف .. وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج، وتفوح وتتأرج، كأنها ربيع بأكمله، زخرف الدنيا بالزهر، ووشاها بالروض، وابتعث فيها المرح والحياة.

– أين أنت أذن؟ سيفال! أين أنت؟

– أين أنا؟

– ألا تعرف؟ هذه غرفات الأولمب؟

– الأولمب؟!

– أجل .. أولمب أربابك.

– محال؟ لن يكون الأولمب هكذا!

– ولمه؟

– لأن الأولمب مأوى الصالحين! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى؟ ما هذا؟ أخمر ورقص وطرب .. و فسق في الأولمب؟ لا .. ليس هذا الأولمب، لن يكون الأولمب هكذا؟

– بل هو الأولمب يا سيفال؟ وليس ما ترى هنا إلا قليلاً مما هناك! هل ترى فينوس؟ ألم تصل لها؟ أنظر من هذه الكوة فهي تطل على حديقتها!

– وأنا ما شأني؟ أريد أن أذهب.

– تذهب؟ تذهب إلى أين ياسيفال؟ لن تبرح عاكفاً على اللهو الذي تري!

– لا لن يقوي الأولمب كله على قهري!

– ها. ها. مضحك. أنت مضحك ياسيفال؟ كل الأولمب؟

– أؤكد لك!

– ولمه؟

– لأني أحب زوجتي وأقدسها .. أنها جميلة جداً.

– أجمل من أورورا ؟! أليس كذلك؟

– أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعيني زوج أمين مخلص.

– أنت عنيد ياسيفال؟ إنك تزدريني!

– بل أنا انتصر للفضيلة التي كان ينبغي أن تتنزل علينا من الأولمب! من جاء بي هنا؟

– أنا ..

– ولماذا؟

– أنت تعرف!

– لا أعرف شيئاً .. والذي أعرفه لا يليق بشرف ربة.

– أرجو أن تطلقي سراحي! ..

– إذن أنت تفضل على زوجتك! أهي أجمل مني؟ إلا تزال تعتقد هذا يا سيفال؟

– انا أفضل زوجتي لأنها لم تتلوث .. وما زلت أقول أنها أجمل منك لأنني انظر إليها بعيني لا بعينيك!

– زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية؟

– أجمل من ربات الأولمب جميعاً، إلا من تجملن بمثل روحها، ولست منهن.

– أيها التعس!

– ولِمَ أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس!

– بروكريس! ها! عرفتها، إحدى وصيفات ديانا، حقيرة مثلك، أغرب من وجهي أيها القذر اذهب! اذهب إلى زوجتك بروكريس التي تفضلها على أورورا، ستتمنى يوماً أنك لم تعرفها، وأنها لم تكن زوجتك، أذهب، اذهب".

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب، ويرتجف مما ألم به فلقيته زوجته الجميلة الحسان بابتسامة شفت صدره وقبلة ذات حمياً أذهبت بعض ما وجد .. إلا انه كان ينتفض أنة بعد أنة، ويعود فيبتسم، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته، حتى هجس وسواس في قلب بروكرلس فقالت له:

– ماذا ياسيفال؟ أتخفى عني ذات صدرك؟

– كلا، ولكنها أورورا ...

– ماذا ..؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر؟

– كانت تحاول أن تسحرني عنك .. أو .. تشركني فيك على الأقل؟!

– ...؟ ..

– ولكنها فشلت .. لقد أذللت كبرياءها.

– وهل استطعت؟ أنها جميلة وصناع، ولها في الغزل الصارخ أساليب خارقة ياسيفال ..

– لقد قهرتها وأساليبها ... أن قطرة من معين إخلاص، تطفيء لظى جحيم يا بروكريس!

– لا ريب يا حبيبي .. أنا امزح فقط ... سيفال، عندي لك مفاجأة طيبة.

– مفاجأة! أية مفاجأة يا بروكريس؟

– تعال ... افتح هذه الغرفة.

– أوه! ما هذا .. كلب عظيم، من أين يا بروكريس؟ أنه سينفعني كثيراً في صيدي.

– ومفاجأة أخرى أعظم! انظر في ركن الغرفة!

– هه! حبيبة لم أر قط مثل هذه الحربة! أنها ليست من صنع بشر! آه! انها من صنع فلكان لا شك..! آل لا يجيدون أن يصنعوا مثل هذه!

– أحزر إذن مدن الهديثان؟

– من الملك! – وأني إلى أن يهدي الملك إلى؟

– ممن إذن؟

– إحزر!

– لا أدري!

– إنهما من ديانا يا سيفال! أهدتها إلى هذا الصباح!

– من ديانا؟ آه! لقد ذكرت ذلك أورورا..

– ماذا ذكرت لك أورورا؟

– إنك كنت احدي وصيفاتها!

– وأي ضير على أو عليك في هذا؟ أليست هي احدي تابعات أبوللو؟ لقد كانت ولا تزال تتمنى أن لو كانت احدي وصيفات ربة القمر!

– لا ضير، لا ضير بابروكريس.

– أني أهب لك ما أهدت ديانا إلى!..

– أشكرك!

– الكلب لا تسبقه الريح، والحربة لا تخطئ الغرض.

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بأنواع الصيد، وأحب كلبه وحريته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس.

واشتهر أمر الكلب في الإقليم كله وذاع صيته، حتى لقد اخطأ بعض أفراد الشعب في حق بعض الآلهة، فسلط عليهم ثعلباً سلقاً[1] لم يستطيعوا مكافحته، ولم تقو كلابهم له على طراد، فأجتاح ماشيتهم، وأتى على دجاجهم وعاث في حقولهم، ونفش في زروعهم، ولم يدروا كيف يكون خلاصهم منه، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه، كيما يطلقه في أثر الثعلب فيريحهم من شره .. وانطلق ليلاب – وهذا هو اسم الكلب – وراء الثعلب، كما يمرق السهم عن القوس، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء، وما انفك يحاوره ويداوره، وينبح به فيزلزله، حتى هم أن يفتك به ويمزقه إرباً .. ولكن حدث أن كانت الآلهة تتطلع من قلال الأولمب، تتفرج بهذا الطراد، و تشرح صدورها بمرآه، فالتفت بعضها إلى بعض، وعز عليها أن يقتل كلب إلهي ثعلباً إلهياً أمام الملأ من الناس، فقضوا لتوهم أن ينقلب الاثنان فيكونان تمثالين من المرمر الناصع، فهيا كذلك إلى اليوم!!

وأسف سيقال على كلبه، وأنقلب على عقبيه غضبان أسفاً ... ولم يزل في كل يوم، وفي مثل تلك الساعة التي حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة، يتوجه إليه، ويقف قليلاً عنده، حانا إلى ذكراه، آنا على مناحل به، ثم ينطلق بعد، وفي يده رمح ديانا، فيصيد الظباء بدون ليلاب.

([1]) السلق. واستعمل هنا صفة لتوحش الثعلب.

وانطلق مرة في أثر ظبي فأنهك قواه، ونال منه الأعياء، وأنسدح على العشب الأخضر في فيء دوحة باسقة، ثم راح يتخلج[1] من شدة التعب، وكان الوقت ظهراً، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله، فتفصد[2] العرق من جسمه المنهوك، وتراخت عضلاته، ووهنت روحه، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا:

أين أنت يا نسمة؟ يا ابنة الربيع اللعوب يا منعشة الروح المتعبة، أين أنت؟ هلمي يا نسمة، هلمي إلى سيفال، فهو مشوق إليك، يرجو لو تنفسين عنه، هلمي يا نسمة ففرج عن سيفال المضني، وهبي على رأسه الملتهب، وصدره المكروب، لقد كنت يا نسمة، يا أحلى قبل الحياة تداعبين جبيني: وتنعشين نفسي، فما ذا حال بينك وبيني، يا نسمة الربيع، وساقية الحب، ورسوله بين المحبين ..

وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال في كل فج، وترقبه في كل حنية، وكانت تقف في صورة بلبل فوق رأسه مختبئة في أفنان الدوحة التي نام في ظلها، فلما سمعته يتغنى غناءه، ضحكت واستبشرت، وانتهزتها فرصة نادرة للإيقاع بينه وبين زوجته، وانطلقت من فورها إلى بروكريس، حيث تكشفت لها في صورة احدي صويحباتها:

– بروكريس!

---

(1) يشكو من التعب ويضطرب.

(2) جرى وتصبب.

– مرحبا بأعز الحبيبات، ماذا جاء بك في هذا القيظ؟

– نبأ اسود ما كنت أوثر أن أحضر إليك به؟

– نبأ أسود؟ يا للهول! ماذا؟

– أرجو إلا أثير سخطك على..

– كلا ... كلا ... عجلي أرجوك!

– سيفال!

– ماله؟

– أتذكرين يوم رويت لي ما كان من أمره مع أورورا؟

– لم أنس! و لكن مال سيفال؟

– يبدو لي أني لم أكن مصيبة في تبرئته! لقد نفيت شكوكك فيما ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا!

– وماذا حدث بربك؟

– أنه يحب فتاة أخرى اسمها نسمة! إنه مولع بها أشد الولوع!

– لا أصدق!

– لا تصدقين؟ وهل أنا كاذبة؟

– وكيف عرفت؟هل أوحي اليك ؟

– بل سمعته يهتف باسمها، ويشدو بحبها، ويتغنى أحر الغناء!

– لا أصدق، لا أصدق، سيفال لا يحب واحدة سواى؟

– هل لك في أن تسمعي غناءه بأذنيك يا صديقتي!

– وأين هو؟

– قريب من الدغل[1] الذي عند النبع ... سأحضر لك حصاناً صافناً وغابت أورورا، ولم تتلبث طويلاً، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان، ركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل ... وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول:

"نسمة؟ ترى ما نسمة هذه؟ عروس من عرائس البحر؟ أم غادة من غير السوق؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولمب؟ أهي جميلة؟ أهي أجمل

([1]) الشجر الكثيف الملتف.

مني؟ إلها عينان كعيني؟ إلها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر مما امتزجت به روحي؟ أهكذا يا سيفال؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لي أمر أورورا معك، فلم تعد الشكوك لتفترسني يا ترى؟ ألست تعود إلى أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك؟ حنانيك يا آلهة السماء" وكانت زفراتها لا تخفى على أورورا، فكانت هذه تواسيها.

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغني ... وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت في الحشائش الطويلة القريبة من سيفال، بعد أن تركت جوادها بعيداً عن المكان ... وهناك انصتت بكل سمعها وقلبها، فسمعت زوجها لا يزال يتغنى باسم نسمة ويقول:

يا نسمة، الأم اهتف بك يا نسمة

يا نسمة يا أحب شيء في هذا الحرور

تعالى قبلي خدي ووجنتي و جبيني!

كم انا مشتاق إلى نسمة يا سماء

فابعثيها رخية ندية، عليلة بليلة

وكان ما خافت بروكريس أن يكون! فها هو ذا سيفال يهتم باسم حبيبته نسمة ويتغنى، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه، وها هو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رخية ندية تشرح الصدر وتثلج الفؤاد. فماذا بعد هذا؟ وأي برهان وقد سمعت الأذنان: "أذن، لقد كذب على في

الأولى، ولن يكذب على في الثانية .. إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا، ولا يزال فؤاده يصبو إلى الغانيات من كل جنس وفي كل فج. آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء، وإلى عليك يا دميفال، ويلي عليك وألف ويل!

وعاثت الوساوس في صدرها، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزينتين، فأرسلت آهة عميقة قطعت بها على سيفال غناءه، فهب الفتي مذهولاً مروعاً، وحسب أن وحشاً يتربص به في الحشيش، فجمع قوته، وتناول حربته – حربة ديانا التي لا تخطئ – وأطلقها إلى المكان الذي صدرت منه المهمة، وذهبت الحرية لتستقر في صدر بروكريس! .. وا أسفاه!

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد، فماذا رأى.

– بروكريس؟ يا للهول؟ أهو أنت؟

– ... ؟ ...

وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي؟

– لا .. شيء .. فقط .. لا تتزوج .. نسمة. من بعدي!

– نسمة؟ أوه! أنها .. لا شيء .. لقد كان الجو متاججاً من الحر يا حبيبتي ... وكنت أتمنى أن تهب على نسمة من الريح تروح على!

– أحق ... هذا؟...

– هذا هو الحق وحبك يا بروكريس!

– إذن .. سلام ... عليك!

– بروكريس! بروكريس! لا، لا تغمضي عينيك دوني؟

افتحيهما لسيفال!

ولكنها ماتت، وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفي!

وأرسل القتي أنينه في الآفاق، ورفع وجهه ليقلبه في السماء بالشكوى، ولكنه رأى أورورا واقفة تبتسم وتضحك ... فجن جنونه، وانطلق هائماً على وجهه، لا يلوى على شيء، ولا ترقأ له دموع .. حتى مات!!

أجنحة ديدالوس(*)

لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الغنى وكثرة الفنانين، من هو أمهر من ديدالوس العظيم في نحت الدمي وصناعة التماثيل وهندسة المباني الضخمة. ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية، وخاصة بين كريت وقبرص وأثينا، لكثرة الدعوات التي كانت تصله من ملوكها، ليقوم على بناياتهم، وليتعهد تماثيلهم، وليشرف بنفسه على هياكلهم، ليقال في مواضع الفخر، أن هذا التمثال، أو تلك الدمية، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس.

واستفاضت شهرته، وذاع صيته، وملأ الخافقين اسمه، ولاسيما إذ شاد اللابيرنث (التيه) لمينوس ملك كريت، واللابيرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة، إن لم يكن أجلها جميعاً. ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرب يسمى (المينوطور) نصفه الأسفل نصف عاجل جسد، ونصفه الأعلى نصف رجل له أنياب الأسد، وغدرة الذنب وقوة التنين العظيم ..

وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه، ولو كان من خاصية الملك. فلما استطار شره، وعظمت بليته، دعا مينوس الملك، ديدالوس المهندس،

(*) أول محاولة للطيران عرفها التاريخ.

ليشيد هذا البناء الرائع. ذا المنعرجات والحنيات، والشعاب المتداخلة، التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها، اذا انفتل فيها. وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة محيطها هذه الشعاب والمنعرجات، وفي وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوطور أو يركض.

ولندع الآن ذاك المينوطور الرهيب جاثماً في اللابيرنت، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك.

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية، وما أوتي من حذق و نبوغ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التي كساها الهامة ظلالاً كظلال السحر، وموهها بأمواه القداسة والخلود، حتى كبر الفتى بردكس، ابن أخي ديدالوس، وكان شاباً ممتلئ الجسم، مفتول العضل، قوى الملاحظة، دقيق الفهم، سريع التصور، ما كاد يتتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه بل هو قد فاته بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والمثالة، ولاءم بين روحها جميعاً، فكان تبرز تحفه في مظهر دقيق وطراز أنيق، ثم هو يضفي عليها من شبابه الغض، وروحه العطرية الشاعرة، ظلال الحب، وسمات الفتنة، ويحرك فيها عواطف الآلهة!

ولهج الأثينيون باسم هذا الفنان الشاب، وتناسوا عمه الذي هو أستاذه وملهمه. وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعاً، وساءه أن تكسف شمسه الوضاءة المتلألئة، نجمه الذي لبث زماناً بسلسل نور الفن في أرجاء هيلاس.

وما فتئ العم يحنق ويحنق، وما فتئ بردكس يسمو بفنه إلى الذروة، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان، ونفثت فيه سمها، فلم يعد يطيق هذا الخصم الذي صنعه لنفسه بيديه، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه هملاً بجانب الفتى العبقري، فأقسم ليزيحنه عن طريقه، ولو بتجريعه كأس المنون.

وزين له أن يحتال عليه، فيذهب وإياه إلى شعاب جبل شاهق، في مهاو تنتهي إلى اللج الجياش في اليم، حتى اذا كانا فوق القنة المشرفة على البحر المصطخب. نهز منه غرة ودفع به إلى الأعماق، حيث ينشق له قبر من الموت .. والنسيان!

وأنفذها ديدالوس المسكين!

ولكن الآلهة كلها كانت تنظر، وتستعد للمعجزة! وكيف؟!

لقد استجمع الشيخ كل قوته، ووضع في يديه كل منته، ودفع بابن أخيه من فوق القنة، فتردي الفتى على حدور الجبل، حتى إذا كان من الموت قاب قوسين، هبطت منيرفا[١] سيدة الأولب، وصاحبة أثينا، من عليائها، فأنقذت بردكس من قتلة محققة، ثم نفثت في أذنه نفثتين، كان بهما

(١) منيرفا هي باللا أثينا، وقد خلقت شجرة الزيتون فملأت الأرض الصورة، طلق المحيا، مشرق الغرة، سماه أكاروس! بركة وكان بردكس يصنع لها تماثيل رائعة، وهي هنا تنقذه لترد له قليلاً من جميلة.

فرخاً حزيناً من أفراخ القطا، راح يرف في السماء مدوماً فوق عمه، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب!!

وانقلب ديدانوس إلى بيته أسوان أسفا، ووقر في نفسه أن الآلهة التي سحرت بردكس لتنقذه من تدبيره السيئ، لا بد أنها تترصده، ولا بد أنها ستأخذه بأوزاره في القريب، غير متجنية ولا ظالمة..

ثم مضت سنون، وولد لديدانوس طفل جميل ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من الروع الذي كان ينتاب أباه، أو يذهب بسورة الهم التي كانت تجثم على قلبه، وتثقل على نفسه كلما تصور الهامة الفرعة التي يضطرب بها نومه، فتقض مضجعه و تزلزل كيانه.

لقد كانت القطاة تتمثل له كلما أغمض طرفه، كأنها روح ميت ترنق على خصمها تكاد تصعقه. وازداد الشيخ خيالاً حينما الحف عليه الأثينيون يسألونه عن بردكس أين قضي وإيان ولي! وأخذ الغوغاء يلغطون، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفنان: ودأبوا على عمه يسألونه عنه، وهو يضللهم ويخترع لهم، حتى أوجس أن ينكشف سره، فينكل الناس به. فآثر الهجرة عن أثينا المحبوبة، إلى صديقه مينوس ملك كريت، مصطحباً معه ابنه الطفل ايكاروس.

وتطامن الدهر، وشب ايكاروس وترعرع، وأخذ من والده من الفن ما أخذ بردكس من قبل، وحسب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت، وأن الأيام قد ابتلعت أثمه الكبير في

تضاعيفها القائمة المظلمة، فاستيقظ الغرور في قلب الفنان الشيخ ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجئ طريد مثله، بل بطر واستكبر، وكفر بأنعم مولاه، ومد له هواه فولغ في إناء الملك، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً أدى إلى كثير من القيل والقال.

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه، واعتقاله في إحدى غرف القصر حتى يقضي في شأنه، فألقي به في حجرة منفردة في طرف القصر، مشرفة على الماء، متصلة بالسماء.

وطالت عزلة الفنان الشيخ في معتقله هذا، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذي يكاد يحبس أنفاس روحه، ويحسر مرامي مقلتيه، ويشيع الهم في حنايا ضلوعه، فقال لوالده وهو يحاوره: "أهكذا قضي علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه!" وكانت كلمات أيكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى في آذان الشيخ، وكان الغلام يجذب اللفظة المفردة من فم أبيه، فما يكاد يفوز إلا بلا ... أو بنعم ...

وكانت للغرفة التي اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الأبيض المتوسط، وكان منظر السفائن الماخرة في البحر كالأعلام، والطير صافات من فوقها كأنها تسبح في لج من زرقة السماء، يثير في نفس الفتى أحلاماً وأخيلة وأمنيات. وأنه لفي أصيل جميل يناجي الطبيعة من شرفة سجنه

الصغيرة إذ به يذهب إلى والده مستبشراً متهللاً، ويقول: "أبي! أعجزنا عن أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير. فنفلت بها من هذا المكان الرهيب؟".

وكان الشيخ جالساً في زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر أحزانه: ويتغنى الأمة، فلما سمع ما خاطه أبنه به، افتر فمه العجوز عن ابتسامة منقبضة مغضنة، وشاعت في أساريره بوارق أمل جديد!

وقال لابنه: "أجنحة؟ وأين لنا بالريش باايكاروس؟"

فقال الولد: "لا عليك يا أبي، أن غرفة الدجاج قريبة من هنا!".

وعبس الفنان الشيخ، وقال: "والحارس الفظ؟ .." و فتضاحك إيكاروس قائلاً: "الحارس!؟

أمره أهون مما أرى ... سنرشوه يا أبتاه، فيحضر لنا أما نشاء من الريش، وسنخدعه أننا صانعان له لباساً لا تحلم الملوك بمثله!".

ولكن العبوسة التي رفت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع مخالبها، وقال: "دعني أفكر يا بني: دعني أفكر يا ايكاروس ...".

وهكذا كانت العبقرية البكر، الكامنة في هذا الفتى الصغير؛ لقاحاً بعيد الأثر في عبقرية الشيخ الفاني المتهدم، وهكذا بدأ الفنان الأكبر، بائي اللابيرنث، ومشيد هياكل الآلهة، يفكر في هذا المقترح الشارد الذي اقترحه عليه الفنان الصغير!

"أجنحة .. دجاج .. ريش .. الحارس الفظ .. مينوس .. بردكس .. فرخ القطا .. الطير .. ايكاروس ابني ..!" وهكذا انبطح الشيخ على حصيرة تتداعى هذه الخلجات في رأسه الساخن المتأجج تذكي فيه الذكريات والمآسي!

واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والأوز والديكة، وفكر الشيخ كيف يثبت الريش في مكانه من عضد الجناح، فادخر الشموع التي كانت تترك له يضيئها في الليل، ليتضاعف بنهيها الخافت حزنه، حتى إذا كان لديه قدر كبير منها، عمد إليها فصهرها، وثت بها ما شاء من الريش، وبذلك صنع زوجين من الأجنحة الكبيرة، يكفي أحدهما لحمل قيل!

وجلس يمحض ابنه النصح ويقول:

"أي بني! أي ايكاروس العزيز! سنطير من هنا يا ولدى! إلى أين؟ لست أدري! ولكننا سنفلت من هذا السجن على كل حال! وهأنذا قد صنعت الأجنحة التي تخيلها أملك الصغير هو أكبر من جميع أمالي! ولقد رأيت إلى كيف كنت أذيب الشمع قريباً من النار يا ولدي، فأوصيك إذا طرنا ألا تترك سمتي، وأن تكون دائماً تقريباً سمتي، فأني أخشى إذا علوت علوا شاهقاً أن تصهر الشمس شمع جناحيك، فتهوى في البحر، وتتردى في أعماق الموت! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق، فكذلك لا أرى لك أن تدنو من الماء فانه أن وصل إلى الشمع أيبسه، ولم يعد يصلح لمهمة

الطيران، إذ يساقط قطعة فقطعة، ويتناثر الريش، وتسقط، أما في البحر فتغرق، وأما في الأرض فلا تنس يا بني أن تتبعني أبداً، واحذر أن تعلو فتدنو من الشمس، أو أن تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه. إلي يا ولدي أثبت لك جناحيك، ولنمض .... ز ... زيوس!!".

وتلجلج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الإله الأكبر، لأنه يثق أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو محيط بعباده، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين!

وانطلقا من الشرفة، وألقيا على القصر، وما أحاط به من حرس وعسس، نظرات كلها نقمة وتغيظ ..

ومرا بشطوط كثيرة ومروج كبيرة، وكان الصيادون والزراع والبحار وأهل القرى كلما رأوا هذين الطائرين الكبيرين، ذوي الهيئة الآدمية، خروا للأذقان سجداً، يحسبون أنهما ألهان من آلهة السماء، هبطا يباركان الناس والخلق، فيهللون ويكبرون!!

فهذا شيخ يطلب إليهما أن يباركا في عقبه ويمدا في أجله، وهذه شمطاء تدعو أن يردا عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب، وتيك رؤوم تناجي ابنها في قبره، فتطلب إليهما أن ينفضاه من الثرى، وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر والتربة ...

وشاع الزهو في أعطاف أيكاروس، فكان يرتفع قليلاً، أو يهبط قليلاً عن سمت أبيه، ثم تشجع وتشجع، وبهرته زرقة السماء وأديمها الصافي، فجازف وأرتفع ارتفاعاً شاهقاً، ونسى وصية أبيه، فعلاً وذهب في السماء صعداً، وكان يغريه أن يصفر العالم الأرضي في عينيه، فيعلو ويعلو.

وأسفاه!! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا بردكس! فلقد صهرت الشمس شمع الجناحين، وهوى ايكاروس إلى الأعماق! ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت في إذن أبيه، فتلفت الشيخ ليرى ولده يغوص في اليم، ويبتلعه مرة ويلفظه أخرى!

فأسرع الوالد المسكين إلى البحر، وانتشل ولده من الماء جثة هامدة، وكان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه، فعالج الموج معالجة شديدة وسبح بفلذة كبدة إلى جزيرة قريبة، بلغها بعد جهد وعناء!

وجلس يبكي ولده .. وبرزت عرائس الماء من اليم تواسينه!

ثم شق له قبراً صغيراً في رمل الشاطئ، وما كاد يسره فيه، حتى رأى قطاة حزينة تدوم في السماء، ثم تهبط قليلاً قليلاً، حتى تكون بمقربة من القبر، فتقف كاسفة مشحونة وتنظر إلى الجثة والدموع تنهمل من عينيها. عبرة، فعبرة ...

ويفرغ الشيخ من مواراة ولده في التراب! وينتبه! فيرى القطاة! فينشج نشيجاً مؤلماً: "بردكس!! أتيت تبكي أيكاروس!! سامحني يا بردكس!".

فتزقو القطاة كأنها تنتحب! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه، فتذرف عبرتين غاليتين، وترف في الهواء حتى تغيب عن عيني ديدالوس!

بومونا

عروس من غرائس الغاب يترقرق الجمال في أهابها الوردي، وتلتمع في فمها الرقيق الخمري ثنايا من اللؤلؤ الرطب، وتبتسم ... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل في قلوب العاشقين، تلسعهم، وتسقيهم رحيقاً!

هي بدع من عرائس الغاب، فهي لا تغشي الأنهار تتلاعب في طيات أمواجها، وهي لا تحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً، وهي تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعي والوحوش، ومنظر هذه حين يساور أحدهما الآخر يبعث في نفسها اشمئزازاً، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التي جعلت الضعيف فريسة للقوي بذله ويقتله .. ثم يأكله.

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة، إلا من نشاط الحياة يسرى فيها فتهتز وتربو، ثم تكتسي بالسندس، وتنضر بالزهر، وتطن بموسيقي اليعاسيب ... وأولعت كذلك بالحدائق ... وقد غرست حديقتها على عدوة النهر، وسوجتها بسياج من شوك، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين ... وكانت في جنيتها أكثر وقتها، ولو أستطاعت لم تبرحها قط، لأن الزنبق الغض، والنسرين الجميل، وأكمام الورد، وهالات البنفسج، ونضرة الشقائق، وأرج التفاح، وعبق الرياحين، وشذى أزهار الخوخ العقيقية، وابتسامات الأقاح، ولآلئ الندى المبعثرة

فوق العشب ... كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلي، ونفسها العزوف، من هؤلاء الناس، والآلهة، وأنصاف الآلهة، الذين كانوا يتنظرون أوبتها في المساء إلى دارها، فيقفون في طريقها، ليفوز من تفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب، حائر الروح، خفت الأحشاء، موهون القوى!

وكأين من قائل الآخر:

– أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح؟

– ألحان المفتان! أجل والله ... رأيتها، وأورثتنى الف حسرة يا صديقي!

– أو مشغوف أنت بها حباً؟

ومنذا الذي لم تشغفه بومونا حباً، وقد تبلت قلوب الآلهة؟

– أني أغار من كلماتك أيها الصديق ... فأقصر!

– وأنا أغار من غيرتك، فاذهب لطيتك!!

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذي ينقدح من أغوار قلبه .. عن طريق عينيه ... ثم يأخذ كل في سبيله. وهكذا تعادي الناس في بومونا، وهكذا تنافس الجميع في حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها

جنوناً، ولقيها مارس وفتن بها فتونا ... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع، لا يتفتح قلبها لحب، ولا يرق لشكاة المغرم الصب، وكل ما كان يصيبها وشغل بالها، وهذا الفردوس، الحبيب، الذي لا يضايقها بكلمات الغزل، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة، بل يحييها دائما بالابتسامات البريئة، وبالروح والشذى.

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان لا يعدل حبه لها حب، ولا سمو إلى افتتانه بها افتتان ... فتى لمحها مرة تطوى الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها، فوجد نفسه منجذباً إليها، مجنوناً بها، فتبعها، وجعل يقلب عينيه في مفاتن شعرها المتهدل فوق ظهرها وكتفيها، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق، كأنهما ختم الطبيعة في صك البكور، أو زهرتان من اللوتس، ترشفان صلافة الندى ... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح، فتضرمان في قلب فرتمنوس نيران الحب، وتزلزلانه زلزالاً عظيماً.

وعرف الفتي ميعادها، فكان يصحو مع الفجر، ويهرع إلى الطريق، ويلبث يعد الدقائق والثواني كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد .. حتى اذا اقبلت، شعر بقلبه يخفق، وأعصابه تذوب، وأحس كأنه خف على الأرض، وغدا طيفاً يوشك أن يسري مع نسيم الصباح الذي تنشقه بومونا .. له الله! لكم مني نفسه بقبلة يطبعها على هذا الفم الشتيت تذهب حر قلبه وتشفي صدى روحه الظامئة المتعطشة، ولكنه كان يعود أدراجه كل

صباح بعد أن يتأثر سالبة لبه، ولا لب له، ولا قلب معه، ولا مداوي لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة في أثر عبرة، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحاً!

* * *

وذوي فرتمنوس وذبل شبابه، وشفه الهم، وأضوي جسمه الفكر، وأستسلم لبكاء طويل يتعلل به، وغناء يشبه العويل، يرسله في نبرات تشبه الأنين، يضمنه بثه، وينظمه شكواه، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب، ويودعه النطف الأخيرة من روحه الحيرانة: ويذهب به في الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش، وتسكر بموجع أنغامه الهوام، ويرقص من فوقه الشجر ... ثم يبكي كل هؤلاء له .. ويعود من حيث أتى!

ولقيته مرة فينوس فرقت له، ورثت لحاله، وراعها أن يلقي محب كل هذا العذاب، في هوى عروس غاب، فجلست إليه تسامره وترفيه عنه.

– أهكذا يقتل الناس الحب يا فرتمنوس؟

– أي وحقك يا ربة! لقد نال مني هواها، ولم أعد أفكر في أحد سواها!

– مسكين! وهل كلمتها قط؟

– مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها، ولكنها أشاحت وأعرضت عني.

– وفيم تطمع إذن ؟

– أطمع في رضائها، واطمع بعد ذلك في العيش في ظل حبها.

– وإذا لم ترض؟

– سأعيش لحبها وآلامي! ولكن؟

– ولكن ماذا يا فرتمنوس؟

- إلا تساعدينى ياربة الجمال؟ ألا تتفضلين فترتقي قلبها على؟

– عندي فكرة!

– اضرع اليك ياربة!

– سأمنحك قدرة التشكل، فتستطيع أن تبدو في أي صورة شئت.

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات، ثم نفثت فيهن، وتمتمت بكلمات سحرية، ونظرت إلى الفتى في ظرف ودل، ونشرت الماء في وجهه.

– والآن فكر في أي صورة تنقلب إليها.

وأخذ فرتينوس يتقلب في صور شتى ... و كلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع، فتضاحكت فينوس وقالت له:

... فكر أيضاً في صورتك الأصلية قليلا ...

وسرعان ما عاد إليها ... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له:

– تستطيع الآن أن تلقى بومونا، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك!

ورفت فينوس فكانت في سماء الأولمب!

* * *

واستطاع فرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته في أي لحظة شاء، وكان يدخلها في صورة بلبل غرد، فلا يزال يغني ويهتف حتى يلفت إليه أنظار بومونا وأسماعها، وكان يتبعها أينما ذهبت، فيقف على أقرب شجرة، ثم يرسل أغاني الحب وأغاريد الغرام، فتنسكب في أذني عروس الغاب، فتقف لتسمع لحظة، ثم تأخذ في عملها كأنها لم تسمع شيئاً ... فيتضايق الفتى، ويطير أسوان أسفاً ...

واستمر على هذه الحال أشهراً، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً، ويفني فيها حباً، حتى خيف عليه من المرض وأحس هو أن ريب المنون يسري في عظامه، ويرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه، ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته في صورة أخرى تختلف عن تلك الصورة البلبلية التي

اعتاد أن تراه فيها، ثم عول هذه المرة – إذا لم يفز بحبيبته بومونا – على أن ينتحر تحت قدميها في صورة البلبل الحزين!

رأى آن يزورها في صورة عجوز شمطاء! ولم لا؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن؟ أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث تنقطع، ويتشفق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر في أطراف السكاري؟!

وقف فرتمنوس في ظل أيكة باسقة نامية في منعرج قريب من حديقة بومونا، ثم طفق يفكر في صورة عجوز طيبة القلب، سمحة الملامح، وراح يتخيل شعرها الاشرط[١] وذوائبها الخلس[٢] وغداثرها الزعر[٣]، ويديها عاريتي الأشاجع[٤]، وعينيها الغائرتين، وجبينها المجمد، ووجها المعروق[٥] ... فكان له كل ذلك، ثم كانت له هيبة ووقار وأسر، في سكينة ودعة وحسن سمت ... وأضفى عليه حبة سوداء فضفاضة، وجعل في قدميه خفين هرمين، وفي يده عكازاً مقوساً أشبه بصولجان الموت!

ثم جعل يدب في هيئته تلك، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه، وكانت بومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس

---

(١) بياض الشعر يختلط بسواده يزيد عليه.

(٢) بمعنى أشمط وأحدثها خلساء وخليس.

(٣) جمع زعراء أي قليل الشعر جداً.

(٤) بدت عروقها.

(٥) قليل اللحم.

الغاب في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع ... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها، أسرعت إليها وحينها أحسن تحية وألطفها، ثم فتحت لها وأدخلتها، وكانت الخبيثة – أو كان الخبيث – تبالغ في إظهار الضعف وتعمل الإعياء، فكانت بومونا تسندها من هنا، وتشد أزارها من هناك .. حتى وصلتا آخر الأمر إلى ظلة وارفة ذات أفياء، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج، يغازل العيون والأحشاء، وأشارت العجوز كي تجلس على أحدى الأرائك التي صفت عليها الوسائد والحسبانات[1] ففعلت، ولكن ..؟ بعد أن أخذت بفودي بومونا ... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة ... قبلة الأماني والأحلام!!

لقد شدهت بومونا من أسر هذه القبيلة، لأنها لم تكن من تلك القبل الفاترة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء، بل كانت قبلة ناعمة فيها خمر ولها حمياً، وفيها شعر وموسيقي، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلقي في صدر الفتاة بكل أسرارها!!

ولولا أنها كانت عجوزاً حيزبونا لعشقتها بومونا ..

ووثبت الفتاة فقطفت عزقاً[2] من العنب وقدمته للضيفة العجوز .. ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجنى الشهي، وجدتها غائبة عن

---

(١) المساند.

(٢) عنقود.

رشدها ... أو ... كالمغشي عليها! ترى ماذا أصاب أخانا فرتمنوس المختبئ في جلد هذه العجوز؟! آه! مسكين! أنه لم يكد يفيق من سحر القبلة، حتى رفع بصره إلى بومونا، فشهد العجب العاجب، والجمال النادر، والحسن الباهر، والرونق والرواء!! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين! وشهد الركبتين الملتفتين ... وقليلاً من الفخذين اللجينيتين .. فاستطير لبه، وصبا قلبه، وشردت أفكاره، وغشي عليه؟!.

ولما أفاق – أو أفاقت العجوز – سألتها ماذا أصابها: فشكت وطأة السنين وضعف البدن، وتهافت أعضائها من الكبر، ثم شكرت لها عزق العنب، وأخذت في أكل حياته، وهي تخالس العروس النظرات ... ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية، ثم قالت تحدث الفتاة:

– أرأيت يا حبيبتي (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش، هل كان يؤتي أكله، ويحلي عنبه، كما هو حلو هكذا؟

– كلا يا أماه! هذا شيء بدهي!

– تعنين أن الكرم لا يستغني عن هذا العرش!؟

– طبعا!

– ولا غناء للعريش من غير كرم!

– لا يكون منظره جميلاً رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم!

– عجبا لكن والله يا عذاري!! تعرفن ذلك، ولا تفكرن في عطلكن!

– أو عاطل أنا يا أماه؟ ماذا تقولين!

– عفوا يا ابنتي .. فان لك ألف حلية من جمالك الذي لا جمال مثله ... إنما قصدت أنكن تزهدن دائماً في أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عرش ... ولاسيما أنت يا صغيرتي بومونا ... أني أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك، وكل أمراء النواحي متيمون في هواك، وأنا أعرف أيضا أن منهم من يتعذب بالليل، ويذل بالنهار، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك في الطريق، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات بل أعلم يا أجمل عرائس الغاب أنك قد برزت هيلين الهيفاء، وينلوب اللعوب في كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك، وتخبت قلوبهم لحسنك، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين. ماذا؟ لم يا بنيتي لا تختارين لنفسك من بينهم كفء يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه، ويشركك هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه، ويبسم لك وتبسمين، ويواسيك و تواسين؟ ما غايتك من هذه الوحدة، وأنت بها في منفى، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذي اسمه.. اسمه .. اسمه ماذا؟ آه! فرتمنوس! ذكرت أني سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد، وأولاه الضنى، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً في عينيه، وتتأجج نيراناً في صدره .. لم لا ترحمينه يا بومونا؟ لم لا

ترثين له يا أجمل عرائس الغاب؟ أنه ليس إلها ولا نصف إله، ولكنه خليق بحبك، جدير بأن تكوني له من دون العالمين، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك، وهو ليس كجميع العشاق، لأنه لم يحبك إلا عن بصر بك، وتقدير لحسنك، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا الباب لهم، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى في صدورهم، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها ؟؟ أما فيرتمنوس، فقد أحبك ولم يشرك حسناء في هواك، لأنه لا يرى لك في قلبه شريكة تسمو إلى أخمصيك .. ارحميه يا بومونا، اعطفي عليه، وأنظريه كأنه يتوسل إليك بلساني، ويشكو لك بثه بعيني (!).. ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك؟ألا تعلمين أنها تثأر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب؟ ألم تعرفي ما صنعت بالقاسية أنا جزرتيه؟

– ومن أنا جزرتيه يا أماه؟وما قصتها؟

– ألا تعرفينها؟ ولا تعرفين مأساة الفتى ايفيس؟

– وما مأساة ايفيس؟ قصيها على بالله عليك!

"لقد كان ايفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين، ولكنه كان من صميم الشعب، وكانت أنا جزرتية من بنات الأعيان والعلية الموسرين .. وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع أيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون وكان كلما لقيها غشيه من الغرام ما لو حمله جبل لناء به، ولكن

الفتاة كانت تعرض عنه وتزور، وتطوي الطريق عجلانة إلى قصرها الباذخ المنيف ذي الشرفات .. وكان التي يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدي ثم توصده من دونه، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلال القضبان، ثم يذرف دموعه، وينثني إلى داره، وليس في قلبه إلا حبها مع ذاك، ولا في عينيه الباكيتين إلا صورتها! وطالما كان يهب من نومه في جنح الليل فيطوى الطريق مفزعاً، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها، وعانق قضبانها، وبكي ما شاءت له الآلهة، وتغني آلامه وغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده، وازدادت صبوته .. وكم ذا رأته أنا جزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة، أو غمزة تهكم واستهزاء، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة، بل زادها قسوة وعناداً .. ولما جد به الجد، ولم يكن بد مما ليس منه بد، ذهب إليها في ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع، ثم تعلق بالبوابة، وكانت حبيبته ترتع وتلعب في حديقة القصر، فهتف بها وقال: "أيتها القاسية أنا جزرتيه أسمعي! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسي وتم لك النصر! فهنيئاً لك! تغني أناشيد الفرح واللذة العارمة لأنك قتلت ايفيس! اعقدي فوق هامتك أكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز، ومرغت في التراب روحه العالية .. ولكن أصغى إلى يا متحجرة القلب .. لقد عولت على أن أشرب كأس المنون، ولكني آثرت أن أشربها أمامك ان لم يكن بين يديك، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر المرجع الأخير، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك على .. بيد أني اهتف بك يا آلهة السموات أن تثأري لي، وأن تجعلي لي ذكراً في قصص

المحبين يتناقله الخلف عن السلف، ويتذاكره الناس في طويل العصور والآباد .." و كانت السماء كلها تصغي لما يقول ايفيس فلبت واستجابت .. وكان قد ربط حبل مشنقته في قضبان البوابة، وجعل أنشوطتها في عنقه، فلما انتهى من مقالته القي بنفسه .. وقبضت روحه! ولم تتحرك أنا جزرتيه مع ذاك، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون .. وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها، ثم حمل الجسمان في اران[1] إلى المقابر، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية فصعدت لتنظر إليه، ولكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة في النعش حتى تثلجت عيناها، ثم استحالتا إلى رخام بارد .. وروعت لما أصابها، وأرادت أن ترجع قليلاً، ولكنها لم تستطع لأن الرخام سرى في قدميها أيضاً .. ثم في ساقيها .. ثم في ذراعيها .. ثم في جميع جسمها .. أما قلبها، فقد كان رخاماً منذ زمن بعيد .. وكذلك تحولت أنا جزرتيه إلى تمثال لا يزال محفوظاً في متحف فينوس بسلاميس .. عظة وذكرى .. وكأنما عملت القصة عملها في نفس برمونا ..

فأنذرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارتان .. ونظرت لترى إلى العجوز .. ولكن .. لقد كان فرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوي يجلس مكانها، ويأخذ برأس الفتاة على صدره .. فقالت له:

– من أنت أيها الفتى؟

---

(1) نعش.

– أنا ... وانفجر في بكاء شديد وقال:

– حبيبك فرتمنوس يا بومونا .. فرتمئوس فقالت: أهو أنت؟! اه يا ساحر!

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد، وأشد أسراً من الخمر ..

خرافة جاسون

غلب بلياس الظالم أخاه ايسون على ملك تساليا، فهام الملك على وجهه في أقصى الأرض، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة آلسميدية، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون .. وعرجاً في تطوافهم بأستاذ أخيل العظيم شيرون، فدفعا إليه بالطفل يهذبه ويؤدبه، وينشئه على الفروسية ومكارم الأخلاق، ورجواه أن يكتم سرهما حتى يشب ويترعرع، ويبلغ أشده، فيثير في صدره الحمية، ويرسله ليثأر لأبويه، وليستخلص العرش من غاصبه. وأخلص شيرون في تربية جاسون الإخلاص كله، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد، وغير جاسون .. ثم مرت الأيام، وشب الفتى على غرار أستاذه، فلم يكن في الدنيا بأسرها أحمل منه لسيف، ولا أرمى لسهم، ولا أرجح في تفكير، ولا أوفر في حظ من جمال و كمال. ووقفه شميرون على سير أبويه، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده، فثار ثائر الغلام، وازلزل قلبه، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم، فيذرو عظامه في الريح!

ووعظه شيرون، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وأعمال الروية، وحذره أن يعيث فساداً في الأرض، ونصحه أن يكون رحيماً بالضعفاء، وألا يألو جهداً في مساعدة من يطلب منه المساعدة، وألا يكون عداؤه لعمه سبباً في عدائه لجميع الناس .. وأعطاه الفتى موثقه، ثم اخترط سيفه، وربط على

قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس، حاضرة تساليا.

ولقى في طريقه سيلا زاخر العباب، فوقف حياله ينظر ويفكر، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها. وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاف الجبل القريب، فيجرف في سبيله الجلاميد والنؤى، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتنسحق وتتفتت، فراعه أن ينزلق وسطها ويكون مصيره مصير جلمود منها .. وفيما هو يعمل فكره، وفيما هو يلتفت يمنة ويسرة، إذا به يرى عجوز تابة[1] تدب على عكاز غليظ، مقبلة نحوه، مادة ذراعها المعروقة، مستغيثة: "لهفي بني! بني أنتظر أرجوك انتظر يا ولدي! من هذه؟ لا يدري جاسون. بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل! ووجم جاسون قليلاً، لكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه، فتبسم، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاملة القوى المتين، ثم رجاها أن تدفع إليه بعكازها يتوكأ عليه ففعلت، وتقدم بخطى وئيدة، ولكنها أكيدة، إلى مجرى لا يفكر في نؤيه وجلاميده، ولا جيشانه واصطخابه، بل يفكر في أنه يجب أن يؤدي بدا لهذه العجوز التي استغاثت به.. وعبر مجرى السيل، وبلغ عدوته الأخرى بعد عناء وجهد، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله.. ولكن.. يا عجبا!! أين هي المرأة العجوز الحيزبون؟ أين الكومة من الجلد المتهافت،

(1) تابة أي متقدمة في السن.

والعظام النخرة، التي كانت ترهق كاهله؟ ولقد ذهبت ووقف مكانها شباب رائع، وجمال فتان، وغادة حسان مفتان!!

– يا للآلهة! من أنت بحق السماء يا ربة؟

– أنا؟.. إلا ترى إلى هذا الطاووس وألوانه أيها العبد الصالح؟

– أوه؟ أو أنت جونو[1]؟

وسجد جاسون بين يدي البرية، سيدة الأولمب، ثم أذنت له في أن ينهض، وأخذت برأسه فباركته، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت، ثم رفت في أثير السماء التي تفتحت لها أبواباً، وغابت عن بصر جاسون!

ووقف الفتي لحظة مسبوها مشدوها، ثم انطلق في طريقه .. وراعه بعد مرحلة طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلاً واحدة في أحداهما .. أما الأخرى، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها، وهو لا يستطيع استعادتها، لان حمله كان يرهقه!

ثم بلغ يولكوس

ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس، الذي وقف ينحر الذبائح، ويقرب القرابين للآلهة، ويفرق حواياها[2] على الفقراء! فدافع الناس، وشق

([1]) عودنا القراء في أساطيرنا أن نسميها باسمها اليوناني (خيراً) وهذا هو اسمها الروماني.

([2]) حشاياها.

طريقه إلى حيث وقف الملك، ثم سار إلى عمه قدماً، حتى كان قبالة المذبح .. وما كادت عين صاحب العرش – أو غاصبة – تقع على الفتى الذي يلبس نعلاً واحدة حتى شحب لونه، وغاضت الدماء الوردية من خديه، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً .. ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التي تنبأ له بها أحد سحرائه، والتي حذرته من الشاب الذي يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلاً ذهبية واحدة في إحدى قدميه، في حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة!! أن هذا الشاب يقتله!!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش فجيء به إليها، ولم ينتظر حتى يبدأه عمه بالكلام أمامه جباراً يغلى الدم في عروقه، وطلب إليه أن يعتزل الملك و يخلع التاج، ويعطي الصولجان صاحبه، بل وقف وأن يعيد الحق إلى نصابه .. "لأنك انتهزت ضعف أبي الذي وهنت عظامه، واشتعل رأسه شيباً. فعتوت عليه والبت عليه الأوشاب من مرتزقة الجند، ورعاع الشحاذين والأفاقين، فلم دمت، تاجاً ليس لك، واستويت على عرش الجريمة من تحتك، ثم حاولت أن على عرش ترشو الآلهة وتخدع السماء بالأضحيات والقرابين، ولكنك لا تخدع إلا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يبغتك، ومغبة وبال يحيط بك ..".

وكان بلياس تملأ أذنيه، ومنايا تطير حول قلبه .. بيد أنه استعد لها بالمكر، و تهيأ لصدها بالخدعة، فتبسم لابن أخيه وقال: "ماذا تقول يا جاسون؟ أتحسبني يا بني قد سلبت أباك عرشه، وغلبته على صولجانه؟ كلا والله يا بني كلا ... ولكن .. ليسكن طائرك قبل كل شيء .. فلقد دعوت

نفره من (رعاياك!) لوليمة إلهية، وقد أقبلوا من كل فج، وهم ينتظروننا الآن، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم، فهلم تلقهم يا جاسون؛ ونرحب بهم، فإذا فرغنا وفرغوا من طعامهم، عدنا سوية لنبحث هذا الأمر الذى أهمك وأقلقك، وملأ فؤادك بالوساوس والأراجيف، وسترى أن الذي أنبأك هذا النبأ زخرفه عليك، وشوه حقيقته في نفسك، بدليل هذه النيران التي تنقذف كلمات من من فمك؟.. تعال .. مرحبا بابن أخي جاسون؟ لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبي!".

ثم قبله في جبينه قبلة صفراء قاتلة، أفتك من قبل التماسيح، وانطلقا إلى البهو الكبير، حيث صفت الأخاوين[1] الحافلة بأشهى الأكال. وأطيب الأشربات، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً صفوفاً وألوفاً ألوفاً.

وجلس جاسون فيأكل وشرب، ثم أخذت الموسيقى تعزف في شرح الصدور الحرجة، وتشفي النفوس من كل حرد، واعتلى المنصة التي أقيمت في صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص، شرعوا يسردون قصصهم، ويتناشدون أشعارهم، ويروون من أنباء الأبطال ما يأسر القلوب ويسحر الألباب، حتى أن جاسون نفسه كان يصغي إليهم، وكأنه يتلقى وحياً من السماء يتنزل على قلبه، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال.

([1]) إخوان لغة الذي جمعه خون وفي القلة أخونة.

قال أحد المنشدين: "واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذي صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه، فبنى عليها[1] ولم يبال أن ينقض ركن الأسرة وينهار عمادها .. ذلك هو أثماس أحد ملوك تساليا في الزمان القديم، ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضرتها، فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كولخيس ليكونا بنجوة من اينو الخبيثة .. وفيما هي واجمة تفكر في ذلك إذا هرمز الأمين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه:

– نيفيل أيتها العزيزة؟ فيم تفكرين حزينة هكذا؟

– هرمز؟ تباركت يا رسول السماء، أفكر في ولدي هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر أينو ..

– لا عليك يا حبيبة الآلهة، أنني مساعدك، كفكفي دموعك ..

– شكراً يا إله الرحمة، سأسمح لك ما حييت!.

– وأين تحسينهما يكونان في سلام وأمن يا نيفيل؟

– لا يكون ذلك إلا عند ملك كولخيس، ولا أدري كيف أرسلهما إليه؟!

– لا أهون من هذا، فانتظري طرفة عين!

---

(1) تزوجها.

ومضى الإله فغاب برهة، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الأبريز، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها، ولينقلهما إلى ملك كولخيس، وسجدت الملكة شكراً لهرمز، ثم قبلت طفليها فركسوس، و ابنتها هلة، وطبعت فوق جبينها وخدودهما ألف ألف قبلة، ودعت لهما، ثم انطلق الكبش في الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التي لا تنتهي ... وطفق الكبش يعرج في السماء، ويخفق فوق الممالك، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب تقلبت أمواجه، وتناوحت زوابعه. فنظرت الفتاة المسكينة هله تحتها لترى ما هنالك، ولكنها فزعت فزعاً شديداً، حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتتل، وتحترب ويأكل بعضها بعضاً، فارتجفت رجفة ماثلة، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عل وجعلت تهوى حتى تردت في البحر وابتلعتها أمواجه ... ومنذ ذلك الوقت، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهلسينت[1]) نسبة إلى الفتاة البائسة هله! ومضى الكبش يستبق الريح، ويطوي العوالم، حتى وصل إلى مملكة كولخيس، فهبط قليلاً فصلى للآلهة، وذرف قليلاً، حتى إذا كان على الأرض تزل الفتي فركسوس، الذي هش له وبش، الدمع على أخته، وسلم على الملك الذي هش له وبش، وأحسن لقياه، وأكرم مثواه، ثم شحذ سكينه وتل الكيش لجبينه، وكبر وسبح باسم جوف وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قرباناً لهم جميعاً ... وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذي فرح بها فرحاً شديداً، لأنها كانت تعدل كل ما في كنوز الملوك من ذهب ... وقد ربطها الملك في سنديانة باسقة، ووكل بها

([1]) هو الدردنيل.

تنينا هائلاً ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رحيم ... ومنذ ذلك اليوم والفروة التي تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد، ولا يجسر أحد أن التنين ... يقترب منها وإلا جازف بنفسه، فأصبح لقمة سائغة للتنين ...".

ولحظ بلباس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد، فانتهز الفرصة، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غني، وأوفرهم ثراء، ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا الممالك، وأتوا من الفعال ما جعلهم أنشودة المجد في فم الزمان ... ولم لا يا ابن أخي؟ لقد علمت أن أستاذك الذي نشأك، وهذبك وأدبك، هو شيرون السنتور الأكبر، أستاذ أخيل العظيم، وقد خلد اخيل أسمه على أسوار طروادة، وأعلى ذكره في جميع الأنام، فلم لا تذهب إلى كولخيس لتحصل على الفروة الذهبية أما سلماً وأما حرباً، وأنت من أنت في أبطال الوغى وصناديد الحروب؟ ألست أرمي الناس لسهم، وأضربهم بسيف وأحذقهم طعاناً برماح؟ أنها فرصة المجد لمن يبتغي المجد يا جاسون، فلا تضعها! لا تقل "بل حسبي أن أحكم الناس" فالناس يعشقون أشجع الناس ..." وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى، حتى هاج في صدره الشاب نائم المني وساكن الآمال ... فرضي جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة، وظن أنها من اليسير بحيث لا تستعصي على شجاعته. بيد أنه عندما خلا إلى نفسه، وراح يفكر في الوسيلة التي يبلغ بها مناه، ردت له حقائق أسقطت في يده، وجعلته يتخاذل، ويندم على الوعد الذي وعده غمه، غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد، وربطه بالشرف، فصمم على السفر إلى كولخيس وجلس يفكر فوق عدوة

النهر، وكانت سمادير اليأس تملأ عينيه، فلم يهتد إلى الوسيلة! وانطلق إلى غرفته، فقضى فيها ليلة ليلاء مثقلة بالهم والفكر .. ثم انبلج الصبح، فانطلق إلى هيكل جونو عند دودونا ...

– جونو ... جونو ... لقد كدت أنسى جونو، يجب أن أصلي لجونو، فقد وعدتني أن تدركني بغوثها كلما حزبني أمر ... لقد حملتها على كتفي هذين في صورة عجوز شمطاء! وهي ستحمل عني هذه المرة!

ووقف بجانب المذبح پر جو ويتوسل ويصلى، وكانت سنديانة هائلة – هي الناطقة بنبوءات جونو – تامية وراء المذبح، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول:

– لبيك أيها الفتى لبيك! لبيك وسعديك يا جاسون يا حبيب جونو لبيك! كفكن غوارب دمعك فسترعاك الربة وتحفظك .. تعال! اصعد فوقي! اقطع أحد أغصاني واصنع منه عصا، واجعل لها رأساً على هيئة السفينة التي تحملك إلى كولخيس، وسيبنيها ارجس[١] لك، وذلك بإشراف مينرفا. ولتكن العصا معك دائماً، ولكن لا تنقلها من السفينة فهي حارستها، وكلما ألم بك خطب أو حز بك أمر، فارجع اليها، فهي تكلمك وتشير عليك ..." وسكتت السنديانة، وصنع جاسون العصا وذهب عند سيف البحر، ليرى عمال آرجس، بإشراف مينرفا، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها إلى الماء ففرح واستبشر، وسماها (آرجو) نسبة إلى صانعها،

---

(١)

ثم أعلن عن حاجته إلى نفر من شجعان هيلاس، يقاسمونه مجازفته، فاجتمع إليه عدد غير قليل، منهم هرقل الجبار و كلستو، وأدمنوش: و تيزنوس، وأرفيوس، وبولكس ويليوس .. وأعدوا ميرتهم، واستكثروا من ذخيرتهم، ثم همت الفلك، واحتواها الماء.

مساكين هؤلاء الأرجونوت[١].

لقد كانت رحلة شاقة مضطربة بالمتاعب، مليئة بالأشجان، في بحر لجي وأمواج كالظلل، ظلمات بعضها فوق بعض، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض، وطريق كله سعالي[٢] وأغوال.

لقد لقي الأبطال الصناديد من أمر هم رهقاً أي رهن.. فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسمة الدوح، نما أيكها[٣] واستطال، وغلظت جذوعها واستوت، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق في الغابة يقطع أغصاناً تصلح لان يصنع منها مجاذيف للأرجو، فأوغلا .. وكانت الطريق ملتوية مضلة ... فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التي كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى في سكون الغابة ... وذهب هيلاس، وجلس هرقل ينتظره ... ولكن وقتاً كافياً طويلاً مضى قبل أن يعود الفتى ... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوه ... ثم ساعتان

---

(١) حيوان رائع من أتباع جونو.

(٢) المسافرون في السفينة (آوحو).

(٣) جمع سعلاة أو سعلاء وهي الغول أو ساحر الجن.

... ثم أكثر من ذلك ... ثم أكثر ... ماذا؟ ترى ما الذي عوق هيلاس؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا في ذلك الزمن، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق، وصدر رحب أخيلى، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال، وعينان يترقرق في بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى، ولا تحده إلا قلوب الحسان ... وشفتان أن كانتا لرجل، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة ... وجبين متلألئ وضاح، لام كإشراقة الشمس في مولد الصباح .. تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبي، وما كان أجمل هيلاس!!

ذهب يملأ الجرة ... وما كاد ينثني ليضرب بها الماء، حتى رأته عرائسه الغيد، الخرد الأماليد، فشغفهن وامتلك قلوبهن، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله، وينهلن من حسنه، وليقليمن بسيد الأولمب ما هذا بشراً، أن هذا إلا ملاك كريم!! واقترب من مكانه، ثم لم يقوين على البعد فاقترين أكثر، ثم تأجج الهوى في فؤاد إحداهن وهى أجملهن، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها،

فهتفت به، فلم يجب، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى الماء.

– ماذا بالله عليك يا عروس؟

– تعيش معنا!

– أعيش معكن في الماء وأنا بشر؟

– لن تكون بشراً بعد اليوم، بل تكون إلهاً كريماً.

– وأني لي هذا وأنا غلام هرقل ومولاه، وهو ظمئ إلى جرعة من مانكن تشفي جواده؟

– ومن إذن لهرقل أن يرسو بأرضنا؟ إذن هذا عقابه! تعال! سيمنحك الخلود سيد الاولمب!

وجذبنه إلى القاع .. ولكنه لم يغرق .. وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً، ولا يجوع ولا يظمأ!

ونهض هرقل يقص أثر فتاه، حتى إذا انتهى إلى النبع ووجد الآثار هابطة إلى الماء، إلى غير عود، صرخ صرخة تجاوبت أصداؤها في أركان الغاية، ثم جلس ساعة على حفا في المقبرة التي ابتلعت هيلاس، بتشج ويبكي ... وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة، وأقسم كذلك لا يصحبن الأرجو في هذا السفر ... وعاد أدراجه، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن، وعاش حياته الطويلة المقاحمة لا يفتأ يذكر هيلاس، ولا يفتأ يبكي على هيلاس!

* * *

وأرست الأرجو في شاطىء تراقيا، ونزل جاسون في نفر من رجاله يمتارون، فعلموا أن ملكاً أعمى يقال له فنيوس، شديد البؤس، طويل

الشقاء، يحكم هذه المملكة .. ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق، لها جسم الطير وريشه ومخالبه، ورأس الانسان ولؤمه وخبث طباعه .. كانت هذه لطيور تنزل بساحة القصر الملكي، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام، فتلتهم غداءه، فلا تبقى ولا تذر، و كان الملك في أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها. لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقى على شيء .. حتى على الفتات .. ولم يكن يردها عن قص الملك كلما حان موعد الطعام، فتلتهم غداءه، فلا تبقى تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم، وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الألباب، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه، وجار بالشكوى إلى آلهة السماء.

ودهش جاسون، وذهب بالقصة إلى رفاقه الارجونوت، فتقدم إليه البطلان الضرغامان، ولد بوريس، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حرباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور، فأما أن يتيم لهما النصر عليها، وأما أن تكون لها الكرة عليهما ... وصادف الاقتراح هوى في نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذي هش لهما وبش، و فرح بما عرضاه فرحاً شديداً ... فلما حان موعد الغذاء، جلس الملك وضيفاه – وكان جاسون قد عاد إلى السفينة – إلى المائدة ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتدوم، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة، ولم يمكناها من خدش واحد

تحدثه ببدنيهما، بل هجما عليها هجوما ذريعاً، وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوي فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يوناني مبين ... ثم قرت بقية الطير ... ولكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك، وهتفت به كي يأمر بوقف الملحمة التي تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة .. فقاسمته ملكة الطير، وأشار إلى ولدي بوريس فأغمدا حساميهما. وذهبت الملكة، وعادت بعد قليل في شرذمة من جندها، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها، حملتها، وذهبت إلى غير عود(١) ... وبرت قسمها، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً. وشكر الملك لولدي بوريس، وعرض آن يستوزرهما، فاعتذرا شاكرين، ليصحبا جاسون.

* * *

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة في عالم الطير فهبت جابرته تأخذ بثأر الهاربز، فإنه ما كادت ارجو تبعد عن شطئان تراقيا، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع في أشعة الشمس كالذهب، حتى إذا كان فوق الأرجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل،

---

(١) تعرف هذه الطيور في الميثولوجيا باسم هاربز Harpies وروى أنها نفت نفسها في جزيرة ستروفيد.

فألحقت بهم أذى كبيراً .. ولم تنفع سيوفهم ولا قسيهم شيئاً، فاختبأت كل كوكبة منهم في قمرتها وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيلة من هذه الطير، فتكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدثوا صوتاً تنزعج الطير منه، وتفر مروعة إلى غير عود .. ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا وفرت الطير ذاهلة ممزقة في رحب السماء.

* * *

وحافت بهم كوارث أخرى لا حصر لها .. ثم أقتربوا من برزخ سمبلجيدز الذي ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل غيره .. وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عدوتيه صخرة هائلة، فلا تزال الصخرتان تنطبقان وتنفجران، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيرانه هباء عفاء كأن لم يغن من قبل .. و كأين من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما، فحطمتهم وعفت على آثارهم .. ولم يدر جاسون ماذا يصنع وجلس رفاقه يقلبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرتهم هذه، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطمان، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتقية الصمم .. وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يطلق جاسون حمامة بين الصخرتين حين تنفجران، ويرى هل يمرق قبل أن تنطبقا عليها؟ ثم يري، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة ..؟ ودعا

جاسون رجاله يستشيرهم، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا، وكم كان عجبهم شديداً حين رأوها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشة واحدة انتزعت من ذنبها فصارت هباء نثره الهواء واستعدوا للمقاحمة، وطفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين في البحرين الذي هم فيه، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو.. وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى .. ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة، وأرواح ترتعد فرقاً من الموت في أبدانها، فمرقت السفينة، كما يمرق السهم عن قوسه .. وأحربا!! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم، وأن حطمت الصخرتان سكانها[1]، كما حطمته سئل عن طلبته فقال:

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة، حتى أنسدحوا[2] في الفلك يلهثون ويتنفسون، ويهنئ بعضهم بعضاً.

* * *

وبلغوا كولخيس بعد عناء وجهد، ومثلوا بين يدي ايتيس ملكها الجبار، فسلم جاسون بسلام الملوك، ثم سئل عن طلبته فقال:

---

(1) دفتها.

(2) انطرحوا.

– عز نصر مولاي، لقد تجشمنا مشاق هذه السفرة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك، لأنه نمى إلى أنها كانت من تراث آبائي .. ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد اذ أفلتت من كنوزنا.

وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ، ثم ربت على كتف جاسون وقال:

– أي بني! أبق على شبابك الغض، وجمالك الفينان وعلى شباب هذه النخبة أولى القوة والفتوة ممن معك .. أي فروة ذهبية باني تبتغي؟ وتراث آبائك من؟! لقد ذبح فركسوس الكيش بديه أمام عيني، وسلخه بين يدي، وضحى باللحم والحوايا[1] للآلهة، ثم أهدى إلى الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سملجيدز؟! وفيم كل تلك المهاوي والمهالك؟ عد يا بني إلى بلادك فهو خير لك، وأبق على حياتك، وانعم بحضن أمك الدافئ، فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان، ومنايا تثير الأشجان والأحزان!

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك، فأخذ أيتيس يعظه وينصحه، فلما رأى تصميمه واستمساكه، قال له:

---

(1) الأحشاء.

– "لك إذن ما طلبت يا بني، ولكن اسمع، وأصغ إلى أن أمامك مخاطر كنت أوثر إلا تلقي بنفسك في تهلكتها، ولكن ما دمت قد غرتك الأماني وأزهدتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك، فاذهب إذن، وحاول ما استطعت أن تلجم عجلي فلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ويفتكان بكل من اقترب منهما، ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجبوب[1] التي تقدست باسم مارس، فإذا فعلت فازرع ما حرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس بأبي طيبة، فانك لا تلبث أن ترى الأرض تنبت جيلاً من المردة مقنعين في الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح، فإذا قدرت عليهم فإن عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية، فإذا فعلت، ولا أحسبك تفعل، فإن الفروة لك، كنزاً ليس كمثله كنز، وذخيرة من الذهب الإبريز ليست تعد لها ذخيرة، هذا الي فخر يرفعك إلى عليين، وينقش اسمك في لوحة الخلود إلى آخر الزمان!".

وسمع جاسون .. وخفق قلبه، ووجبت روحه وجيباً محزناً، ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل!!

ونصحه رفاقه أن ينكث، وأشفقوا عليه أن يضحي بهم

وبنفسه في مثل هذه الممالك، بيد أنه صمم على أن يلجم عجلي فلكان، وأن يحرث بهما الأرض الجيوب، وأن يزرع فيها أنياب التنين، وان يحارب المردة، فأما هزمهم وأما غلبوه، وأن يقتل التنين الذي يحرس الفروة

---

(1) الغليظة.

الذهبية ليفوز بها وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر، فيحكم ويكون خير الحاكمين!

وكان يتكلم أمام رفاقه في شجاعة مدعاة، وفتوة مفتراة، للتفكير العميق .. فإذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن، وأسلم نفسه للتفكير العميق .. ثم استوحى عصاه السحرية، فقالت له: أنه ينفي عليه أن يلقي ابنة الملك الأميرة ميديا، فإنها مشغوفة به حباً منذ أن رأته يحدث أباها .. وأنها تكاد تجن به جنوناً.

– وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة؟

– اتصل باحدى عجائز كولخيس تقض حاجتك.

– ومتى ألقاها وأين؟

– بالك من فتى؟ ألم تسمع من يقول: وكم لظلام الليل عندي من يد؟ ألقها في جنح الليل، ولتكن له يد عندك، وألقها في حديقة قصر أبيها الملك!

– ولمه؟ وألست ابن ملك مثلها؟ ألست صاحب عرش عظيم؟ أليس لي ملك تساليا بعد أن أعود من رحلتي هذه؟

– بلى يا بني؟ ولكنها تخشى أباها اشد الخشية. أليس يرى فيك عدوه الأكبر لما تريد استلابه الفروة الذهبية التي هي اكبر كنوزه؟

– دعى هذا اليوم يا أماه، ولكن طمئنيني كان الله .. هل تحبني ميديا حقاً؟

ومن أنبأك هذا ؟..

– نبأتنيه ربة من السماء لا تضل ولا تنسى ..

– ربة؟ تقدس اسمها؟! من عساها تكون يا تري؟

– هي جونو يا أعز الأمهات؟ لا أكذبك، أنها جونو!

– أتعرف ماتقول؟

– وهل يكذب بشر على آلهته؟

– أن كان ما تقول حقاً. فلا أذيع سراً أذاعته سيدة الأولمب، ومليكة جوف الكبير المتعال، أن ميديا يا بني مولعة بك ولوعاً شرد المنام من عينيها، وجعلها في أيام معدودات طيفاً لايردد لسانه غير اسمك، ولا تذرف عيناه إلا من أجلك .. و..

– ميديا تبكي؟ ومن أجل؟ ولم تبكي؟

– تبكي لأنك كلفت بأمور لا تحملها الجبال! وأين أنت من عجلى فلكان والأرض الحبوب التي لمارس؟ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين؟ ثم من أنت وما هذا كله في مواجهة التنين الهائل

الذي يحرس الفروة؟ حقاً لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة ..

– وما الرأي إذن، ولا بد مما ليس منه بد؟

– الرأي أن تلقي ميديا فهي حبيبتك، وأن عندها، فضلاً عن ذلك، أم كتاب السحر، ولن تبخل عليك بعلمها مهما كلفها ذلك من حنق أبيها، واغضاب أربابها.

* * *

لقد كان الليل يضرب على الدنيا بجرانه، وكانت النجوم تلتهب في فحمته كقلوب المحبين، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المطلوبة بين العاشقة المدلهة، والفتى المفاحم ذي الآمال ..

وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلفي ... وهمست إليه، فسار في أثرها، حتى كانا عند منعرج مسوج بنبات ذي عساليج، يؤدي إلى رحبة واسعة ينتشر في أرجائها أرج الورود والرياحين، حتى ليوقظ القلوب النائمة، ويعطرها بفعمة[1] الحب ويسكرها برحيقه المختوم، الذي كله لغو و تاثيم!

---

(1) الفغمة: الرائحة الجميلة،

وهناك، كانت تنتظره ميديا بنفسي غرثي[1]، وقلب ظامئ خفق، فلما رأته غمرها إحساس ثائر، واستولت عليها عاطفة صارخة، لم تستطع معها إلا ان تلقي بنفسها على صدره القوى الرحب، تبلله بدموعها ..

ووقف جاسون ساكناً هادئاً، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذي أقبل فجأة يهاجهه ويدارأ عليه، ويدفع بعضه بعضا من حوله .. لقد كان قلبه بارداً كالثلج، وذراعاه جامدتين كالرخام .. وكانت ميديا تبكي وتنثر اللؤلؤ من عينيها المرتجفتين، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع .. وكأنما كان يحس، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله، أن حية رقطاء تتحوى عليه، وتنفث سمها فيه .. لماذا؟ لم تكن إلا الآلهة وحدها تدري!!

– جاسون .. أحبك .. أحبك من أعمق أغوار قلبي لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك من الشرفة تكلم أبى، فلما رأيتك فنيت فيك ..

– أشكرك يا عزيزتي .. أشكرك شكراً لا أدري كيف أعبر عنه!

– جاسون: ألا تكون لى الأبد؟

– أنا خادمك .. بل عبدك إذا شئت!

– لم رضيت لنفسك ماعرضه عليك أبي يا جاسون؟

---

(١) غرثى: جائعة والمراد مشوقة.

– وماذا يخيفني يا ميديا؟ نحن الإغريق لا نرهب الردي، ولا نخاف الموت!

– هذا جميل .. ولكن الموت أكره الأشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب؟

– قد انتصر، والنصر لاسيما في المخاطرات، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب!

– هذا محال اذا لم أساعدك!

– تساعدينني؟

– أجل؟

– وكيف؟

– عدني أولاً!

– وبماذا أعدك يا أعز الناس!

– أن تكون لي .. أن نتزوج؟

– أعدك!

– بل أعطني موثقك!

- أقسم لك؟

- بل احلف بجونو، فهي حارستك وأحلف بهيا كاتيه!

- .. .. أحلف. أحلف بجونو! وبهيا كاتيه!

- تحلف بجونو ماذا؟

- أحلف بجونو أن نتزوج!

- وأن يعيش كل منا للآخر إلى الأبد!

- ا .. ا.. إلى الأبد؟!

- إذن .. لا ضير عليك .. ستنجو من كل شيء يا جاسون .. خذ ..!..

- ماذا باميديا؟

- أسلحتك التي تقيك!

- أسلحتي؟ هاتان علبتان .. وهذا حجر أسود صغير! أكل هذه أسلحتي؟ ماذا أصنع بها؟

- علبة من فضة إذا فتحتها أصاعدت منها ريح تفل من حدة عجلي فلكان، وتقى وجهك حر النار التي تنفثاها من منخريهما،

فتستطيع ان تلجمهما وتضع على عنقيهما النير حتى يكون المقوم(١) بيدك، أما الحجر الأسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم أرض مارس الجبوب، وانه لحجر مسموم من سجيل، يجعلهم كعصف مأكول! وأما العلبة الصفيرة الذهبية فتنشر مما بها من لساعته، ولك عندها أن تقضى عليه .. طيب في وجه التنين، فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته، ولك عندها أن تقضي عليه ..

ومدت فمها إلى جاسون، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد، مما سمع من سحر الحجر الأسود، وريح العلبة الفضية، وطيب العلبة الذهبية!!

* * *

وكان الجو العبوس القمطرير يزيد في منظر الحفل الحاشد روعة ورهبة، وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم و عرشه الممرد، فوق الأكمة المشرفة على الأرض الحبوب المقدسة باسم مارس به وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مشاة وعلى كل ضامر، يجلسون على الشعاف وأحياد الجبال المطلة على الميدان، متزاحمين متدافعين كأنهم في يوم حشر... وكان إخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفي قلوبهم حسرات على صاحبهم، وألسنتهم ما تفتر عن الدعاء له، والتوسل إلى الآلهة من اجله.. وكانت

(١) المقوم الخشبة بين الثورين يمسك بها المحراث، أما النير، فالقصبة التي تشد المحراث على عنقيهما (العثالبي).

ميديا العتيدة تجلس في ركن من مقصورة الملك تشعوذ و تعوذ وتطلق الرقي..

ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب .. وانفتح باب الزرب فبرز عجلاً فلكان، ثم جعلا تعصفان ويتلبطان[١] وينفثان من منخريهما شرراً ودخاناً يختلط بهما لهب أزرق، ما مس شيئاً في الميدان الأحرقه .. حتى العشب الرطب المندي، بله الهشيم اليابس...، .. وبرز جاسون من مكمنه، فانحبست أنفاس الناس، وسكنت الريح، وأشرف الآلهة من نوافذ السماء تنظر إلى هذا اللقاء العظيم .. وأهطع[٢] أصحاب البطل، وطارت ألوان وجوههم، وتحسس كل منهم فؤاده .. ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هياب، وعليه دروعه، وفي يده سيفه، فلما كان قاب قوس منهما، جعل يتلطف بهما، هدات ثورتهما، وأسست قيادهما، فأسرع إلى النير فوضعه على عنقيهما، وشد وثاقه، ثم ربط إليه المحراث وبدأ عمله الشاق .. وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد، فعاد العجلان إلى سابق دأبهما من التوحش والقماص والشيوب[٣] وعاد منخراهما يقذفان دخاناً أبيض وشواظا .. بيد أن جاسمون سيطر عليهما حتى أتم حرث الأرض كلها، ثم قادهما إلى زربهما وأطلقهما، وغلق عليهما، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التنين ليزرعها .. فدفعها الحراس إليه، وطفق يغرسها في الأرض الرحبة، حتى إذا فرغ من عمله، نظر، فإذا

(١) الأعصاف السير السريع الذي يثير الأرض، ويتلبطان يختلطان في سيرهما.

(٢) مدوا رؤوسهم.

(٣) أن ترفع الدابة يديها غاضبة.

رؤوس مقنعة في خوذات من حديد تنبت من الأرض، ثم تنمو فتبرز الرقاب، ثم تظهر الصدور و عليها الدروع السابغات، ثم تشقق الأرض وتكون الجذوع كلها من فوقها، وتخلص الأذرع وفي أكفها السيوف المرهفة تلاعب الهواء.. ثم ترتفع الأفخاذ وعليها كل لامة دلاص(١)، ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغي وتزبد وتزأر، ثم ينقض عليه الجيش بأكمله، وقد شرع كل جندي حسامه، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم من قوة في كر، وحزم في فر، وحذق في تحرف القتال، ورسم الخطط النضال.. وكان الملك ينظر إلى كل ذلك ويتعجب، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول.. وكانت ميديا – برغم ما سلحت به جاسون من سحر - تمسك قلبها الخفاق بيدين مرتجفتين.. أما رفاق جاسون، فوا رحمتاه لهم! لقد كانوا يرون الأبالسة يحدقون به من كل صوب، ويزلزلون الأرض تحت قدميه، فتزيغ أبصارهم وتتقلب قلوبهم، وتتثلج مشاعرهم، وينظر بعضهم إلى بعض، لا يملكون لهذه رداً ولا دفعاً..

وظل جاسون يناضل ويناضل، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها، وكلما جندل مائة بدلت بألف، فانقذف شيء من الرعب في قلبه، وسرى إلى نفسه دبيب من اليأس كاد يقتله لولا أن أقبلت جونو تكلمه في بسمة روحت عن قلبه، وتذكره بالحجر الصغير الأسود.. ولكن الحجر الصغير

(١) الدرع الواسعة السابغة.

الأسود كان في جيب صداره، فأنى له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه الباء بقتلة شنيعة يقطر سمها من ألف ألف سيف!!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الاسود.. ولكن محاولاته كلها ذهبت سدي.. وكان قد بلغ منه الجهد، وتولاه الإعياء والضنى.. فلهج لسانه فجأة باسم جونو.. فأسرعت سيدة الأولمب لنجدته، وأخرجت الحجر الأسود من جيبه، ووضعته في يده، فقذفه جاسون وسط جيش الأعداء المحدقين به، فما هي إلا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله، ثم تصرعوا غير مأجورين.. وماتوا جميعاً.

وأهرع أصحاب جاسون إليه، وطفقوا يحبونه ويهنئونه ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غمة هذا البلاء، ثم حملوه وهم يهتفون أحر الهتاف، وأهرعت الجموع الزاخرة في آثارهم نحو البحر، وهي لا تفتأ تردد صيحات الإغريق، حتى خاف الملك على عرشه أن يثله شعبه، وأن يجلس عليه جاسون.. لذلك اربد وجهه، وانتشرت عليه سحابة من الكآبة والهم تملأ أساريره.

وبلغ الإغريق سفينتهم فشكروا للكولخيين جميل ما حيوا به بطلهم ثم خلوا بعد ذلك إلى جاسون فنضوا عنه ثيابه، وضمخوه بالطيوب والعطور، ثم هيأوا له طعاماً وشراباً، من أفخر ما يقتنون. وفي الليل أسر لهم بسره وانطلق ليلقى ميديا.

ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها.. ثم تركها وقتاً غير قليل تغمره بقبلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها، وتعبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لعجلي فلكان، وحين أحدق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه، وهو صابر لهم، ثابت لجموعهم، حتى قذف الحجر فانقذفت في قلوبهم المنايا.

– أرأيت إذن يا حبيبي ما صنع الحجر الأسود من السحر؟ أيقدر على مثل ذلك غير من أوتي من العلم ما أوتيت؟

– كلا!

– ما لك لا تتكلم يا جاسون؟

– الفروة الذهبية! أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل؟!

– الفروة الذهبية لك من غير ما ريب، فلا تبتئس! قبلني!

وطبع على ثغرها قبلة ميتة كانت ترتجف من شياطين السحر التي ترقص دائماً في فم ميديا... وانطلقا إلى الجانب القصي من الغابة المجاورة، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان، وهناك، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه، وقذف في وجهه بما كان فيها من قطرات السحر... فترنح الوحش المخيف الرائع، واستل جاسون جرازه، وأغمده في صدر الأفعوان الكريه، فخر يتلبط في دم غزير... وانقض الفتى على الفروة الثمينة التي ترجح ألف كنز فانتزعها

من الشجرة.. وعادا عجلين إلى القصر الملكي الرهيب، حيث كان وصيفاتها في انتظارها، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر، كما رسمت لهن ميديا من قبل، وحين أوشك الجميع أن يغذوا السير إلى الآرجو... إذا بالفتى أبستروس، أخو ميديا غير الشقيق، وولي عهد الملك، يقبل لبعض شأنه، فتغريه أخته بالسفر معها في رحلة جميلة إلى أبدع بلدان العالم... تساليا... ويرضى ولى العهد... وينطلق الجميع إلى المرفأ حيث رست الآرجو، فيركبون فيها، وتقلع بهم في موج كالجبال.

* * *

أقلعت الآرجو وطفقت تطوي عبابا من بعده عباب، ولجة من ورائها لجة، وبدا الطريق كأنه يطول، والأفق كأنه يحلو لك، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز ايتيس وابنته وولي عهده...

ونمى الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه، وهب من فوره يعد أساطيله ليقتفي آثار جاسون، عسى أن يقبض عليه، ويعود بابنيه وأعز كنزه... وانطلق هو الآخر يطوي العباب، ويتواثب بأسطوله فوق أعراف الموج، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم، ويستحثهم ويشجعهم، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء في حمرة الشفق، أو المطوقة الورقاء في صحيفة الأفق، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع، واستبقوا إليها من كل فج، وكانت سفينة الملك في المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب، ونظر الارجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصي الموج نحوهم، فراحوا

بدورهم يعملون المجاديف ويهدهدون الشراع للريح، وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر، وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفرق... وفكرت في ألف حيلة وألف سحر، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد، وبطل سحرها كله، فهو لا ينفع ولا يفيد... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رمية سهم... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادي، ويتوسل أن ترد إليه ابنه.. ابنه الأوحد.. أبستروس... "ميديا! ابنتي! أنا أبوك! أتوسل إليك! ردي على ولدي واذهبي أنى تشائين! أنه أملي في الحياة! إنه ولي عهدي وحافظ ذريت! ميديا! أرسليه في زورق واذهبي أنت...!" ولكن الفتاة غلقت فؤادها وسدت بالجحود سمعها! وا أسفاه! يا للقاسية! يا لبرودة القلب الذي لا يحس، والنفس التي لا ترحم؟ لقد أمرت ميديا بالفتي فأحضر إليها، ثم شحذت سكينا وأغمدته في صدره، وتدفق الدم الحار... دم الشباب الفينان... يلطخ اليد الأثيمة المجرمة... اليد الشقية، يد ميديا التي طوعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها، ثم تقطيعه أربا..؟

* * *

ماذا خطر برأس الساحرة؟ أواه! لقد أخذت تمزق أخاها مزقاً مزقاً، وكلما اقتطعت منه شلوا قذفت به في الماء، وأبوها المسكين المجنون يرى، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله، ثم يتلبث عند الشلو الذي يليه... وهكذا دواليك، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز... الرأس الصغير

الذي كان يبسم لا ينع الآمال، ويحلم بأجمل الأماني... رأس أبستروس... ولي العهد، والأمل المدخر لأمة بأسرها...

لقد انتشر الظلام في عيني الملك... وغمر قلبه قنوط مر... وأمر الملاحين فطووا الشراع، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن في بحر هادئ كله هم، وكله حزن، وجلس ايتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه، ويخضبها بالدم الذي تذرفه عيناه.

– آه يا بني! أية فروة وأي كنز؟ ليتك خلصت لي بكل ملكي! ميديا! غضبت عليك آلهة السماء يا عاقة! تبت يداك يا أغدر البنات! ألا ليت أمك لم تلدك...! أبستروس! رد على أيها الحبيب...!، وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن!

ولكن جاسون ما خطبه؟! مسكين! لقد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب هذا الأثر... لكنها حدجته بنظرة آمهرة كان يرقص فيها ألف جني، فسكت! وهل كان في وسعه أن يفعل شيئاً؟! أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذي أهلك جيشاً بأكمله؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة؟! بيد أنه عرف ماذا يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل! لقد كان السر الرهيب المطوي في صحائف الغيب هو الذي يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام، وقبلاً حارة ملتهبة بمثلها!

وقد فكر جاسون في ملكه الضائع المغتصب، وفي أبيه الضعيف الطريد، وفي عمه الجبار العتي، وفكر في قوة ميديا الخارقة، فآثر أن يبنى عليها عسى أن تنفعه... لهذا أظهر لها التودد، وتعمل في حضرتها البشاشة... حتى وصلت الآرجو إلى أيولكوس، حاضرة تساليا..

وحمل جاسون الفروة الثمينة، وقصد إلى عمه...

وذهل بلياس... وجعل يحملق في الكنز العظيم الذي أتاه به ابن أخيه... وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق... ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه ببصر عينيه جميعاً؟!

– "ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هذا الكنز العظيم؟ أن الملك كان أحرص عليه من نفسه التي بين جنبيه؟ ألا كم هلك أناس طمعوا في فروة فركسوس؟ عجلاً فلكان! وأرض مارس وجيل بأكمله ينبت من أنياب التنين...؟ والأفعوان الهولة الذي يحرس الفروة؟ أظفر جاسون – هذا الفتى – بكل أولئك؟ جاسون ابن أخي؟ عجيب وحق الآلهة...؟ بل أسأله، فلا بد من سهر في هذا الأمر..." وسأله وتبسم جاسون، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب في جوانح عمه، وظل يتغنى بشجاعته، ويصف ما كان من ظفره بعجلي فلكان، وحرثه الأرض الجبوب، وغرسه أنياب التنين، ثم هذه الحرب الزبون التي شبها عليه المردة وما كان من أفنائه لجموعهم، وتلك الملحمة التي قتل

فيها التنين الرهيب الذي وكلت إليه حراسة الفروة العظيمة... ثم إنه لم يشر بكلمة إلى ميديا.

وأكرم عمه مثواه وطلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش، فمطله، وراوغه، وزخرف له الأماني، حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها، ولا يعكر عليه صفو الحياة أي من تلاميذ شيرون

* * *

ولقى جاسون أباه فراعه أن يرى كومة من العظام، نخرها الكبر، وجللها المشيب، وأوهاها الحزن، وأوهنها الألم المتصل، و ناءت تحت كوارث الزمان... وبكى جاسون! ولكن أباه انتهره وقال له: "أي بني! ليس الرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكي! إنما يبكي النساء والمستضعفون من الرجال. على أنه ماذا يبكيك؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش، فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم، وأحسبه قد ذكر لك ما كان من وصاتي له حينما عهدت به إليه يهذبك ويؤدبك، ولقد أصبحت رجلاً شيخاً هالكاً، أما أنت فمن صباك في إبان، ومن عنفوانك في ريعان، وأنت بالعرش أحق مني وأولى، وهو بك مني ومن عمك أليق، ولن أغفر لك قعودك عنه، وليس في تساليا إلا شعب يحبك ورعية تلهج بالثناء عليك، فشمر عن ساعدك، واطلب حقك بالقنا يا جاسون"

وذهب الفتى، وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة على عمه، فلقي أول من لقي ميديا.

– ماذا، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبي؟

– لا شيء... لا شيء مطلقا!

– لا شيء؟ وكيف؟ ألا تفهم ميديا ما في نفسك؟

حدثني ولا تخف على!...

– لا شيء وحقك يا ميديا

– أو مصر أنت على كتمان دخيلتك عني؟ إذن لقد كان أبوك يعظك!

– أجل! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة...

– قل يا حبيبي! تكلم يا جاسون!

– أن لك الماما تاماً بغرائب السحر، وعلم التعاويذ والرقى، ولقد نفعني علمك في أحرج مواقفي... ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عجلي فلكان، وحاربت المردة، وقتلت التنين... إنما فعلت كل أولئك بمعونتك، ولي رجاء إليك...

– رجاء؟ أي رجاء يا حبيبي؟ إنما لك أن تأمر...

– شكراً... إلا تستطيعين يا ميديا آن تردي الشباب إلى أبي؟ أنه رجل شيخ محطم، وإن الأيام لتنحدر به إلى القبر، كما تنحدر صفوانه[1] من شاهق.. فهل عزيز على علمك أن ترديه إلى ما ولى من الصبي؟... خذي من عمري فصلي عمره إن استطعت! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلي!..."

– اطمئن يا حبيبي فليس أيسر مما طلبت، وسأرده إلى ميعة شبابه بقليل من العناء... وسأزيد في

عمره ما أحببت على ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت؟!

لقد كان البدر تاماً والليل الفضي الجميل أروع ما ينشر لجينه على الطبيعة النشوانة[2]، وكل ما في البرية نائماً ساكناً والعشب الحلو كان نائماً كذلك... وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام وملء الأدغال، حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها... وتلبثت قليلاً تفحص الطبيعة الرائعة في الأرض والسماء بعينيها الجبارتين، ثم بدأت تتلو تعاويذها وتقرأ رقاها... وتصلى للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء السماء، وإلى القمر الحالم الساهم... ثم سبحت سبحاً طويلاً باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر، وباسم تللوس ربة هذه

---

(١) حجر.

(٢) المشهور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بني أسد ككراة.

الأرض العجيبة النائمة التي تنبت البقل والعشب لما تعمل ميديا، وصلت كذلك لآلهة الغاب والأنهار والبحار، والغدران، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب، وصلت لجميع الآلهة، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرقى...

* * *

ثم سكتت، وصمت من حولها كل شيء، حتى الرياح كتمت أنفاسها، ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان... ثم انفتح باب كبير من ذهب، وبرزت منه عجيبة يجرها أفعوانان هائلان، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمي ميديا... وتقدمت الساحرة وهي تبتسم، فركبت في العربة وانطلق الأفعوانان بجرانها في الهواء، ويرفان بها فوق الوديان والغيران، وفوق قلل الجبال وهضاب الأرض، وفوق الغاب الساكن المستسر، وفوق الأنهار والبحار.. حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض، حيث تنبت الأعشاب العجيبة التي تنفعها في سحرها... وهناك... مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقى البقل ذا الأسرار، ثم ركبت عربتها، وانسابت في الهواء حتى أتت بيت جاسون، فنزلت بحملها العجيب، وعرج الأفعوانان في السماء...

* * *

وفي الصباح، فوجئ جاسون بوجودها فذعر ذعراً يشوبه شيء من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت... وأمرت أن يخلي بينها وبين ايسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما

من العالمين. ثم أنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتيه ربة السفر والسحر، والآخر باسم هيب ربة الشباب، وذبحت لكل شاة سوداء فاحمة السواد، ثم صبت على دمائهما صلاة للربتين من خمر ولبن... وتوسلت بعد ذلك إلى بلوتو رب هيدز، وإلى زوجته برسفونيه ألا يعجلا بقبض روحِ ايسون. ثم بدحت[1] نحو الرجل فتمتمت برقية أسلمته إلى نوم عميق، وأضجعته على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التي حملتها من أقصى الأرض، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة، وشعرها المتهدل يداعبه النسيم، وصدرها المنكشف ناهد نحو السماء.. حتى إذا أتمت دورات ثلاثاً وقفت وشحذت سكيناً ماضياً، وجعلت تشعل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين. ثم تناولت أداوتها التي حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار، وحفظت بها أزهارا فيها من الرحيق السحري ما هو آية، وجعلت فيها من حجارة الشرق ورمال البحر المحيط، ومن البرد الذي جمعته أثناء رحلتها في ضوء القمر، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها، وحوايا[2] ذئب، وبقايا من صدفة سلحفاة، ومزقا من كبد غزال، ورأس غراب ومنسره، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمورة، ثم صبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الاداوة بما فيها، وتركتها تغلي وتفور، وهي فيما بين هذا وذاك تعوذ وتهمهم وتتمتم وتغمغم، ثم تقلب ما في الادارة بغصن زيتون أملود... فما كاد السائل يفور حتى نمت في الغصن أفنان من الورق الأخضر وحبات

(1) اتجهت إليه.

(2) أحشاء

من الزيتون، يكاد زيتها يقطر منها، وكلما نشرت منه على الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ما ينمو العشب في إبان الربيع!

* * *

ثم شحذت سكينها مرة ثانية، ثم أموت على حلقوم الشيخ فقطعته، وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه، ثم أنها صبت من الاداوة في الجرح وفي الفم، كأنما تجعل منه مكان ما سال من الدم. وما هي إلا لحظة حتى دبت الحياة الفتية في جوارح الرجل المهدم المحطم... فهذا شعره يسود ويصير فاحماً غربيباً... وهذا وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلئ باللحم وبالدم، وهذا ظهره المحني يستقيم ويمتلئ قوة وعنفواناً، وهذا دم الشباب يجري في عروقه كما كان قبل أن يكتهل، وها هو ذا يثب كالغلام الأمرد السمهري، ويشب على اخمصية كأرشق ما يفعل الصبيان! وها هو ذا الوجه يكتسي جمال العمر الخالي... ثم ها هو ذا جاسون يقبل من بعيد فينظر إلى أبيه وكأنه في حلم... ويعانقه ويهنئه... ويشكر ميديا... ويبكي!!

– أرأيت يا حبيبي؟ أليست لك حاجة بعد؟

– وكيف يا ميديا؟ إني مفتقر أبداً إلى واسع علمك، ومبين سحرك!

– أمهمة أخرى؟

– أجل يا ميديا! ألا ترين إلى والدي مطروداً من عرشه، وأن الحزن يقتلني من أجل هذا؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا في ذلك؟

– ولم لا تقتل عمك؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم؟

– أنا ضعيف يا ميديا.. وهو رجل جبار وله جند...

– إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك..

وأخذ ايسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس، ويعجبون لهذا الشباب الذي تدفق في برديه، فيسجدون له، وان منعهم الجند وطاردوهم... وعلم بنات الملك بما ردت ميديا علي عمهن من رونق الصبي، وما البسته من رواء الشباب... وكان أبوهن قد بلغ منه الكبر، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب، فرددن لو أتين له بميديا لتصنع معه ما صنعت مع ايسون... واتصلن بالساحرة، وأغرينها بالمال، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبي، حتى لا يغلبه على الملك ايسون ولا ولده جاسون... وأحضرت الاداوة بما وعت من عشب، ثم جيء لها بالشاة السوداء، ولكنها حين تمتمت بكلماتها السحرية، وكانت الاداوة تغلي بما فيها من سائل عجيب، قفزت الشاة، فكانت في الاداوة، ثم قفزت منها فكانت حملاً وديعاً جرى إلى السهول يرعى العشب... وطرب البنات حين شهدن آية السحر وإعجازه.. ثم جئ بالملك وحراسه ليشهدوا... وأعطت ميديا كلاً منهن سيفاً مسلولاً وتمتمت بكلمات فدارت الأرض برأس بلياس وصحبه وحراسه فسقطوا وغطوا في سبات عميق... وأشارت ميديا

إلى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره، لتبدأ هي عملها... فتلكأن أول الأمر.. ثم أطعن، وحركن أيديهن بالسيوف في ضعف وفرق، فأحدثن به جروحاً أيقظته.. فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن: "ويلاه! بناتي يقتلنني؟!" وخافت ميديا أن نبطل سحرها، فبدت في صورة إحدى بناته، واستلت سيفاً مرهف السنان، وأغمدته في صدر الملك اللص.. فمات إلى الأبد.. وأغمض عينيه ليفتحهما في هيدز، وفي هيدز فقط!

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التي يجرها الأفعوانان، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج، فيكبتها ولاذت بالفرار، قبل أن يكشف صنعها أحد!

سبحان مقلب القلوب! إن كل هذا البحر لم ينفع ميديا! لقد كان قلب جاسون مغلقاً دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً أنقياء كالثلج!! لتمد أحب جاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث وأحب هذه المرة حباً صريحاً لا يشوبه ذعر، ولا تعكره التعاويذ، ولا تتلفه رقي السحر.. وأعلنت الخطبة، فجن جنون ميديا! واسودت الدنيا في قلبها وعينيها.. وهالها نكران جاسون جميلها الذي ناله مثنى وثلاث ورباع.. ولم لا؟ أليست هي التي مهدت له سبيله إلى العرش؟ أليست هي قاتلة بلياس؟ إذن، فالويل له!!

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والإنس لم تقدر على مثله، فلما كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا، ولكنها ماتت لساعتها! أواه! لقد كان الثوب مسموماً، وكان ما به من سم يكفي لقتل شعب بأسره!

ولم تكتف الساحرة بذلك، بل شحذت سكينها، وأعادت مأساة أبستروس، فقتلت جميع أبنائها من جاسون.. وأشعلت النيران في القصر الملكي، وفرت إلى أثينا على العربية السحرية لتتزوج من ملكها ايجيوس، ولتلقي ثمت مصرعها!

فينوس ربة الجمال والحب(*)

تعالوا يا أعزائي المحبين نسمع أغنية الجمال والحب، من ربة الجمال والحب، بارزة من الثبج، فوق الموجة الكبيرة، وسط أليم.

لقد كانت السماء زرقاء صافية، ولكنها لطفت ورقت وتضاعف صفاؤها، عندما ذاع في ملكوتها النبأ العظيم، وبشرت بمولد فينوس!

ابتسمي أيتها الشفاه الحزينة، وانبسطي أيتها الأسارير المقطبة، وأثلجي يا صدور المكلومين!

وأنت أيها القلب الملتاع قف خفقانك، وأنت أيها الطرف الساهم كفكف عبر تك، ويا نفوس العاشقين اطربي، فقد ولدت فينوس!

برزت عرائس البحار يصلين في بكرة الصباح لأبوللو، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية، وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نوراني فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين، متمتماً بصلاة الحب لربة الحب، مرتلاً أنشودة الجمال لربة الجمال!

(*) اسمها اليوناني أفروديت، وسميت في أساطير كثيرة ديون، كوثيريا، وهي آلهة الجمال والحب، وربة الضحك والزواج.

وافر فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة، يحيى الفم السعيد الحلو، الذي سيملأ قلوب العالمين رضى وسعادة!

وأشرقت ذكاء تحمل أبوللو، فلمح السوسنة الوردية تخطر على لازورد الماء، فترك عربته المطهمة بالذهب تعرج وحدها في القبة الزرقاء، وانثنى هو يزف البشرى إلى آلهة الاولمب!

وهرعت عرائس الماء إلى فينوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنين، وحملنها إلى قصورهن المرجانية في الأعماق، حيث أرضعنها لبان الهوى، ولقنها كلمات المحبة، ونشأنها على أساليب الصبابة والغرام، حتى أينعت وترعرعت، فأزمعن المسير بها إلى الأولمب حيث يتلقاها الآلهة، فتأخذ مكاناً بينهم..

وكم كان جميلاً رائعاً أن يصطف التريتون والأوسيانيد والنيريد(1) من حولها، وكم كان جميلاً رائعاً رقص التريتون على صفحة الماء الجياش بالزبد، وتغريد الأوسيانيد كأنها بلابل الروض الأخضر ترسل في هدير المحيط شدوها فيحور غناء كله!

وكم كان جميلاً رائعاً من النيريد أن يتضاحكن مترنمات في الحلقة الأولى حول فينوس فتستجيب السماء لهن، ويميد البحر من طرب بهن!

---

(1) التريتون هم أبناء نبتون اله البحار ونصفهم الأعلى نصف رجل والأسفل نصف سمكة – والأوسيانيد هن عرائس المحيطات وأجمل عرائس الماء وهن بنات أوسيانوس رب المحيطات ومنه اشتقت Oceans والنيريد طائفة أخرى من عرائس البحار وهن بنات ألآله نيروس.

كم كان جميلاً رائعاً أن يخب موكب الحب فوق الماء، حتى يكون على فراسخ من قبرص معدودات، فينثني الجميع، إلا فينوس التي يهدهدها زفيروس الطيب، رب النسيم الجنوبي، حتى يصل بها الشاطئ، حيث يكون في انتظارها بنات تيميز[1] ربة العدالة، وبنات يورينوم ربات الفضيلة والخلق الحسن، فيتقدمن إلى ربة الحب، فيصلين لها، ويجففن شعرها الذهبي المتهدل فوق كتفيها العاجيتين، ثم تدلف بينهن، لفاء هيفاء، غراء غيداء، مهتزة الجيد، وضاحة الجبين، كلما خطت خطوة قبلت الأرض قدميها المعروقتين، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا، واعشوشب وأزهر، حتى يلقاها آلهة الحب الأربعة، رب الشهوة هيميروس، ورب الغزل سواديلا، ورب الألفة بوثوس، وهيمين رب الزواج، فينخرطون في الجماعة ويهطعون إلى الأولمب!

وتكون الأنباء قد تواترت عن قدوم الربة الجديدة، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوته تركب فيه، حتى تصل فينوس فجأة فتستوي عليه، وتتصارع أبصار الآلهة العطشى حول جسمها الخصب، المترع بالمفاتن، وتتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الأحوى الجميل، وتسري كهرباء الاشتهاء في الأذرع القوية، والصدور الهرقلية، تحلم بضم الجيد الناهد، ومخاصرة الوسط المياس، و.. كأنها العنقاء ترسل اللمحة من طرفها الساجي فتصرع هؤلاء وهؤلاء!!

([1]) بنات ثيميز هن ربات الفصول الأربعة، وبنات يورينوم من تاليا وأحاليا ويوفروسين.

وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد فينوس، وكان كل إله يفاخر أخاه بما لديه من نعم وآلاء. وكان مضحكاً أن يسفه الآلهة بعضهم بعضاً بين يدي ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم جميعاً، وخبرت من حماقتهم مالا يتفق وهذا الورد المتفتح في خديها، والسحر النائم في مقلتيها، والفتنة الثاوية في كل جارحة من جارحاتها، فرفضتهم أجمعين، وإن تكن برفضها قد أغضبت أباها كبير الآلهة وسيد أرباب الأولمب.

ولم يغض الآلهة عن تحقير فينوس لهم، بل انقلب إعجابهم ثورة، وارتد افتتانهم نقمة، وود كل منهم لو خلى بينه وبينها فيبطش بها بطشاً شديداً.

وأجمعوا أمرهم ضحى، وذهبوا إلى زيوس يطالبونه بالثأر لكرامتهم كأرباب مرهوبي الجانب مخوفي السلطان، من ابنته ربة الحب الطائشة!!

وخاف زيوس من ثورة الآلهة، وأفزعه تجمهرهم في ردهة الأولمب يتصايحون ويصخبون، فخرج إليهم هاشاً باشاً، ودق بصولجانه على الأرض المرمرية وقال: إخواني.. أبنائي:

"لستم أنتم وحدكم تنقمون من فينوس الجميلة ما بدر منها في حضرتكم من زهو وخيلاء، بل أنا معكم ناقم على هذه الابنة العاقة التي صعرت في حضرتي خدها، وشمخت بأنفها، وحسبت أنها خير من الآلهة درجة وأعلى مقاماً..

لتطب نفوسكم يا إخواني ويا أبنائي.. لقد أصدرت الساعة إرادة أولمبية تقضي بأن تتزوج فينوس المتكبرة المتغرطسة، المختالة، من فلكان الحداد، صانع دروعكم ولجم خيولكم!"

وما سمعها الآلهة حتى صاحوا لساناً واحداً: "ليحى زيوس العادل! تقدست يا زيوس! طوبى لك يا أولمب!"

وكان فلكان بين الجماعة وهي تهتف، ولكنه كان مشغولاً عنها بتلك السعادة التي هبطت عليه من السماء، و كان يحمل أرزبته الهائلة، فلما سمع النطق الأولمبي، ضرب بها الأرض ضربة راجفة، أحس بها بلوتو في أعماق الجحيم..

* * *

"يحسب الآلهة أننا معشر الربات ملك إيمانهم دائماً، يتصرفون بنا كما يحلو لهم!! ما عليهم إلا أن يأمروا، وما علينا إلا أن نطيع! لقد كنت أوثر أن ألبث في القصور المرجانية في أعماق الأعماق، على أن تشرق على شعاعة من أشعة الشمس الدافئة التي يرتفع فيها أولئك الآلهة العتاة الظالمون!"

– "هوني عليك يا مولاتي فقد يصفح غداً سيد الأولمب!

– "يصفح أو لا يصفح...

- "يا للهول!...

- "أي هول يا فتاة...

- "ينبغي ألا تعرضي نفسك لغضب رب الأرباب...

- "رب الأرباب! أنت تضحكينني يا أجمل العرائس الأوسيانيد!

- "مولاتي...!

- "إن رب الأرباب يحكم دنيا من الخزعبلات.. أما القلوب.. أما قلوب العذارى.. فالحب وحده يتولاهن، ويهيمن عليهن..

- "الهتي فينوس...

- "لا تنزعجي هكذا ياعروس الماء.. لقد ولدت لأكون ربة الجمال والحب.. فأولى لي ثم أولى، أن أسعد بالحب، وأن أختار من ذوي الحسن متعتي الغالية ونعيمي الأوفى.. فلكان!! أنا أقسم أن هذا الحداد لا يفرق بين القبلة والجذوة، ولا بين نشوة الحب وزفير الكير! وأخشى أن يغازلني يوماً فيقذفني بارزبته. يحسبها ريحانة أو زنبقة! يا للحداد القذر!"

- ولكن زواجكما تسجل في السماء ياربتي!

– "إن كان سجل السماء مدنساً بكل هذه المقابح الاستبدادية، فأنا... فينوس ربة الجمال والحب والزواج.. أنف أن يدرج في صفحاته أسمي!

والآن أسمعي يا أوسيانة[١]، اذهبي إلى حبيبي مارس[٢] فبلغيه أنني منتظرته الليلة، بعد مغيب الشفق، تحت السنديانة الكبرى في أول منعرجات الغابة.."

* * *

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهال منها ما تشاء، وتستعرض الآلهة[٣]، تقبل منهم على من تشاء وتعرض عمن تشاء... وما أكثر القطيع وما أشد نهم الذئب!

لقد علقت مارس القوى آله الحرب، ورب الدمار، ولم تبال بزوجها الفظ القذر المنتن، الذي لا يميز جرس الموسيقى من طرق الحديد، ولا نسيم الجنة من زفرات الجحيم!

---

(١) واحدة الأوسيانيد.

(٢) اسمه اليوناني ايرس.

(٣) في الميثولوجية اليونانية الآلهة هم أبناء الخلص فأنصاف الآلهة هم من كان أبوهم أو أمهم من البشر في حين تكون الأم الأخرى أو الأب الآخر من الآلهة..

وعلقها مارس وافتتان بها، حتى لكان يعد دقات قلبه دقة فدقة، حتى يلقاها، فتهدأ أعصابه، ويطمئن قلبه، ويثوب إليه رشده.

لقد كانت فينوس فتنة حقاً!

لقد كانت تتلألأ كتمثال من النور، في أهاب من البلور؟ وكان لها شعر كأشعة الشمس، يغدودن فوق كتفيها العاجيتين، فيظل النسيم العاشق يقبله.. بل يعبده فإذا تعب، تركه لينتثر فوق الخصر أو الصدر، ثم يعود إليه بقلوب الآلهة وأرواحها، فينشرها تحت القدمين الدقيقتين الرقيقتين، لتسحقها فينوس الجبارة.

والسعيد السعيد من فاز بابتسامة من هذا الفم الأحوى المفتر، أو غمزه من ذاك الطرف المفتر، أو إشارة من ذلك البنان المخضوب بدم العاشقين!

وكان مارس لا يخشى من أعين الرقباء مثل ما يخشى من عيني أبوللو، ولذا كان إذا وافى فينوس في هذا المنازل الغرامي السحيق، في أعمق أحشاء الغابة، ترك خادمه أليكتريون عند أول الشعب المؤدي إلى الطريق العام، يلحظ المارين وينبه إلى خطر الأعداء والناقمين، حتى يكون الأليفان بنجوة من الفضيحة، وفي حرز من ألسن الكاشحين.. فإذا تبين الخيط الأبيض من الخيل الأسود من الفجر، ذهب أليكتريون فأيقظ العاشقين الآثمين، فينهضان من غفوة الهوى إلى يقين الفراق، قبل أن تشرق الشمس

ولكن! لقد ذهب العاشقان يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً، حتى إذا قال منهما الجهد وترنحت أعينهما تحت عبء السهاد الطويل، انبطحا على الحشيش الأخضر، هو إلى جانبها وهي إلى جانبه، غريقين في سبات هنئ! ولمح أليكتريون ظبياً نافراً، يتفزع في ظلام الغابة، فتبعه، وطفق يعدو وراءه حتى لحق به بعد عناء شديد، فاحتمله، وعاد به إلى مركزه من مكان الحراسة... ولكنه ما يكاد يصل ثمة، حتى يساقط متهدماً من التعب، ويغلبه نعاس عميق..

* * *

وأشرقت الشمس!! وبرزت المركبة الذهبية حاملة أبوللو، رب هذا الكوكب المشرق المتأجج، وبدأت رحلتها السماوية، وأخذت ترتفع في العلاء رويداً، حتى إذا كانت بمنزلة الضحى، أطل أبوللو فرأى مارس الأثيم، وفينوس الغاوية، متعانقين على الحشيش الأخضر، وكانت بين أمه لاتونا، وأمهاديون، ما يكون عادة بين (الض ائر) من بغضاء وشحناء، وكانت ديون تفخر على زوجات زيوس جميعاً بأنها أم فينوس وحسب! وكانت لا تعدل بابنتها واحدة من جميلات الأولمب، بما فيهن دياناً أخت أبوللو، وابنة لاتونا.

انطلق أبوللو والشماتة تضطرب في قلبه الناقم على فينوس، يحمل الخبر الفاجع إلى فلكان، فتألفاه مستغرقاً في صنع شبكة حديدية هائلة، والنار تتلظى في أتونها الكبير، والدخان ينعقد في جو المصنع كأنه ينقذف

من بركان، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الأديم المعفر القذر كأنها أعجاز نخل..

– "فلكان!..."

– "هلا... أبوللو.. ماذا جاء بك في هذه الضحوة... وأني غادرت عربتك؟"

– "آثرت أن أطأ ثرى هذه الأرض بقدمي علي أن تحملني بوح[1]، وقد تدنس شرف الأولمب بالفضيحة المزرية!..."

– " الفضيحة المزرية؟ ماذا وراءك يا أبوللو!.."

– "فلكان! أين زوجك؟.. هل أويت إليه الليلة؟"

– "ماذا؟..."

– "أو لم تفقه بعد؟.. ولكن قل لي: ماذا تصنع بكل هذه الأسلاك الغليظة؟"

– "أصنع شبكة كبيرة..."

– "ولمه؟"

---

(1) الشمس.

- "لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماي... وأنا لابد صائده"

- "هلم، هلم.."

- "وإلى أين؟..."

- "تصيده.. ألم تنته من صنعها بعد؟"

- "بل انتهيت.. وأين هو هذا الوغد؟"

- "على الحشيش الأخضر، في أول شعاب الغابة، مما يلي الطريق العام"

- "ومع من؟..."

- "مع.... انه قطعة واحدة مع.. فين"

- "معها؟.. يا للهول؟.. يا للعرض الأحمر؟.."

* * *

واحتمل شبكته العظيمة، وانطلق الإلهان إلى حيث.. النائمان الحالمان الآثمان! لقد كانا ملتصقين التصاقاً تاماً.. حتى ما يكاد ينفذ الماء بينهما!

ونسى كل ألف شفتيه في شفتي ألفه، فهما جلنارتان تبثان نجوى الهوى إلى جلنارتين

يا الله!

ليس هذا فسقاً أيها الآلهة، بل هو التمازج الذي سميتموه الزواج[1]!

وانقض فلكان كالمذنب المدمر، فألقى شبكته على الخائنين!

وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر، وانتفضت فينوس وهي تكاد تذوب من الخجل! ولكن! أي ذعر وأي خجل، وهذه الشبكة قد أمسكت بهما كسمكتين!!

لقد مضى فلان، بعد إذ ربط الشبكة بما كسبت في أصل دوحة كبيرة، وعاد بكل الأسرة الأولمبية (لضبط الحادثة!)

* * *

وكانت ساعة رهيبة، انصبت فيها لمزات الآلهة الناقمين على رأس فينوس، وراح كل منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها وصلفها، وهي ما تكاد تبين!!

وأطلق فلكان سراحهما، أما فينوس فذهبت تنشد عشاقاً آخرين!

---

(1) هذه السطور من كيتس وهي من أبدع شعره في فينوس.

وأما مارس، فمضى إلى حيث خادمه الأحمق أليكتريون، فألفاه لا يزال يغط في نومه غطيطاً مزعجاً، فركله ركلة أطارت صوابه، وأخذ بتلابيبه فخضضه تخضيضاً!

ثم إنه أقسم لينتقم منه انتقاماً يكون أحدوثة الآباد وضحكة العباد، فنفث في أذنيه نفثتين، ارتد بهما الخادم المسكين ديكا عجيب الصورة، أرجواني التاج، طويل الجناحين، عظيم الذيل!

وركله مارس ركلة ثانية، وقال له: "اذهب فلن التذوق عيناك غفوة الفجر أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وستصحو قبل كل الخليقة لتصيح في النائمين:

ويحكم أيها الغفاة، هبوا فقد كاد أبوللو يقطر مركبة الشمس!!...

* * *

ولا يزال أليكتريون، ديكنا المحبوب، يوقظنا قبيل الشروق إلى اليوم!...

القرية الظالمة

ذهبا يدلجان في هدأة الليل، ويضربان في ظلام الوادي، ويتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة، وكلما نال منهما الجهد، جلسا يتسامران أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة، إلى السحر الذي تنفثه قيثارة المفتي اليافع.

– "حسبك يا بني، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة"

– "وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه؟"

– "أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طبائع الناس. أترى إلى هذه القرية النائمة في أكتاف الجبل؟

– "أين يا أبي؟"

– "انظر جيداً"

– "الظلام دامس، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئا..."

– "انظر في الجهة التي تشير إليها يدي"

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعه من نور شديد كشفت القرية للفتى.

– "آه. هذه هي. عمش خفيف أصابني الليلة يا أبتاه!"

وكان الفتي حلو الدعابة، رقيق النكتة، ثرثاراً، فقال له الشيخ يحذره:

– "إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً، ولا تخاطبني إلا أن أخاطبك، وإياك أن تأتي بإشارة تسقط هيبتنا في أعين القوم، فإنهم لؤماء سفهاء، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية!"

– "نسيت القفل يا أبتاه!"

– "أي قفل؟"

– "الذي أقفل به فمي فما يتحرك ببنت شفة"

– "يا خبيث.. أصمت"

* * *

وأشار الشيخ بيده إلى السماء فاربدت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدها، وانصبت ميازيبها بماء منهمر، وانطلقا إلى القرية!

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذي شرفات، فقال الشيخ:

- "تشبث بابني بأحياد الحائط حتى تكون مند النافذة، فانظر ماذا ترى"

وفعل الفتى، ونزل، وقال للشيخ:

- "أبتاه! نسوة عاريات يرقصن، وندامى وخمر، و.. وموسيقى وفتيات.. و.."

- "وماذا يا صغيري العزيز؟"

- "ودعارة وعهر يا أبتاه... لماذا جئنا هنا؟ لماذا جئنا هنا؟...

- "قلت لك جئنا لاريك عجباً هذه الليلة من طبائع الناس هلم إلى باب هذا المنزل"

وطرقا الباب، فبرز لهما فتى غرانق وقال: "ماذا؟ شحاذان قذران! فقال الشيخ:

- "على رسلك يا بني: أنا رجل شيخ غريب، وهذا ابني، وقد فجأتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة إلى الصباح، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات...)

- "غرفة ولقمات؟ ها ها... أذهبا أذهبا... لصوص! هذه حيل قطاع الطرق والسفاحين بلوناها من قبل"

ثم قذف بمصراع الباب في وجهيهما. فنظر الشيخ إلى ولده وقال: " أرأيت؟ سر إلى هذا البيت القريب"

وقال لابنه: "هلم إلى النافذة فانظر.."

وتسلق الفتى وحملق قليلاً، ثم قفز وقال: "أبتاه! أناس يخزنون الذهب في خواب عظيمة، ويختمون عليها بالرصاص المذاب، من أين لهم بهذا الذهب كله يا أبي؟.." فقال الشيخ: "هم لصوص يا بني، وإن كانوا لا يقطعون طريقاً، ولا يسطون على دار، ولكنهم يمتصون دم الفقير والمعوز، ويصهرونه ذهباً ويكنزونه هكذا؟! إنهم أصحاب هذه الضياع والبساتين! هلم إلى بابهم..."

وطرقا الباب، وسألا طعاماً، ومبيت ليلة، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار:

– "إن هذا العام عام شدة، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع، ماذا عندنا لنعطيكم؟ هيكل زيوس قريب من هنا فناما فيه، وكهنته أسخياء كرماء، وعندهم في كل آونة خمر... سيطعمونكما ويسقونكما! وربما قدموا الكل منكما غادة! فهم فساق عابيد... انطلقا إليهم... اذهبا..."

وقذفت بالباب في وجهيهما...

قال الشيخ: "أرأيت يا بني؟" فقال الفتى مداعباً: "نحن نستحق أضعاف هذا الهوان! ما لنا وللناس؟!"، فقطب الرجل جبينه وقال: "مالنا

وللناس؟ إذن ما نحن في هذه الدنيا يا بني؟ ولكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة، سير بنا إلى ذلك القصر العتيق"

فلما كانا عنده، تطلع الفتى فرأى صحباً كثيراً لا يزال يتعشى، والموائد حافلة بالإشربات والاشواب، وبكل ما لذ وطاب. والندامى البيض كالنجوم رافلات، ورافلون، في وشى وأفواف. وكأن الفتى استطير من العجب، فقال للشيخ: " كل الناس هانئون هذه الليلة المقرورة إلا نحن!! الجميع يأخذ في نشوة ولذة ونحن نضرب في وحل وننشق من غيظ؟!"

– قال أبوه: "ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى ابدأك؟ هلم إلى الباب" وقرعا الباب فبرز لهما شاب مفتول العضل كأنه هرقل. فلما سألاه حاجتهما، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع.

قال الشاب المفتول: "إليكم أيها الأخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً في قريتنا هذه، ولولا طول الحذر ما ذقتم الليلة رجل دجاجة.... إنهما يطلبان مبيتاً وعشاء، ولا أدري لم لم يقصدا إلى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير؟! وحيث أشياء أخرى...."

وقهقه السمار وتكبكبوا حول الغريبين، ثم اخذوا معهما في ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل. هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ، وذلك

يرفع ذيل الفتى مما وراء، وهذه تعانق الشيخ وتقبله وتقدم له كأساً من الخمر، وتلك تركب الفتى "زقفونه!"(١)...

ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات، ثم غابا عن أنظار الجماعة، كأنما تحولا إلى هواء...؟! فشده القوم وأوجسوا خيفة.

* * *

لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان في شوارع القرية الموحلة من بيت إلى بيت، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطردا شر طردة وأخسها، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده في هذه الرحلة المضنية في ذلك البلد البخيل... فقال له: "أذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة في حيد الجبل، وسأتسلى بموسيقاي حتى تعود" فقال الشيخ: "وحكمتي التي أردتك أن تراها بعينيك؟ هلم، هلم... أترى إلى ذلك الكوخ، لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا"

وكانت في الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت. فلما نظر الفتي تمتم يقول: "أبتاه! امرأة مهدمة وشيخ محطم أيا لبؤس الحياة، ويا لطف العيش! لماذا أثرت العاصفة يا أبي؟ إن الماء ينز عليهما ويبلل فراشهما..."

(١) لم نعرف غير هذه اللفظة النابية للتعبير عن الركوب على ظهر الإنسان مع لف الساقين والذراعين حول الوسط والعنق وابتكرها أبو العلاء في رسالة الغفران فنقلناها عنه.

– "سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذي يبقى"

– "ماذا تعني يا أبي؟ هل تهدم القرية؟"

– "صه! هلم فاطرق باب الكوخ"

– "قم يا فيلمون.. إن بالباب طارقا..

– "نامي يا بوسيز! انه البرد ترجم به العاصفة"

– "لا. ليس برداً. اسمع! أناس ينادون. قد تكون بهم حاجة"

ونهض فيلمون متهالكا على نفسه ففتح الباب. وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش، وتلقى الرجل وابنه أحسن لقاء.

– "مرحباً مرحباً... أنتما في حاجة إلى دفء. بوسيز، انهضي يا امرأة فأوقدي ناراً. أنا أعرف أن الحطب مبلل، ولكن حاولي... مرحباً يا كرام ومعذرة، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر. بوسيز، هاتي قربة النبيذ أولاً.. ليس فيها إلا صبابة! لا بأس، فسيبارك زيوس للضيفين فيها.. هاتي شيئاً من المشمش الجاف يا امرأة!.."

وتأتي بوسيز بقربة النبيذ، وما يكون فيها إلا ثمالة، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء، فيتمتم فيها بكلمات فتمتلئ نبيذاً من خير ما عصر

باخوس، وبعد أن يروي منها هو وابنه، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد إليها فم! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول: "بحق زيوس إلا ما أخبرتني أيها الصفي الصالح من أنت؟ فيقول الشيخ: "أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار، وهذا ابني الموسيقي البارع. أتطرب للموسيقى؟"

ويهتز الرجل، ويوقع الفتى على قيثارته لحنا كأنه لسان العاصفة، فما فيها من سنا برق، وهزيم رعد، ومكاء ريح، وتنقير مطر، ثم هو مع ذاك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب... وطرب فيلمون، ورقصت جوانح بوسيز، وأحضرت طبقاً به قليل من المشمش الجاف فقدمته للفتى، ناسية أن تقدمه إلى الشيخ، وهذا من أثر الموسيقى في أعصابها، ثم قدمته إلى أبيه في أدب واحترام.. وما كادت اليد البيضاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة، وتضاعفت في الطبق حتى ملأته. فأكل الشيخ، وأكل ابنه، وأكل فيلمون وزوجته، وهما لا يصدقان ما يريان!

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم، فكان القليل يزداد والمشفوف يتضاعف. وكانت لديهما اوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنع منها شواء يقدمانه للضيفين، ليريا ماذا يكون من أمرها. ولكن الاوزة فزعت فزعاً شديداً، وانطلقت في ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه. فابتسم، وربت على ريشها الناعم النظيف، وأجارها من سكين فيلمون.

وكان نسيم السحر قد أخذ يهب في الأفق الشرقي، فقال الشيخ:

– "أيها العزيز فيلمون. أيتها التقية الكريمة بوسيز، من إلهكما!"

– "الهنا زيوس تبارك في علياء الاولمب.."

– "أو يسركما أن يكون معكما الآن؟"

– "معنا؟ هو دائماً معنا!"

– "أجل هو دائماً مع عباده المخلصين. ولكن، أيسركما أن تكونا في حضرته يحدثكما وتحدثانه؟ فيصيح فيلمون:

– "أنت هو زيوس. تقدست. تقدست"

ويسجد الرجل وزوجته، وما تفتأ تأخذهما رعد شديدة.

– "أجل. أنا زيوس. أتيت أبتلى هذه القرية. وهذا ولدي هرمز. انهضا. والآن ستزلزل الأرض زلزالها فلا تنزعجا.."

ووقف زيوس، وأشار بيده أشارة خفيفة إلى الشرق، ثم إلى الغرب، ثم إلى الجنوب، ثم إلى الشمال، ثم نظر إلى فوق وتمتم بكلمات وجلس.

وما كاد يفعل حتى رقصت الأرض، وسمع كأن الجبل القريب يندك، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها، وتنقلب القرية إلى جحيم،

ملتهب، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال، فيطمئنهما زيوس.

– "الكوخ يا إلهي! أنا رجل فقير!"

– "مال كوخك يا فيلمون!"

– "إذا أنهدم عشت في العراء!"

– "لا عليك! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة؟"

وأشرقت الشمس، فنهض الإله الأكبر، ونهض الجميع معه. وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب، وارتد على عقبه مذعوراً:

– "مولاي! لمن هذا القصر المشيد؟"

– هو لك يا فيلمون، أمرت الآلهة فبنى لك في ساعة السحر جزاء كرمكما. هلما نشهد غرفاته"

وانطلق الجميع يتنقلون في غرفات القصر وردهاته، وكلما مر فيلمون وزوجته بتمثال اله سجداً له وأخبتا، حتى إذا كانوا في أكبر ردهات القصر، وقف زيوس وقال:

"فيلمون، هذا هيكلي! وقد جعلتك كاهني الأكبر، فتمن الآن على، فسأجيبك إلى كل ما تطلب"

فتبسم فيلمون وقال: "مولاي! الشباب يا مولاي! ليعد الشباب إلي وإلى زوجتي بوسيز، ولنعش طويلاً، فإذا جاء وعدك فلنمت في يوم واحد وفي ساعة واحدة!" وسجد يقبل الأرض بين قدمي الإله الأكبر!

فقال زيوس: "انهض يا فيلمون فطلبك مجاب، وستعيشان راغدين!"

* * *

وسلم الإلهان، ثم غابا عن الأنظار، وخرج فيلمون وزوجته ليريا إلى القرية، فلم يشهدا شيئاً غير بحيرة تعج أمواجها، وجزيرة كبيرة خضراء في وسطها قصرهما المنيف! فآمنا بزيوس وسبحا له!

وعاشا طويلاً واستمتعا بشباب دائم، وماتا في يوم واحد وساعة واحدة، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراهما في العصور.

غرام أرورا

رأته على رمال الهلسبنت[١] يرتع ويلعب، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله، ثم نظرت إليه وهو يداعب البحر المضطرب، ويتواثب فوق عبابه الزاخر، فسحرها قوامه، وفتنتها قسماته، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء، وأن من ذكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب – تيتون بن بريام ملك طروادة – جمالاً وأشد فتنة، وأخلق بحب ربة جميلة لعوب مفتان مثل أورورا... ولكن ماذا يصنع أهل هذا العالم في قلوبهم، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده؟ يستوي في ذلك الأرباب وغير الأرباب.

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج، فتتقلب نفس أورورا في جحيم من الهوى، وتتلظى في سعير من الحب، وتنجذب نحو الفتى الجميل المفتول بكل ما فيها من نورانية وقداسة.. وكان يبرز من الماء ليستجم على الشاطئ الناعم الوادع، فتكاد تجن به، وتود لو ترشف قطرات الماء التي تنحدر على جسمانه ذي العضل، وتتلألأ في ثنايا شعره الأسود الفاحم.

وطفقت توسوس لها نفسها بالأماني! وتزخرف لها الأحلام، فصممت أن تتكشف له، وتتبرج على مقربة منه، وتدل وتميس، عسى أن تأسر لبه،

---

(١) مياه دردنيل.

وتسبي قلبه، فيسلس قياده، وينخذل فؤاده، دون مشقة أو عناء... ولكن تيتون أبي، واستكبر قلبه أن يلين، ولم يستطع ذلك المرمر الناصع الذائب في ساقيها، ولا هذا الورد المتفتح في خديها، ولا الأبالسة الراقصة في عينيها وفوق ثدييها، أن ترقق من عناده، أو تنتصر على فؤاده، أو تسكب في نفسه صبابة أو هوى.

– إذن أنت ماذا تشتهي!

– أشتهي ماذا أيتها الغادة؟ اذهبي فاعرضي مفاتنك الرخيصة على غيري!

– ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا؟

– أورورا؟ كيف؟ ما يدريني؟

– أجل أنا أورورا... أنظر

وأخذت ترف في الهواء، وتسبح في السماء، وتغوص في الماء، وتأتي من آيات الإعجاز ما بهر تيتون.

– الصفح إذن يا ربة؟!

– لا صفح إلا أن تهب لي حبك، وتلقى بين يدي قلبك!

– وكيف وأنا بشرى عاجز، ولا ألبث أن أفني في بضع سنين، وهذا أبي الضعيف الشيخ قد خطب لي حسناء من بنات الملوك؟

– "أما أنك عاجز فلا، وأما أنك لا تلبث أن تفنى في بضع سنين فسأهبك الخلود، وسيخلعه عليك زيوس سيد الأولمب فلا تموت أبداً، بل تحيا كالآلهة إلى لا نهاية الأزل، وأما أبوك الضعيف الشيخ، فلا أحب إليه من أن يراك في كل ما ذكرت، ولاسيما إذا علم أنني سأكون لك من دون هذه الفتاة التي خطبها لك، والتي لا تلبث أن يخط الشيب رأسها، ويعصر الزمان عودها فتجف وتذوي، وتحملها أنت كأثقل الأعباء إلى القبر حيث الدود والذباب..."

– ولكن... ألا تأذنين لي في لقاء أبي؟

– لن يكون هذا أبداً... من هذه قسوة يا ربة!

– ستفتنك هذه القسوة بعد قليل

وانطلقت تداعبه وتلاعبه، وتضاربه وتغالبه، حتى زالت عنه وحشته، فأس لها، وأقبل بكل مشاعره عليها، واتفقا على الرحيل من فورهما إلى أولمب، فانطلقا يطويان الرحب.

– من هذا يا بنية؟

– صيد جميل، ومجازفة جديدة، أليس كذلك؟

– أجل يا أبي.. وليست مجازفات أبنائك أروع من مجازفاتك..

– مجازفاتي أنا؟ أية مجازفات يا أورورا؟..

– مجازفاتك الغرامية التي لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك

– أي غيد رعابيب يا أورورا؟ تلك جراءة بالغة! ا لعل الإله الأكبر، سيد الأولمب، قد نسي! وعلى كل حال فسيدة الأولمب، حيرا العظيمة، لا تنسي.... لقد شهدتك تلهو مع يو، وتعبث مع لاتونا، وتتساقى كؤوس الغرام مع يوروبا.. و.. و..

– أسكتي.... انك ابنة لا خير فيك... وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرنق الجميل يا أورورا؟

– الخلود... الخلود يا أبي... ينبغي أن يعيش أبداً.. لن يموت.. إلا تراه جميلاً يا أبتاه؟ إلا تبهرك منه وسامته وقسامته؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوي، عبقري سمهري؟ لقد لقيته عند شاطئ الهلسبنت، ورأيته يشق إليم فعلقه قلبي وهويته نفسي.. وكان الموج يلفه في أعرافه، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلهما، فلما خرج من الماء رأيت الدنيا كلها تحف به، وتغازله وتناغيه، فلم أر أن يفوز به غيري، ولا أن يستأثر بجماله سواي، وقد رضي أن يتبعني إلى أولمب، فتفضل أيا أبتاه وامنحه الخلود، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة. وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً... ينبغي أن

يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون... أليس كذلك يا أبي؟ أليسر خليقاً بالخلود كالآلهة؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدي الأولمب، وتفضل رب الأرباب فمنحه الخلود.. وا أسفاه! ألا ليته ما فعل.. ألا ليته ما فعل؟!

قال زيوس وهو يحدث نفسه:

"اذهبي يا أورورا، سأعذبك بهذا الحبيب، وسأنتقم الكبريائي منك، وسيكون تيتون عبئاً ثقيلاً على قلبك وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتهيت، وسأعلمك كيف تستبيحين أن تكلمي أباك كما فعلت.. فوعزتي وجلالي لأعذبنك بألف حبيب وحبيب!"

* * *

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون أحسن عيش وأجمله، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون[١] فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم.

ومرت الأيام وأورورا جميلة وردية كما هي، لأنها ربة، ولان قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تنطبق على الإلهة، لأنه لا أول لهم ولا انتهاء، فأورورا جميلة دائماً، وردية أبداً، لاينى قلبها يخفق بالحب وينشده، ويهيم

---

(١) قتله أخيل في حروب طروادة.

بالجمال ويفتقده، ونفسها عاشقة وامقة كذلك، وأن أماني الغرام تجيش في صدرها دواما، فهي إن خلت إلى حبيبها تيتون ألزمته فنوناً من الغزل، وضروباً من النجوى، إذا صبر لها الشباب، واحتملها الصبا، فليس المشيب بصابر لشيء منها، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها، ولا له جلد على أفانينها.

– ما هذه الشعرة البيضاء التي بزغت في سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر في أخريات الليل يا حبيبي؟

– "أية شعرة بيضاء يا أورورا؟ ربما كانت نذير المشيب يا حبيبتي!

– "المشيب؟! كلمة غريبة لم أسمعها إلا منك! ماذا تعني؟

– آه! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب، أما نحن، معشر البشر، فسرعان ما يذهب صبانا، ويولى شبابنا، فنشيخ ونهرم، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه ابر الشوك، يقول الشعراء أنه نور قبيح يسعى بين أيدي الكهول ليشق لهم ظلام القبور!!

– يا للهول؟ أن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفني!

– اطمئني! أنا باق إلى جانبك آخر الدهر. أليس قد وهبني الخلود سيد الأولمب؟

– بلى! ولكن...

– ولكن ماذا؟

– هذه الشعرة البيضاء التي قال فيها شعراؤكم ما قالوا؟

– الشعرة البيضاء؟ مالها هذه الشعيرة البيضاء؟ ليست شيئاً مادام سيد الأولمب قد وهبني الخلود، أن الذي أفزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة!

– ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا؟

– أره! قد فهمت ما يوسوس في صدرك؟ ألم أعد جميلاً يا أورورا؟

– بل أنت لا تزال جميلاً يا حبيبي

– إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء

* * *

وتمتعا سنوات أخريات، ولكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب، ولم تعد لطرة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة، وذلك السحر الذي كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام في قلوب العذارى... بل

حال[١] لونها الأسود الفاحم، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر[٢] ذي أسارير، يبعث الرهبة في أفئدة الشياطين!

– تيتون!

– نعم يا حبيبتي!

– لا! لا! لا تناديني بهذا النداء.

– ولمه؟

– لم يعد يصلح... لقد اشتعل رأسك شيباً، وتغضن جبينك، وترهل خداك، وبرزت عظامهما، وغارت عيناك جداً، وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض، والصبي الغريض[٣] وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون! وي! مالك تنحني هكذا؟ هل ضاعت منك درة ثمينة، فأنت تبحث عنها في أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ؟ آه! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه في هذا الثري!

– حسبك يا أورورا... حسبك يا ربة!

---

(١) تغير.

(٢) مقطب.

(٣) الغض الطريء.

- "لا، أبداً، ليس حسبي، أغرب عني أيها المسخ الشائه! ظل في عقر الدار حتى أرتد إليك!!

وانطلقت ربة الفجر الوردية غضبى صاخبة، وذهبت تطوي الفيافي وتهيم في الرحب حتى كانت من غير قصد عند شاطئ الهلسبنت، حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميل الشباب تيتون بن بربام ملك طروادة، منذ نصف قرن من الزمان!! أواه تيتون!! يا للذكريات الحلوة التي تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعيني نائي!! هنا على رمال ذلك الشاطئ الهادئ، وبين طيات ذلك الموج الذي يبدو كأنه لم يتغير، رأت أورورا الوردية تيتون البارع، وشعره الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح، ثم لا يلبث أن يستوي حين تمر عليه أمشاط الأمواج. وهنا.. ثارت عاصفة الغرام القديم في قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة، وشب لظى الحب ملء جوانحها... وفوق هذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه، ولكنها ما استطاعت إلى ذلك من سبيل، حتى تقلبت تحت قدميه، وتبرجت بين يديه، فرضي ما عرضت عليه، وانطلق معها إلى أولمب! فمالها اليوم غضبى على تيتون؟

مشت على شاطئ غرامها الأول، فثارت في فؤادها الذكريات، وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة، التي تطفو هناك. هناك فوق ذاك الثبج كحلم جميل... صورة تيتون وهو يصطرع مع أليم فيصرعه، ويغالب اللجة فينتصر عليها... ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلئ بالذكريات... وطفقت تبكي!

لا ريب أنها عنفت نفسها على ما صنعت أمس مع تيتون! ما ذنبه؟ ما جريرته؟ بأي حق تنعي عليه شيبته ولا يد له فيها؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلم لأن جبينه تغضن وامتلأ بأسارير الكبر؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغائرتين المنطفئتين! ولم تذكره بشبابه وتتهكم عليه، فتقول له انه يبحث عنه بعكازه في التراب؟

لا ريب أنها كانت قاسية، ولا ريب أنها لامت نفسها، لأن كل تلك الأفكار ترددت في أعماقها، وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت...

* * *

وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البائس الهرم، فهشت له وبشت وراحت تملق له، وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيغ هذه الكومة المتراكمة من القمح والشوه والدمامة، قبعت في ركن سحيق تحمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالي.

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين، ولكن للآلهة[1] كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال، ومدى غير واسع من الصبر، وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون، والضيق بشيخوخته الثقيلة، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التي لقيته فيها،

---

(1) ليذكر القارئ أن القصة من أساطير اليونان.

ونوبة الجنون التي جعلتها تتورط لدي سيد الأولمب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود.

– وفيم كل هذا الحزن يا أختاه؟

– وما العمل للخلاص منه؟

– أنت المخطئة، ذلك لا ريب فيه.

– مخطئة! وكيف؟ هل كنت عامدة أن أقصد إلى الهلسبنت لأراه ثمة؟

– ليس هذا ما عنيت

– إذن كيف كنت مخطئة؟

– لأنك سألت سيد الأولمب أن يهب حبيبك الخلود، ونسيت أن تسأليه أن يديم له شبابه، ويحفظ عليه صباه. إذن كنت تمتعت بجماله الفينان أبد الحياة!! أليس كذلك يا أورورا؟

– بلى، هو ذاك ولكن... لقد سبق السيف العدل؟

– على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسي..

– أجمل من تيتون؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شيء؟

– لا أيسر من ذلك، أسحريه!

– أسحره؟! آه؟ فكرة يا أختاه! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذي عنيت أنه أجمل من تيتون؟

– وي!

– لا بد من صيد آخر قبل أن يطلق سراح الصيد القديم؟!

– إذن فاذهبي إلى جبل هيماتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه!

– ثم...؟

– ثم عودي فاسحري تيتون واخلصي منه!

– وماذا ترين أن أسحره إليه؟

– انه عجوز هرم يدب على عكاز... ألا تسحرينه جندباً[١]؟

– بلى! فكرة نابغة يا أختاه!

* * *

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعي فهويته وشغفته حباً، أما تيتون فيا ويحه، ويا ويح للعشاق من قلوب العذارى! أنه لا يزال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب في الحقول والغيطان[٢] بعد إذ سحرته أورورا.

---

(١) نطاط.

(٢) السهل المطمئن الواسع من الأرض.

بجماليون المثال

أسطورة الفنان الذي عشق تمائيله

في مدينة أماذيس، الراقدة كالحمل بين مهاوي الجبال على شاطئ قبرس الجنوبي، كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم، وانزواء عن مشاغل الحياة، وهرب من الناس. كان يأوي إلى ممثله إذا تنفس الصبح، ويكب على عمله حتى توارى الشمس بالحجاب، فيأوي إلى فراشه، سادر النفس القلب، مكتئباً حزيناً.

ولم يكن حزنه من نوع هذه الأحزان التي تتعارفها قلوب أبناء آدم، بل كان حزناً فريداً في نوعه، غريباً في أسبابه، شاذا في دواعيه، حتى لنحسب أن أحداً من الناس لم يشق بمثله من قبل.. ولا من بعد.

كان في بجماليون صدود عن الناس شديد، لا يراهم جديرين بتودد، ولا خليقين بمؤاخاة. ومع أنه كان يضفي من عبقريته على تماثيل الآلهة التي طالما تفننت فيها يده الصناع، فكان يخرجها على نسق الفاتنات الحسان، وفي سمات الغيد القيان، فاته لم يصب مرة إلى امرأة، ولم ترتبط أسبابه بفتاة. فكأنه كان يسمو بحبه على النساء، وإن كن في الحقيقة صاحبات وحيه، وفيض نبوغه، واللمع الخاطفة التي يتجه شطرها مثله الأعلى..

ولم تكن هذه الحياة الصحراوية التي يحياها لترضيه، ولا تلك المعيشة الآلية التي اغطشت أيامه لتقنع خياله الخصب، وقلبه الرحب. لقد كان يقف منقبض الصدر، مغلول الروح، أمام هذه الدمى الصامتة، والتماثيل الخرساء، التي صنعها لأبوللو، ومينرفا، وديانا، وكيوبيد، وفلكان!

ولقد كانت المناحت والأزاميل، والمثاقب والمناشير، والمبارد والمناعم، وكل عدده تثير في نفسه السخط على الحياة، والبرم بالأيام، كلما فكر في حاله فعلم أنه يحيا بلا حب، ويعيش بلا أمل، ويعمل بلا غرض، ويسعى إلى غير مطمح!

وبينما هو في يقظته النائمة هذه، إذا بحجارين يحملون رخامة كبيرة، على جرارة ضخمة من هذه الجرارات الثقال، التي ترى كثيراً في محاجر اليونان، ثم يقفون أمام الممثل، ويطرقون باب بجماليون، فينقدهم ثمن الرخامة، وينصرفون كل إلى طيته، وكأنما كانت هذه الرخامة، على ثقلها الهائل، وحياً خصيصاً من السماء، أو آية من آيات الأولمب، هبطت على هذا المثال المهموم، فبدلت يأسه أملاً، وقنوطه المظلم رجاء نير الآفاق! فإنه لينظر إليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذي سيولده منها، وأنه لينزع ملابسه، ويضفي عليه ملابس العمل، ثم يتناول أزميله ومنحته، ويهوى على الرخامة مستلهما الحول والقوة من "فينوس!!"

"يا فينوس الجميلة، يا ربة الحسن والحب، يا من تسبح لك القلوب العاشقة، وتلهج باسمك النفوس الوامقة ياسر الورد الجميل، ونسمة الفنن

الضاحك! يا أم كيوبيد الحالم، وبنت ديون[١] الباسمة، ينا فينوس الجميلة، العون، العون يا فينوس!"

* * *

وهكذا لبث هنيهة يصلى، ثم أخذ في عمله، وكأن فكرة تنزلت على فؤاده، وامتزجت بشغاف قلبه، فراح يصورها ويمثلها، في هذه الرخامة النقية كالندف، البيضاء كالثلج. بل كأنما استجابت فينوس ربة الحب لصلاته، فأودعت في يده نفحاتها المباركة. فما دق دقة، أو نقر نقرة، إلا وتمثل فينوس الجميلة أمامه، ناذراً لها هذا التمثال، برغم التماثيل البارعة التي نحتها لها، والتي تملأ معابد اليونان وأقداسهم.

وأقبل على عمله بروح جديدة، ويد لا تكل، فلم يكن يحول بينه وبينه إلا الليل يرخى سدوله، وإلا سنة من النوم ترقص في جفنيه، فإذا نام تتابعت الرؤى، وتلاحقت الأحلام، كل منها يبدي له ناحية كان يجهلها من جمال فينوس!

ولقد بدا له كفنان، أن يروح عن نفسه بيوم يقضيه في الأدغال، وبين مسارب المياه، لكي يجدد نشاطه، وينعش ما خمد من ذهنه، وخبا من خياله، لطول ما أكب على العمل، فانطلق ذات صباح إلى سيف البحر يناجي أبوللو، وهو يوقظ الشمس من خدرها فتعاونه في مركبتها الذهبية

---

(١) في الميثولوجية اليونانية أن زيوس كبير الآلهة كان مزواجاً، وزير.. ربات. فمن زوجاته ديون التي أولدها فينوس.

الاثباج، وظل يعلو ويهبط، ويروح غادياً إلى هناك، حتى شارف أن ينتهي، وعاوده هواه الملح، فندم على ما قتل من ساعات في هذه الراحة الخاملة، والفسحة الباطلة، فعاد أدراجه إلى الممثل مستغفراً في طريقه الطويل فينوس!

ووصل ما انقطع من عمله، فكان يستذكر أحلامه ليضفيها على التمثال، ويستوحي السماء فتلهمه من أديمها الصافي، وتشيع في يديه وقلبه بطهرها ونقائها، لتنتقل من ثمة سحراً وفتنة فوق تلك العضلة، وتحت ذياك الإبط، وبين انفراج هذين الثديين، وبالقرب من العكن، وحول الفخذين، وعند هذا الأنف الإغريقي الأشم، وملء ذاك الذقن الدقيق، والعنق الرقيق، ولفتة الحدقتين، وانفراجة الشفتين، وتبسيم الثغر، وتكويم الشعر، وتدليس الردف، وتدوير الكعبين، وتنعيم العقبين.. وتباركت يا فينوس!!

لكان بجماليون يحس الحياة تسيل من أزميله الحنون، فوق هذا الجوهر المكنون! وكان يتقدم فينظر، ويتأخر فيرى، ويميل من هنا وينثني هناك، ثم يهطع إلى عل، وينحني إلى أسفل، ليتفقد التمثال من جميع نواحيه، فماذا رأى؟ لقد أستطير من الفرح، ومادت أعطافه من الخيلاء! ولكنه سكن قليلاً، وانطلق يتحدث إلى نفسه "ويحي!! لم صنعتك أيها التمثال، ما دمت قد بلغت هذا الجمال ولا تتكلم؟ أنا بجماليون التعس، الذي يعيش في هذا العالم القفر، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة، لا أنيس لي، ولا قلب ينبض بحبي، فينبض قلبي بحبه، ولا نفس تصلي لي، فأصلي

من أجلها! تكلم أيها الرخام الصامت، وانفرجا بكلمة واحدة أيتها الشفتان الساحرتان! أنا بجماليون! أنا صانعك أيتها الأنثى المتحجرة.. تكلمي، ردي على، فوحق فينوس المعبودة لقد أودعتك سر روحي، ولغز حياتي! أوه، ألا تردين على بجماليون المسكين؟ آه فينوس! النجدة يا فينوس! أنا لا أصلي ألا لك يا فينوس... الغوث الغوث!.."

وظل المسكين مكباً على هذه الدمية التي صورها بقلبه كله، وروحه جميعها، يشكو إليها كأنها تسمعه، ويبثها كأنها تصغى إليه، ثم انتهى حاله إلى هيام شديد، وحب ودنف، ولوعة وصبابة، وانقلب عشقه المبرح إلى لون كاسف من الوجد، وضرب شديد من أمر ضروب الحزن، مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب.. إذ كيف يعشق هذه الكتلة المجسمة من الرخام، وهي مما صنعت يداه؟ وأي أمل له في هذا العشق الشاذ؟ لا ريب أنه ضرب من الجنون، ما له من ضريب!

ولج به هواه، فأحضر عصبة من الحمالين الأقوياء، نقلوا له تمثاله إلى ردهة الآلهة – كما كان يسميها – وهي صالة واسعة في الطابق الثاني من البناء الذي فيه ممثله، وقصد إلى أمهر الصاغة وتجار اللآلئ، فاشترى ما وسعه من الحلي البالغة والجواهر النفيسة، وعاد فقرط الأذن وقلد الجيد، وتوج الرأس، ثم هام في المروج الخضر، والحدائق الغناء، يجمع الورود والرياحين، كما ينشرها تحت قدمي التمثال!

وتحولت الردهة إلى معبد من معابد البوذية المقدسة، بما عكف يحرقه من مقتني الند. وفواح الرند، في مباخر المرمر الجميل المصففة حول قاعدة التمثال.

وتلف تلفاً شديداً من الغرام العجيب، فلم يكن يكتفي بالعبادة في الحب والخبوت بين يدي ذلك الصنم المنتصب للفتنة، بل كان يشركه في كل أمره، ويعرض عليه جميع شأنه، حتى القراءة! فطالما كان ينشده من دواوين الشعراء ما جادت به القرائح وشدت به الألسن وتغنت بألحانه قلوب العاشقين!

معذور بجماليون! لقد تعب وراء الحب، ولكنه لم يلق هذه الغيداء الفاتنة، التي تستطيع التسلط على مشاعره، والهيمنة على فؤاده، وكان يتخيل روعة الجمال فلا يجدها مجتمعة إلا في هذا التمثال الذي نحته لهذه الأنثى، فعبده، وراح يتمنى على الآلهة الأماني، أن تنفخ فيه من روحها، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش.

* * *

وبينما هو نائم في هدأة فجر اليوم التالي، إذا به يصحو فجأة على لغط شديد، وهرج عال في الشارع الذي يقع فيه بيته. فينهض إلى النافذة، ويرفع الستر، ويفتح أحد المصاريع قليلاً، ثم يحني رأسه ليرى. وإذا موكب زاخر من غوغاء المدينة يحملون تمثالاً كبيراً من تماثيل فينوس التي صنعها بجماليون، وإذا الدهماء ينشدون الأناشيد الشعبية، ويرسلون في غبشة

الصبح أغانيهم (الشعبية) الجميلة.. وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة فينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها النائمين ثلاث مرات كل سنة، فلما عرف بجماليون أن الحفل حفل فينوس، أسرع فارتدي أبهى ملابسه، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمي تمثاله، وهرول على الدرج، ثم انفتل في الشارع، واندمج في صميم الشعب الذي يلهج بالصلوات والأدعية باسم فينوس. ثم ما هي إلا هنيهة، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الأطفال والسذج، ويردد من الصلوات ما يرددون.

ولم لا؟ هل لحظة من الزمان هي خير من هدأة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول أراد الصباح، إلى آلهة السماء، وأرباب الأولمب، فتسمع وتلبي؟

وكان كل همه أن ينتهي هذا الحشد الهائل إلى المعبد، حيث يستطيع أن يرتل دعاءه، ويتمتم بصلاته.

وقد تنظر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التي اعتادوا أن يقوموا بها في مثل ذلك اليوم، وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من فينوس. ولما لم يبق في المعبد إلا كهنته، وأفراد من الأتقياء الصالحين، يصلون صلاتهم، ويغمغمون بأدعيتهم، تقدم بجماليون في روعة التقى وخشوع الورع، ووقف خابتاً أمام المذبح، حيث تصاعد السنة الخور المعطر، حاملة الأرج الشذى من لهب المحرقة إلى السقف... والسجف، فتكسب الهيكل جوه القدسي البديع. ثم ألقى في

اللهب بحفنة من فتيت الكافور والمسك، وطفق يرتل هذا الدعاء الطويل: "فينوس الكريمة البارة، يا ربة الحب الطاهر، والهوى البريء، أيتها القديرة على كل شيء، المتصرفة في جدود العاشقين، وحظوظ المدنفين: أصغى إلى، ولا ترفضي دعائي: منذ اهتديت إليك، وأنا عبدك القانت لك، الهاتف باسمك في الغدو، المصلى لك في الآصال، لا أني عن ذكرك، ولا يفتر لساني عن التسبيح لك، والنسك من أجلك، باسمك اقبل على فني، ومنك استلهم وحي العبقرية، فأنت لي قبل كل شيء..

ولقد أيقظتني صلوات الشعب لك من أحلامي الجميلة بك، فلم اطغ ولم أستكبر، بل هرعت إليك، أتوسل بك، والتمس البركات منك فحنانيك يافينوس!

حنانيك ياربة الحب، وجابرة القلوب الكسيرة، والنفوس الحائرة!

أنت، من غير ريب، تعلمين ما ألم بي من برح هذا الهوى الطارئ وما تام قلبي من حب هذه الدمية التي صنعتها باسمك ونذرتها لك، فدلهتني، وشدهت روحي المبلبلة، وصارت لي أعذب الأماني وأعز الآمال. وهي بعد رخامة لا روح فيها ولا نأمة، أكلمها فما ترد، وأناجيها فما تجيب، وأغني لها فما تبتسم!

أنت قديرة يا فينوس! فانفخي فيها من روحك، وانشري الحياة في أركانها، وامنحيها النبضات والأنفاس حنانيك يا فينوس! وسلام لك من قلوب العاشقين!"

وما كادت صلاته تنتهي، حتى انهمر الدمع من عينيه يروي قدمي التمثال المنتصب في المحراب. فانبعث الشرر عالياً من المحرقة، حتى أضاء قبة الهيكل، والتمع في جميع أرجائه، واقبل الكهنة والمصلون يباركون بجماليون ويهنئونه، لأن انبعاث الشرر هكذا، عقب الصلاة، هو في اعتقادهم دليل رضى الربة، وآية تلبيتها واستجابتها!!

ولكن مثالنا لم يشعر بقلبه يثلج، ولا بنفسه تهدأ، بل على العكس أحس كأنما الحياة تتدجى أكثر من قبل، ويحلو لك كل شيء في عينيه وشعر بعد ذلك بقنوط قاتل ينفذ إلى صميمه، فيطفئ فيه ما رجى من الآمال البيض، والأماني العذاب! فتعثر إلى الباب غير آبه لما حوله من الآس المنضود في أنحاء المعبد، والزهر المبثوث في صحنه الرحيب، وما برح بين وني وبطء حتى باب منزله، فولج متساقطاً على نفسه، وانبطح على أول سلاليم الدرج لا يحس ولا يعي!

* * *

وعفا إغفاءة مريضة، فبدأ له أن يحمل أرزية هائلة، يهوى بها على رؤوس الدمى، ويحطم بها التماثيل المنتشرة في ردهة الآلهة.. إلا تمثال فينوس الجديد، المرصع باللآلىء واليواقيت! ففزع فزعة مروعة، ونهض يعدو إلى الصالة، يتفقد التماثيل.. فما راعه إلا أن يسمع صوتاً رقيقاً يناديه:

"بجماليون... بجماليون... أرق إلى هنا... هلم إلي!!"

من؟ صوت من هذا؟ أنه صوت مرمري لا عهد لبجماليون به!"

وقفز قفزات كان بها في الطابق الثاني، ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب في المكان الذي غادره فيه... ".. أين؟ ويحي! لصوص!"

ولكن الصوت الرقيق الرنان عاد يطن... ويرن "لا، ولكنها فينوس!" والتفت بجماليون فرأى غادة هيفاء في طبق تمثاله ونسجه، متكئة على الأريكة التي طالما وضعها أمام التمثال وانشد عليها الأشعار؟!

"من أنت أيتها المعبودة؟"

"لست معبودة، ولكنني هبة فينوس لك! أنا جالاتيا تمثالك المكنون!"

وكيف؟ أنا لا اصدق. هذه خديعة لاشك!"

"وكيف تخدعك السماء يا بجماليون؟ أتريد أن تكفر بآلاء فينوس؟"

"لا.. لا.. لا أريد أن اكفر.. وحاشاي.. ولكن كيف حرت إنسية، ومن وهبك الحياة!"

"هذا سر فينوس. وهذه قبلاتك لا تزال مطبوعة على قدمي!"

"يا للسعادة!"

"انظر إلى هاتين الشفتين القرمزيتين، وهذين الخدين الموردين، وتينك العينين الزرقاوين. هل استطعت أن تموه تماثيلك بهذه الأصباغ الفينوسية؟"

"وانظر إلى الأنفاس الحارة التي تتردد في صدري، هل وسعك مرة أن تبعثها في إحدى دماك؟"

"حاشا. حاشا"

"إذن فهلم إلى أحدثك حديثي"

"فدنا منها بجماليون المشدوه"

– بجماليون! لقد استجابت فينوس لدعائك، وقبلت صلاتك، وحضرت إلى هنا إذ كنت أنت في الهيكل تبكي وتنتحب، فمنحتني الحياة، وعلمتني من العلم ما لم أكن أعلم.

– "ولكن كيف بحق فينوس عليك يا جالاتيا"

– "كنت منتصبة كما وضعتني على تلك القاعدة الناصعة، فأحسست حدقتي تتحركان، وإذا بي أرى فينوس الجميلة أمامي، تأمرني أن أدلف نحو ها، ففعلت، وكنت أحس كأن ثلجاً ينفذ من كياني، وأن حرارة تشيع في أركاني، وكانت فينوس تقول لي.. "تعالي.. تعالي، وكوني ربة هذا البيت، احميه واحرسيه، وانشري السعادة فيه! تعالي ألقنك دروس المحبة والحياة.."، ثم إنها نفثت في أذني نفثات تعلمت بها هذه الكلمات.

وأسبغت على هذا الثوب الحريري الذي لابد أنك قد رأيته علي تمثالها في الهيكل.. ليشهد لك أنها هي التي منحتني الحياة.. ومنحتك الحب!"

– "وماذا؟ وماذا يا حبيبتي جالاتيا؟"

– "ثم تقدمت إلى فنولتني قبلة مشتهاة لن أنسى ما حييت أسرها، ودعت لي ولك بالوفاق الأبدي، والإخلاص السرمدي، لنكون آية السماء في هذه الأرجاء! وابتسمت ابتسامة أرق من أطباق أوراق الورد، ولم أعد أراها.."

وأتمت جالاتيا حديثها، فاستقر بجماليون في أحضانها!

ثيذيوس يقتل المينطور

ويلخص أثينا – لعب يثير حرباً

كان الملك أيجوس، ملك أثينا، في شرخ صباه وعنفوان شبابه، زير نساء وأخا شهوات، وكان ذا نبرات تكاد تسعى به إلى حتفه.. بظلفه..

ذهب مرة يجوب ريف مملكته، فلمح وجهاً مشرقاً ينبثق من كوة كوخ في إحدى القرى، تتراقص حول ثغره الصغير بسمات هن رسل الحب، وتنطلق من عينيه النجلاوين نفثات تصرعن ذا اللب.. حتى لا حراك به..

وطرق الباب يستسقى، وما به ظمأ، فامتدت إليه ذراع عاجية لدنة تحمل كوباً من البلور، مفعماً برحيق الحب، وإن لم يحو غير الماء القراح!

وتناول الكوب ولبث لحظة يشرب ما فيه بعينيه، دون أن يمتد فمه إليه، ثم أرسل زفرة دفعت الباب فانفتح على مصراعيه، ودخل غير مستأذن فروى فمه وبرد قلبه، وبل جاحم الحب الذي زلزل أركانه.

ثم تزوجها، ومكث عندها شهراً كان عسلاً كله!

ووصل إلى قاعدة الملك، وأم القرى، أثينا، بعد أن ترك وصايته المكتوبة الآتية: "في الغرفة التي ضمتنا

لأول مرة نلتذ الحياة وننعم بطيب العيش، هنا، وفي هذا المنزل الصغير الذي اتسع الدنيا من الآمال والأحلام، وتحت الحجر الكبير الملون، حيث كانت قدماي تحييان في سكرة الهوى قدميك، قد استودعت على اللتين حملتاني إليك، وسيفي الذي فريت به رؤوس الأعداء حتى سعدت بك، فإذا وضعته غلاماً فسميه ثيذيوس، ونشئيه وطرئيه حتى يصلب عوده، ويشتد ساعده، فخذيه إلى الحجر فليرفعه، وليلبس نعلي وليمتشق سيفي، ثم ليمض إلى أثينا، لا حافظ له إلا قلبه، ولا حارس إلا سيفه فإذا شاءت العناية فإنه بحول زيوس العظيم ولي عهدي، وصاحب التاج من بعدي"

وتتابعت السنون

وكانت أثينا تزهى كل سنة بعيدها الرياضي الفخم، فتلبي حلة من البهجة والايناس، وتؤمها وفود الأقاليم المجاورة تتفرج بالألعاب الجميلة، وقد تشترك فيها.

وكان لمينوس ملك كريت[1]، ابن مفتول العضل قوي البنية حبيب الطلعة، كان يقدم إلى أثينا إبان عيدها الرياضي ليباري أبطالها، ثم يعود مشمولاً بحب الأثينيين وإعجابهم الشديد، ولقد كان يحدث ألا يكون للموسم بهجته المعتادة إذا تخلف ابن مينوس فلم يحضر إلى أثينا.

([1]) كريت أو كريد هي جزيرة اقريطش وقد آثرنا التسمية الأولى لسهولتها وذيوعها.

ومن غريب المصادفات أيضاً أن ينشأ ثيذيوس هذه النشأة الرياضية التي نشأها ابن مينوس، والتي كانت أمارتها تبهر الأثينيين وتخلب ألبابهم في موسمهم الرياضي.

ولم يكن الأثينيون يعلمون أن لملكهم ولداً، غن لم يبرز على أبن مينوس في الألعاب الرياضية، فإنه لا يقل عنه شأنا فيها. ولم يكن الملك نفسه يعلم عن ولده شيئاً، ولو قد علم عنه شيئاً لما سولت له نفسه الأثيمة أن يدبر غيلة ابن مينوس في حلك الليل، وفي طريقه المقفرة إلى المرفأ، حين آب بأكبر جوائز الموسم الرياضي في المصارعة والملاكمة والعدو ورمي القرص!

لقد أكلت الغيرة العمياء قلب الملك الجبان، وتلظى فؤاده بحقد أسود حجب بصيرته، فأرسل عصابة من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين، فذبحوا الشاب المسكين، ونبذوا جثته بالعراء، تنوشها الوحوش وسباع الطير!

واهتزت أثينا المضيافة، أثينا أم القرى، لهول الجريمة، ونقموا على القتلة الأشرار اعتداءهم الشنيع على ضيفهم المحبوب، وكادت تندلع ألسن الثورة حين استفاضت الإشاعات وراجت سوق الأقاويل، لولا أن وصل في صبيحة ليلة الجريمة، البطل الصغير ثيذيوس ولي العهد، فجأة، ومن غير سابق علم، ولا ترقب ولا انتظار!

"ثيذيوس! ومن يكون ثيذيوس هذا؟!

"ولي عهد المملكة ورجاؤها، ومعقد آمالها

"وأين كان الشاب؟ وابن من؟ ومتى ولد؟"

"كان ينشأ في الريف، وهو ابن حسناء من أميرات الأقاليم، وولد منذ عشرين سنة

"ولم لم تعلم به أثينا من قبل؟

"أراد الملك أن يفاجئ شعبه بهذا الخبر السار لولا اغتيال ابن مينوس؟!

"وهل هو حقاً أشجع من ابن مينوس؟

"ومن يكون ابن مينوس وألف بطل كابن مينوس إلى ولي عهدنا ثيذيوس؟

وهكذا راحت الجماهير يتحدث بعضها إلى بعض حديث ثيذيوس.

أما كيف وصل هذا الأمير الصغير، فإن أمه لما آنست فيه القوة واكتمال البنية، ولما رأت من تدفق ماء الشباب في وجناته، وسريان كهرباء الحياة في عضلاته، قادته إلى الحجرة التي لقيت فيها لأول مرة أباه، ثم ناولته الخطاب المكنون الذي يحمل وصاة الملك. وما قرأ الفتى ما جاء بالخطاب حتى تأكدت له الأماني العذاب التي كانت أمه تهتف له بها،

فتقدم إلى الصخرة فرفعها بأقل جهد، ثم حمل السيف فقبله، ووضعه هنيهة على رأسه، ثم على عينيه، ثم على قلبه، كأنه يطبع به خاتم المحبة الأبوية على أعز جوارحه!

وربط النعلين العزيزتين على قدميه، وانهال على خدي أمه ويديها يقبل هذين ويلثم هاتين، ثم ودعها، وتزود من نصائحها، وانطلق ميمماً شطر أثينا.

وكانت الطريق إلى العاصمة صعبة شائكة، محفوفة بالمكاره، ككل طريق تؤدي إلى جنة أو نعيم! فاللصوص وقطاع الطرق والسفاكون يأخذونها من كل حدب، والسباع الضواري تعج في جنباتها، والغيلان والأبالسة تهمهم في جميع منعطفاتها.. ولكن هذا كله لم يثن من عزم ثيذيوس، فلقد قتل كل من تعرض له من لصوص هذه البرية المرعبة، وفري رؤوس سباعها، حتى لقد فر الكثيرون أمامه يذيعون نبأ مقدمه في أثينا. فما وصل إليها حتى كان صيته قد سبقه إليها وشاع فيها. وما أن تقدم إلى أبيه الملك حتى عرفه ونزل من فوق العرش فعانقه وقبله، ثم عاد به فأجلسه بجانبه، وأرهف أذنيه يصغى إلى قصة حياته، ومجازفته في الطريق التي تكتنفها الأهوال إلى أثينا!

وأعلن السرور العام في المدينة، وطفقت النواقيس تدق في الهياكل، وأطلق سراح المجرمين من جميع السجون، وجعل الناس يتندرون بشجاعة

ولي العهد وقصته العجيبة، حتى لا نساهم ذلك هول المأساة الدامية التي روعتهم وزلزلت قلوبهم.

وانتظر مينوس أوبة ابنه، بيد أنه قلق لانقطاع أخباره، وساورته الظنون من أجله، وحسب أن ريح عاصفاً ثارت بمركبه في البحر الأيكاري[١] فأغرقته، لولا أن أحد التجار الكريديين عثر بجثة القتيل فاحتملها إلى الملك، الذي تصدع قلبه من الأسى!

ولا تسل عما أنتاب مينوس من الحزن، وما شمل كريد من الهم، حتى لم تبق فيها عين لم تذرف ماءها على ولي العهد.

واتصل بالملك ما كان من فعلة أيجوس ملك أثينا، فاستيقظ الناس صبيحة اليوم التالي على صيحة الحرب، تدوي في غبشة الفجر فتقض المضاجع، وترن في الأذان فتتجاوب لها حبات القلوب! وما تطلع الشمس حتى تكون البطاح مائجة بجنود كريد البواسل، هائجة بالمتحمسين من الشبان والشيب، هرعوا جميعا فدى للملك، ووريا لمجد الوطن، واثئارا لولي العهد!

وترامت الأخبار إلى أثينا، فاعتكرت أفراح البلاد، وسكن ضجيج الشعب، وسارع الجميع يستعدون للقاء العدو، فها هي ذي القلاع قد سهر عليها حراسها، والسبل منبثة فيها الجنود شاكي السلاح، والمرافئ

---

(١) نسبة إلى ايكاروس (اسطورة سابقة).

تعج بالسفائن الحربية، وكل رجل في المملكة اضطلع بنصيبه في الذود عن بيضة الوطن!

وأقلع مينوس بأسطوله اللجب، وعسكره المجر، وفرسانه العديدين، مزودين بميرة ليس كمثلها ميرة، وذخيرة يالها من ذخيرة.. ومخر الأسطول لا تحول بينه وبين مطمحه عقبة، ولا يقف من دونه محمق ولا مجنون.

ووصل الأسطول إلى أثينا، غادة هيلاس، وهدية الآلهة إلى فينوس، وعروس الأحلام الجميلة، فوجد الأسوار مخفورة، والبوابات مغلقة، والناس داخل المدينة مستعدين للدفاع عنها، فألقت الفلك مراسيها. واندفع الكرديون يحتلون السهل الواسع المحيط بالمدينة حتى ملأوه، وحتى لا ترى إلا خياماً تصل أقصى الشمال بأقصى الجنوب، وتربط أول الشرق بآخر الغرب.. جنود وضوضاء.. وصهيل ورغاء.. وعسكر كالجراد المنتشر لا تبلغ أوله عين، ولا يذهب إلى آخره خيال!

وصابر مينوس يحاصر المدينة أياماً طوالاً حتى الأقوات داخلها وأخذ أهلها يشكون الجوع والجهد، وزاد في شدتهم أن نضب الماء، فعم البلاء.

ولم يكن أمام الأثينيين إلا إحدى اثنتين: أما الموت داخل الأسوار صبراً، وهذا ما لن يكون، وأما الخروج للقاء المحاصرين ومناضلتهم، وذلك ما لا طاقة لهم به ولا قدرة لهم عليه.

أمران أحلاهما مر، وأخفهما فيه الويل، وعقباه الدمار والبوار، وأجمع بعض عقلائهم على أن يذهبوا إلى ملكهم يرجونه في أن يذهب إلى الهيكل فيقدم القرابين إلى الآلهة حتى تأتيهم نبوءة السماء ووحي أولمب بما ينبغي أن يكون.. ولكن الملك أبى واستكبر، ثم قبل بعد إلحاح أعيان القوم أن ينوب عنه في هذا الشأن أحدهم.

وقصد قائم مقام الملك إلى هيكل فينوس فتقرب بالضحايا وعقر القرابين، وقبل الأرض بين يدي تمثالها المنتصب فوق المذبح، ولبث غير قليل..

وخشعت الأبصار وسكتت القلوب، وعم المعبد وجوم عجيب.

ثم انبعث الصوت القدسي الضعيف من خلوة الكاهن يقول:

"ليفعل الأثينيون ما يأمرهم به مينوس ملك كريت.. الويل لهم أن حاربوا!!)..

وهلعت الأفئدة.. وطاشت الأحلام!!

وتلقاها الملك كما يتلقى الإنسان حكما عليه بالإعدام.. ولكن ما العمل؟ ولا حيلة لبني الموتى في دفع أحكام القضاء؟

وأرسل أيجوس إلى ملك كريد يعرض عليه الصلح، ويسأله عن شروطه.. فقال مينوس لرسل الملك: "قولوا لأيجوس، الآن عرفت كيف طعنت فؤاد مينوس تلك الطعنة النجلاء بقتل ابنه وولي عهده.

ولقد جئناك نطلب ثمن هذه الفعلة الشنعاء، ولن تكفينا أثينا كلها ثمناً لها! أما وقد ذللت، فحسبنا أن نرجع بسبعة من خير شبابكم وأجمل فتيانكم، وسبع من أبكار الأثينيات وأبهى حسانها، ليكون الجميع غذاء حلالاً للمينوطور، على أن ترسلوا كل عام في مثل هذا الزمن أربعة عشر آخرين من خيرة شباب أثينا وأكرمهم حسباً، فإن رضى الملك وسلم فدية هذا العام رحلنا عنكم إلى العام المقبل"

وسكت الملك وتحدرت من عينيه دموع غلاظ، وثار في قلبه هم قديم.

طلب مرعب ينم عن قسوة وغلظة! غير أن قتل ابن امينوس غيلة، في رحاب أثينا، وفي دجنة الليل، وبتدبير الملك، كل ذلك يبرر الغرامة الوحشية التي فرضها ملك كريت!

وكاد إيجوس يرفض هذا الهوان الذي طلب إليه أن يؤديه عن يد وهو صاغر، ولكن الشعب هاج هائجه وضج الرعاع يطلبون الخبز، أو تسليم المدينة أو.. دم الملك!!

فدل إيجوس المسكين وصغر، وقبل شروط مينوس مرغماً، واختير من شباب المدينة سبع كواعب أتراب، وسبعة فتيان في ريعان الصبى، وشيع هؤلاء وهؤلاء إلى الأسوار بين بكاء الأمهات وعويل الآباء وآلام المحبين!

وهرع الكريديون إلى خيامهم فاقتلعوها، والي شراعهم فنشروها، وأقلعوا في الصباح الباكر بعد أن ألقوا على كبرياء إيجوس هذا الدرس المهول!

* * *

ومضت سنون وأثينا العظيمة تؤدى الفدية عن يد وهي ضارعة، حتى ثارت كبرياء ثيذيوس وفارت نخوته، وتقدم إلى أبيه الملك الشيخ، حين دعا النفير العام لتقديم الفدية، يضرع إليه أن يكون هو الفداء الرابع عشر من شباب هذا العام: "على الأقل يا أبي يكون في هذا بعض العزاء للأثينيين، وليثقوا أننا لا نذلهم، وأننا منهم وهم منا، وأننا آخر الأمر، نشرب بالكأس يشربون!"

وصعق الوالد حين تقدم إليه ولي عهدة بهذا الطلب في فيقول للملك: "إذن فأنا أحطم كأس الحياة التي أنعمت مذلة وهواناً، وسأريق مع سمها الأسود هذا الدم الأرجواني الذي لا أستحقه، ولا أشرف به.. أبتاه! لن تتحرك السفينة الحزينة حاملة ضحايا قسوتنا واستبدادنا حتى أحييها بحياتي، وأرويها بدمي، ليكون قرباناً لمن عليها من عشيرتي ولداتي.."

وقبل أن يفصل البطل الشاب، ناداه والده باكياً، ونهض فباركه، وقبل، والهم يمزق أحشاءه، أن يكون بين الضحايا..

* * *

وفي الحق أن ثيذيوس لم يكن يعرض نفسه للتهلكة، ولكنه كان واثقاً من شجاعته، مؤمناً بما وهبته الآلهة من جلد وبأس، وقلب لا يفله إلا الحديد، لأنه من حديد. ولقد صمم أن ينازل هذا المينوطور الخبيث، فأما قتله وعاد مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ليعيش في وطنه منقذاً لأثينا، وأما قضى القضاء أمره فيه، وليس هو بأعز ممن راحوا ضحية هذا الوحش المخيف!

وقال لأبيه وهو يودعه، حينما ركب المركب السوداء التي يرفرف عليها علم الموت "أبي! لا تبك! أنك ملك، ودموع الملوك لا تذرف إلا في سبيل الوطن! أنني ذاهب إلى معركة أرجو أن يكتب لي النصر فيها! لقد فزت على عشرات من أمثال هذا الوحش ولما أكن بعد إلا طفلاً.. ادع لي أن أفوز به، فأريح أثينا العزيزة من شره"

* * *

وأقلعت السفينة تحمل هذه الفلذات الغالية من أبناء البلاد، ومخرت في بحر تلاطمت أمواجه، وزخرت أثباجه، وطم أذية[1]، وانتفخت أوداجه،

([1]) الأذى: الموج.

حتى وصلت إلى كنسوس حاضرة كريت. وهرع الناس من كل فج يستقبلون ضحايا المينوطور، وفي وجه كل منهم عبوسة حزن، وملء قلوبهم ثورات مكبوتة من الأسى، على هذا الشاب الناضر الذي قبل إلى الموت من قرار بعيد!

وكانت في الجماهير فتاة غضة الأهاب، بضة الشباب، حلوة ناعمة، نهضت في مركبتها لمشاهدة الضحايا، الأثينيين، فما كادت عينها تصيب نظرة من ثيذيوس، حتى أحست في أعماقها بنفحة السماء التي تسبق لفحة الحب!!

وترى من يكون هذا الشاب الأنيق والفتى الرقيق؟

"انه يقبل في غير وجل، ويقتحم الجماهير في غير هيبة! أعبر بحار الموت قبل هذا؟

"لا شك يا فتاة أنه أمير إن لم يكن ابن ملك!

"أن الحمرة التي تطير من الورد إذا قطف، ما تفارق خديه، وهو مقدم على الردى!!

"أن صفرة الموت تستحي أن تموه هذه الوجنات!؟..

"أمن السماء هذه الزرقة التي تملأ عينيه؟..

"بل مثله لم يخلق إلا ليكون زهرة هذه الحياة الدنيا...

"أيها الشاب... لن تموت!

وهكذا جعلت تتحدث تلك الغادة... الأميرة الجميلة بنت مينوس..!

وكأنما قرأت وصيفتها الأمينة ما دهى سيدتها من حب الفتى في كتاب عينيها، فقالت: "أتحس سيدتي بتعب؟"..

"لا يا فتاة... ولكن انظري إلى هذا الفتى المتفتح كالزهرة!

"والله يا سيدتي إنه جدير بعطفك، خليق برحمتك...

"وما العمل يا فتاة وليس لنا في إنقاذه يدان!

" هوني عليك يا مولاتي! انه وأيم الله من سلالة الملوك! إن لم يكن ابن مليك! وهو بادي الشجاعة ظاهر الفتوة! وان له لسيفاً طويل النجاد ما حمل أحد مثله، ولم أعهد قط أن من ضحايا المينوطور من جاء بذى غرارين من شنه.. فلم لا ندبر معه قتل المينوطور!؟.."

"قتل المينوطور؟ أنك تهرفين! ومن يجسر أن يدخل والمينوطور في معترك؟

"لا عليك؟ نرشو السجان فيفلت الشاب في ظلام الليل، ونهديه إلى باب اللأبيرنث[1] فينطلق إلى الوحش ألغاظ في نومه العميق، فيجذ رأسه بهذا الجراز الذي ترين!"

"يا له من تدبير! ولكن كيف يعود الشباب وأنت تعرفين من منعرجات اللأبيرنث وشعابه ما تعرفين؟.."

---

(1) اللأبيرنث هو التيه الذي بناه ديدالوس للمينوطور وقد حدثناك عنه في أسطورة سابقة.

"لا أسهل من هذا أيضاً! خيط طويل من أمراس الكتان يمسك هو بطرفه الأول، ونمسك نحن بطرفه الآخر، يهديه في ذهابه ويرشده في إيابه!!"

* * *

وطربت بنت مينوس لتدبير وصيفتها، فمنحتها قبلة شهية وخلعت عليها جائزة سنية... وانطلقتا تترقبان المساء..

وعرف ثيذيوس أنها ابنة الملك فاستطير من الفرح، وعرفت أنه ابن الجوس، فكبر رجاؤها وتلالات آمالها...

وقتل المينوطور، وفك أسار رفاقه ورفيقاته، وأقلعت بهم الفلك، حاملة جوهرة جديدة غالية: هي ابنة مينوس... وربيبة كريد

أما الملك!

فقد صبر! وأرضاه أن يحرض إيجوس فيعتذر له ويصالحه!...

وهكذا حسم الحب هذا الخصام الطويل

بندورا

وسرقة النار المقدسة

توزع الآلهة تعمير الكون، فكانت الأرض من نصيب بروميثيوس بن يابيتوس، أحد ذراري التيتان العمالقة الذين حبسهم أبوهم خشية جبروتهم ومخافة بأسهم..

وطفق بروميثيوس يفكر، حتى بدا له أن يجعل في الأرض أناس يخلقهم على صور الآلهة، فاستعان أخاه أبيمثيوس فهداه إلى الحمأ المسنون أو الطينة البشرية. فخلقا منها الإنسان الأول، وذهبا إلى إيروس[1] فنفخ فيه من روحه، التي هي الحياة، وقصدا إلى مينرفا فنفثت فيه نفثتين، هما النفس والعقل.

وخلق بروميثيوس رجالاً كثيرين على هيئة آدم الأول، وجلس على أكمة عالية يشرف على عباده الصالحين!! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع في أعطافه، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه، ويسجدون له، حتى فكر في نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم!

"النار! النار المقدسة تنفعهم وتلين لهم حديد الحياة! ومع أن بروميثيوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم، ومع أنه يعلم أنها محرمة على

---

(1) هو كيوبيد إله الحب.

غير الآلهة، وأن كل من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الآله الأكبر ونكاله، فقد ذهب إلى الأوليمب وتغفل زيوس، ودس قبساً من النار في تضاعيف ثيابه، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين، يقدم إليهم هديته التي سرقها من أجواز السماء!

ونظر زيوس من علياء الأولمب، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك في أديم الأرض، ففطن إلى السرقة المنكرة، وأنقذفت من فمه المزبد رعود الغضب!

وارتجف الأولمب، وزلزلت السماء، وارتعدت فرائص الآلهة، وأمر الإله الأكبر فأحضر بروميثيوس مكبلاً بالأصفاد، ملطخاً بالوحل، وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه، ثم حكم عليه فسيق إلى جبال القوقاز، حيث غل عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان، وفخذاه اللتان تزريان بفخذي فيل، في قنة عالية، وسخر الإله الأكبر رخا عظيم الجثة، حاد الأظافر، كبير المنسر، فذهب إلى حيث بروميثيوس، ينوشه، ويمزق جسمه، وينفذ أظافره ومنسره في أحشائه حتى تبلغ الكبد، فيهرأه ويطعمه حتى يأتي عليه، وينصرف إلى غد.

فإذا كان الليل، وهبت الريح سجسجاً، التأمت جراحات الإله المسكين، ونما له كبد آخر، وينام حتى تشرق الشمس، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس، وليأخذ في تعذيب بروميثيوس التعس، إلى أن تغيب ذكاء!! وهكذا دواليك، أحقاباً وأحقاباً...

ويلبث الإله المنكود في هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل الجبار في أحد أسفاره، فتثور الشفقة في قلبه، وينقض كالصاعقة على الرخ، فلا يتركه حتى تزهق روحه، بعد صراع عظيم، ثم يفك أغلال بروميثيوس ويحرسه، حتى يقبل الليل فيشفى مما به، ويسير بين يديه حتى يبلغ أوطانه، حيث عباده الصالحون!!

وفرح الناس بالههم وسروا بلقائه، وقدروا ما لقي في سبيلهم ومن أجل سعادتهم، فعنوا له وأخبروا..

وكانوا يحيون في بلهنية، غارقين في طراوة من العيش وسعة من الرزق، هواؤهم رخاء وماؤهم صفاء، لا يشكون متربة ولا يعرفون ضنكاً، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجس. ولم يعرفوا الموت، ولم يدروا ما البكاء، فكأنما كانت حياتهم طوبى، ونعيماً مقيماً

وعلم زيوس ما كان من أمر بروميثيوس وفرح الناس بأوبته إليهم، فغيظ غيظاً شديداً، وآلى ليكيدن أهم كيداً، وليرسلن عليهم من مكره ما لا طاقة لهم به...

ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صور الآلهة، ولكنهم كلهم ذكران، "ومن الآلهة أنثيات، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم ونسلهم إن صح أن يكون لهم نسل؟..."

وأرسل دعوة عامة إلى جميع الآلهة فسعوا إليه من كل فج عميق، وأخذ يحدثهم حديث بروميثيوس، ثم أخبرهم أنه يريد أن يخلقوا له أنثى جميلة يودع فيها كل منهم سراً من أسراره: "لأنني سأرسلها هدية إلى هذا المجنون بروميثيوس ليشهد بعينيه ماذا تصنع بعباده الذين خلق..."

واقترح الإله أن يفرغ هيفستوس[1] إله النار والفن وابن زيوس، إلى ابتداع هذه الأنثى، فسواها من نفس الحمأ الذي خلق منه الإنسان، وجاءت آية من آيات الحسن، رقيقة كأنها صورت لتكون فتنة الأولمب.

واحتملها إلى زيوس، وأقبل الآلهة ينفثون فيها أسرارهم، ويستودعون نفحاتهم، فهذه فينوس تهبها من جمالها، وحيراً من ثرثرتها، ومينرفا من حكمتها، ولا تونا من استيحاشها، وديانا من رشاقتها، وكيوبيد من حبه، وأبوللو من شعره وموسيقاه..

أما هرمز الخبيث، فقد انتظر واستأنى حتى فرغ الآلهة من إسباغ آلائهم، ثم تقدم، وملء وجهه ضحكة ساخرة فأودع الحواء[2] قلب كلب، ونفس لص، وعقل ثعلب!!...

ثم نفخ فيها زيوس من روحه، فدبت الحياة في أعطافها، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين، مأخوذين بسحر جمالها، فولت مدبرة ولكن إلى غير مهرب.

---

(1) هو فلكان الروماني.

(2) الحواء. الأنثى الأولى.

وشرع الآلهة يتخيرون لها الأسماء، ثم سماها ربها "بندورا." وأومأ إلى هرمز فاحتملها كالطفلة المدللة، وذهب بها، هدية غالية من السماء إلى التعس بروميثيوس الذي رفضها غير شاكر وأباها غير حميد!

وكان لديه أخوه أبيمثيوس فكادت نفسيه تذهب شعاعاً حين أبصر هذه العادة الهيفاء، يرفضها أخوه هدية من السماء! وتقدم هو فضرع إلى هرمز أن ينزل له عنها، وأن يغفر لأخيه حماقته، وقلة بصره، وكفرانه الذي لا كفران بعده!

ومع ذاك فقه نصح بروميثيوس لأخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة، وأن يرفضها، غير مشكورة، كما رفضها:

– "إنها فتنة يا أخي، بل هي خدعة من خدع السماء حرى بنا ألا تنطلي علينا!"

– خدعة؟! خدعة ماذا يا أخي، خذ عيني فأبصر بهما، وقلبي فضحه على مذبح هواها.. ألا ترى إلى عينيها النجلاوين، وشفتيها القرمزيتين، وثدييها الناهدين، وفخذيها المملوءتين، وساقيها الجميلتين؟..

– "بل بحسبي عيناي يا أخي! إني أستشف بهما فتوناً نفثته الآلهة في كل جوارحها، فحذار! أنها ستكون خراب هؤلاء المساكين الذين صنعتهم يداي!"

– "حسبك يا أخي وحسبي! هي لي من دونك، فتول عنا أو دع!"

وعاشت بندورا مع ابيمثيوس كما يعيش الآلهة في الفردوس.. حياة كلها مرح، وأياماً جميعها لذة وإيناس، يخلو إليها فتمتزج روحاهما وتختلط نفساهما، وتكون هي فتنة زوجها المسكين، تأسر لبه بموسيقاها الحنون: وتسحره بالزرقة العائمة في عينيها، وتبهره بكلماتها الغوالي في الحكمة والموعظة الحسنة!!

وتركهما زيوس حيناً من الدهر ينهلان خمر الحياة، ويعبان من عسلها المصفى، ثم دعا إليه هرمز، فحمله صندوقاً ثميناً، وأنفذه به إليهما... "وإياك أن تعبث به في الطريق، فإنه هديتي إلى بندورا، وفيه انتقامي من عباد بروميثيوس، فسر به إلى الفتاة، وأوصها به خيراً.."

وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الأخضر أمام قصرهما المنيف حين أقبل هرمز بالصندوق، يتعاثر في مشيته، وقد بدت عليه وعثاء السفر، وعلق الثرى بأسماله البالية، فلفتت بندورا نظر زوجها إليه، وذهبا سوياً للقائه والاحتفاء به، ولكن هرمز أبى إلا أن يذهب إلى القصر، ليسلم الهدية، وليبلغ رسالة السماء.. فسار الجميع حتى كانوا في المخدع الوثير، وجلس هرمز يستريح قليلاً، ثم قال:

"هاك يا بندورا العزيزة هدية الإله الكريم إليك، خصك بها من دون براياه أجمعين. وأحسبك في غنى عن أن أصفها لك، فها هي ذي أمامك تتكلم عن نفسها. ولكن الإله الأكبر يشترط ألا تفتحيها إلا بإذنه، فلا تتعجلي، حتى يأتيك أمره. وأنه لقريب"

ونهض هرمز، وسلم وانصرف، ولا تزال بوجهه تلك الضحكة الساخرة التي كانت عليه، يوم استودع بندورا قلب الكلب، ونفس اللص، وعقل الثعلب...

وكان ابيمثيوس قد قدم إليه من ثمر حديقته الشيء الكثير، ولكنه لم يمد يده إليه...

* * *

وكان الليل قد قارب أن ينتصف، وكان الكرى قد لعب بطرفها الوسنان، فاستلقت على أريكتها الحريرية وغرقت في سبات عميق، ممتلئ بأحلى الرؤى، وأطيب الأحلام...

وخيل إليها أن في الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها، وتنسج الأماني العذاب لها، وأن دنيا بأكملها تتفتح وتزهر حولها، فلما نهضت من نومها في بكرة اليوم التالي، أحست أن أملاً كبيراً يملأ قلبها، وان رغبة ملحة تسوقها إلى الصندوق كلما ابتعدت عنه، وحدثت زوجها بما تجد، فعللها هو الآخر بالآمال وأخذ يهدئ من روعها الذي بدا اضطرابه بأجلى مظاهره... ودعاها إلى نزهة خلوية فأقسمت لا تغادر البيت، بل لا تغادر الغرفة التي تضم الصندوق الصغير، "الذي أحس أنه مغلق على قلبي ونفسي جميعاً..!" فرثى لها، وانطلق هو، لأول مرة منذ عرفها وحده، ينادم إخوانه الآلهة ويلاعبهم، وبندورا وحدها في مخدعها، تقلب الصندوق العجيب، وتتحدث إليه، كأنه يسمع ويرى.

وغبرت أيام وهي في حال من الهم لم تعهدها من قبل وكانت تجلس وحدها حزينة كاسفة، تنتظر بشير الآلهة الذي يأذن لها بفتح الصندوق. ولكن هيهات... لقد طال ما انتظرت حتى نفد صبرها وعيل، ونهضت إلى الصندوق تقلبه، وهي مأخوذة بجمال صنعه ودقة زخرفته، وهذا الغطاء المزركش الذي انغلق على آمالها وأحلامها..

وحاولت أن تفتحه، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهة وأرباب، ولكنها فشلت غير مرة، وضاقت بها الدنيا بما رحبت، فدفعت بالصندوق دفعة قوية على أديم الغرفة، فانصدع.. ولما تناولته ثانية هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت، ثم هالها أكثر أن تسمع هذه الأصوات، منطلقة من الداخل:

"بندورا! بندورا! بندورا العزيزة! حنانك! خلصينا من هذا السجن السحيق! أننا نتعذب هنا... أنقذينا يا بندورا فقد ضقنا بما نحن فيه... أننا لم نصنع شيئاً حتى نرسف في هذا الحيز الضيق.."

"ماذا؟...

ما الذي يتحدث هكذا في هذا الصندوق...؟

أنها أصوات حزينة مكلومة، وإني لابد منقذتها!

ماذا انتظر؟ أمر السماء! هذا لا يهم!

انفتح أيها الغطاء..."

وضغطت الصندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء، وسرعان ما انطلقت خفافيش سود ذوات مخالب حادة فملأت هواء الغرفة، وأهوت على بندورا المسكينة تعضها وتجرح بدنها الغرض، وكلما وخزها خفاش لعين، انطلق قائلا: "أنا المرض!"، ويقول آخر: "أنا الفقر"، ويقول ثالث: "أنا الجوع!". ويصيح رابع: "أن البخل!". وخامس: "أنا القحط" وسادس: "أنا النقاق!". وسابع.. وثامن.. إلى آخر الرذائل التي تكظ الحياة إلى يومنا هذا؟!..

وانطلقت الخفافيش من الغرفة إلى القصر، فجرحت الخدم والخول،ثم انطلقت إلى الحديقة... وإلى الطريق حيث كان أبيمثيوس وأقرانه الآلهة، فأوسعتهم عضاً وقضماً وتجريحاً. وتركتهم يترنحون من الألم، وذهبت تفسد في الأرض، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد بروميثيوس المخلصين، فكثرت الآلام، وعم الفقر، وامتلأت الأرض رذائل وأشجانا!!...

وكانت بندورا قد أسرعت إلى الصندوق فأغلقته، حين رأت من أمر هذه الخفافيش ما رأت ولكن: وا أسفاه!!

إنها حين أغلقت الصندوق، حبست فيه الروح الطيب الوحيد، الذي خبأه فيه زيوس... ألا وهو: "ررح الأمل!"

وانبطحت بندورا على أرض الغرفة تئن وتتوجع وتشكو البرح الذي ألم بها، حتى أقبل أبيمثيوس فأنبطح إلى جانبها يشكو شكاتها، ويألم لآلامها...

ولبثنا يبكيان..

وكلما حدثته بندورا حديث الصندوق، تسخط الإله التعس وتبرم، وحدجها بنظرة فاترة، قائلاً "نصحتك فتم تصيخي...!"

وسمعا صوتاً ضعيفاً في الصندوق يقول: "بندورا! بندورا! لماذا حبستني وحدي، وأنا روح الخير... افتحي... أفتحي.. إني سأشفيك من جراحك، وآسو آلامك وأوجاعك.. افتحي..."

ولكن بندورا كانت في شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب، ولكن أبيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه، فانطلق فراش أبيض جميل، هو روح الأمل، ما فتئ يرف بكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعاً، ثم شفى جراح الزوجة كذلك، وانطلق العباد بروميثيوس يشفيهم ويأسو جراحهم، وما فتئ إلى اليوم، هذا الفراش الأبيض الجميل، روح الأمل، يشفي أوجاع المحزونين والمكلومين.

بورك الفراش الأبيض!

ولا بوركت خفافيشك السوداء يا بندورا!

هيروولياندر

المأساة الغرامية المؤلمة

أرسلوها إلى الدير، طفلة بريئة النفس، طاهرة القلب، بسامة الثغر، وضاحة الجبين، كلما وضعت أبهاما في فمها تمصه، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودعتها.

ونذروها لفينوس، فكانت ربة الحب تنسرق في القمراء الصافية لترعى طفلتها، ولتنفث فيها من رقي السحر ما تعدها به لمستقبل غرامي مليء. وكان الكهنة يتفرسون في شفتي هذه الوديعة الصغيرة الغاز لا يدركون لها كنها، وأسراراً لا يفقهون لها معنى، إلا كنه الصباب الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة، وإلا معنى القبل، الناضجة يختلسونها كلما افترتا عن ابتسامة، أو انفرجتا لدغدغة أو تخميش[1]

وشبت هيرو..

وتفتح الورد في خديها الناعمين، واستيقظ النرجس في عينيها الناعستين، وضحكت فينوس في شفتيها الحمراوين، ونبت الخمل الحريري يطرئ صباها الغض، وشبابها الفينان!

---

(1) هما: "الزغزغة"

ورسمت راهبة لفينوس في سيستوس، المدينة الخالدة التي تربض على شاطئ الهلسبنت[1] الأوربي، قبالة أبيدوس، مدينة الأحلام على الشاطئ الأسيوي.

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدي الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب، في برج مشيد مشرف على البحر في قصر أبيها، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها في المدينة الكبيرة، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الأهلين كما يتحدث الشذى عن ورده، والأرج عن رنده، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم، وهتاف كل لسان.

وسمع لياندر، فتى أبيدوس وأشجع شبابها، والذائد عنها في كل حومة، بهيرو الراهبة، فعجب أن تكون حقيقة كما يصفها الناس،، وحسب أن المبالغة هي التي نفحت في شهرة هيرو، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها، وصرف ذهنه الشاب الفتى عن هذه الطوبى التي سلبت الباب الفتيان، وغدت حلماً ذهبياً لكل مدله ولهان.

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ في نسيانها أو تناسيها، وإذا صح أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، فلقد كانت أذن لياندر عاشقة وامقة، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة[2]، وما برح يعرض عنها أولاً يصغى لها، حتى أعلن في سيستوس عن حفل ضخم يقام

([1]) الهلسبنت هو بوغاز الدردنيل المعروف.

([2]) المحبة.

في هيكلها تكريماً لفينوس وتقديساً، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة في الاحتفال برية الجمال والحب، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب.

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطئ الأسيوي في أبيدوس وحتى سمع به لياندر، فابتسم، وشعر في سويدائه بأول قبس من نار الحب، فألهب إحساسه وأشعل قلبه، وملأ أضالعه شوقاً إلى هيرو وتحناناً

واعتزم المشاركة في الاحتفال، لا تقديساً لفينوس ولكن لينظر إلى الراهبة الحبيبة التي ملأت خياله، وأصبحت مثله الأعلى الذي ينجذب دائماً إليه، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة، خاضعاً للسحر المنطوي العميق..

وإذ كان اليوم المنشود، ارتدى الفتى أبهى ملابسه، وانطلق يحدث نفسه أماني الحب، ويتغنى أغرودة الجمال وظل يحلم في طريقه إلى سيستوس بهذا الأمل اللماح، الذي يشبه في تحجبه في ثنايا المستقبل قمر ليلة مكفهرة قمطرير، ما يفتأ يتخايل في تضاعيف السحب!

وعبر الهلسبنت في زورق ابيض جميل، مخرماً بين العدوتين في ساعة كانت في فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقاب وأحقاب!

وقصد إلى الهيكل، وطفق يدافع الجماعات، ويزاحم الجماهير، حتى كان بين يدي هيرو.

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمي الراهبة الصغيرة التي استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين، مشرقة مونقة، كأنها زنبقة، ملتفعة بردها الحريري الأبيض، متكئة بذراعها اللدنة الجميلة على سنادة المنصة، مقلبة عينيها الدعجاوين في الجماهير المتكبكبة حولها تلتمس البركات...

وكانت فينوس قد أقبلت من مملكة الأولمب تشهد المهرجان الحاشد، وتشبع خيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها، المترنم بعبادتها، وكان معها أبناؤها الغر الميامين، وفيهم كيوبيد وهرمونيا، فاختبأوا في أبراج الهيكل، ولبثوا ينظرون إلى الملأ ويعجبون.

وأرسلت فينوس عينها الفاحصة في الملأ، فرأت لياندر العاشق يرنو إلى هيرو الراهبة، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاماً، ولاحظت أن هيرو منصرفة عن الفتى المسكين، لا تكاد تعيره نظرة، ولا تمنحه التفاتة، وهو مع ذالك مشرئب إليها، ينظر نظرات كلها عبادة، وعيناه مغرورقتان بدموع تكاد تنهمر.

وتحرك حنان الحب في فؤاد ربة الحب، وأقسمت التعاون في هذا المشروع الغرامي العظيم!!

وذلك أن فينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط، بل كان يثلجها ويملؤها غبطة أن ترى إلى عبرات المحبين، وتسمع إلى رنين القبل في شفاه

العاشقين، فأشارت إلى ولدها كيوبيد – رب الحب، وصاحب السهام الذهبية، والقوس ذات الوتر العرد – فأقبل عندها، وألقت إليه أوامرها..

فوتر[١] كيوبيد قوسه، وتخير واحداً من سهامه، وانتهز فرصة من هيرو كان نظرها متجهاً فيها إلى لياندر، وأرسل إلى قلبها السهم الذي يحمل رسالة الحب، فدخله غير مستأذن، وملأه لوعة وصبابة.. وجنت للحظتها بالفتى..

وتخير كيوبيد سهما آخر، وأرسله هدية حارة، دامية، إلى فؤاد لياندر. فما كاد يستقر فيه، حتى أحس الفتى أنه لم يعد واحداً من هذه الأجسام الفانية الهالكة بعد، بل هو قد صار طيفاً نورانياً، وأحس مع ذاك بحب غامر لم يكن له به عهد من قبل، جعله يفنى فناءً تاماً في هيرو الراهبة، التي نظر فألقاها تلتهمه هي الأخرى بعينيها وقلبها التهاماً!

الله يا حب ما أجملك، وما أبر فينوس بعبادك!

ودلف لياندر نحو المنصة، وتمتم بكلمات خافتة، (كأنما هي بث الورد للمطر!) يفهمها المحبون وحدهم، حين يتكلمون بأطراف الشفاه والعيون، فعلمت هيرو أن حبيبها يقرئها حبه، ويسرها هيامه، ويرجو منها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدة، ويعبدها خلاله على انفراد!..

---

(١) أي ركب بها وترها.

وارتبكت هيرو، وتصارع في نفسها الخوف والحب، الخوف من أن يلحظ أحد أن راهبة فينوس تصبو، وبذلك يهوى احترامهما إلى حضيض السخرية، حينما يفتضح الحب الذي تكتمه في صميمها للياندر، والذي أثاره فيها سهم كيوبيد، ولم تر إلا أن تنهر العاشق الملح لينصرف، ولكنه ما يزداد إلا تعلقاً بها، وتشبثا بما طلب إليها، ورجاها فيه، وتكون هيرو قد بلغت حالة بين الهيام والإشفاق لا تحتمل، فتهمس إليه أن ينتظر حتى ينصرف الناس، فإذا انصرفوا، خلت إليه، وحدثته حديثاً موشى بالورد مبللاً بدموع الحب، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى. وتذكر له أن اتصالهما سيظل حباً في حب، وبكاء في بكاء، ولوعة في أثر لوعة، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة: "لأني راهبة كما تعلم، وأنا خادمة هذا الهيكل الفينوسي المقدس، وسأظل عذراء أبد الدهر، فلن ينتهي حبنا إلى هذا الزواج الذي أوثره وأتشهاه. فإذا كان الغسق يا حبيبي، وتألق النجم في كبد السماء يردد أناتنا، فاقصد إلى شاطئ البحر عند أبيدوس، واخلع ملابسك: ثم خض عباب الهلسبنت حين أعطيك إشارة من مصباحي، حيث أكون في برج قصرنا المشرف على البحر عند أقصى حدود سيستوس. فإذا وصلت، وستصل سالماً في رعاية فينوس، فهلم إلي في البرج نلتذ آلام الحب، ونتغن أشجان الهوى، واضعة رأسي على صدرك. أو واضعاً رأسك على صدري، شاكيين إلى الآلهة ما بنا من برج، حتى يطلع الفجر فنفترق، وتعود أدراجك إلى الشاطئ الأسيوي سابحاً، فإذا كان غد، عدت لأفني فيك وأغمرك بالقبل ولا قرأ في نفسك، وتقرأ في نفسي، كتاب الحب وأي الطهر.. وبوركت فينوس!".

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر في صلتها الغرامية بلياندر، لآن شطئان الهلسبنت كانت حراماً على السفائن والزوارق وسائر الجواري، بعد ساعة من غروب الشمس، فلو قد ركب زورقاً وعبر به البوغاز، لعرض نفسه لإخطار جسام، من بينها عقوبة الإعدام دون محاكمة! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو..

"معبودتي! سأخوض العباب في سبيلك"

"وأطوي بحار الجحيم لو أنها تحجزني عنك"

"فلا الموج جياشاً باللهب، ولا الأعماق تقذف بالحمم"

"ولا الفزع الأكبر في الأرض أو في السماء، لا هذا ولا"

"ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتي![1]"

* * *

فلما كان غد، وتوارت الشمس بالحجاب، وأقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه، يمم لياندر شطر البحر، ووقف فوق رمال الشاطئ كأنه يمدها، ولبث يرقب البرج على العدوة الأخرى، وفي قلبه أمل مضطرب، وفي نفسه قلق مستمر، وملء يديه مني تملأ العالم بأسره!

([1]) من أدوين أرنولد

وظل يذرع الشاطئ جيئة وذهوباً، وهو حين يروح أو حين ينثني، يحملق في البرج المشيد لا تريم عيناه عنه، وكانت الرياح تدمدم في جنبات الإكام الممتدة على الساحلين والموج يزخر في غيران طوروس الشامخة، والبحر يقذف سراطينه على الكثبان البعيدة النائية، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء في خضم السماء..

وفجأة لمح لياندر بصيص النور في كوى البرج الشاهق، فانفلت من ثيابه كأن الشعاعة تجذبه، ولم يعنه أن يمزق هذا الكم، ويشق ذاك الجيب، ولم يبال أن يقذف بالقميص هنا وبالبرد هناك، ثم ينقذف في الماء ويأخذ في سباحته، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر بحرين، ويهوي في أعماق القرار يؤانس التربتون ويجالس الاوسيانيد(١)!!

وكانت فينوس تنظر من علياء ألاولمب وتلهو..

ما برح يصارع البحر والبحر يصرعه، وما يرح يتقدم إلى أمام ويسحبه التيار إلى وراء، وكلما خانته قواه نظر إلى البرج يتزود من بدره قوة، ومن القبل الحارة التي تنتظره ثمة دفئاً ونشاطاً مجدداً!

وبلغ الشاطئ..

---

(١) التريتون: فتيان البحر، والاوسيانيد: مرائي المحيطات

ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب، والمنية المرتجاة، فهرعت أليه واستقرت في حضنه، ولبثت تتسمع إلى دقات قلبه الواجف الذي يخفق – لأول مرة – بموسيقى الحب!!

"وامتد فم الفراشة المرتجف، يرشف رحيق القبلة الأولى من الثغر الحبيب الذي تفتحت عنه جلنارة الحب[1]"

وتمزقت السحب، وتكشفت السماء، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان، ويأخذان في لذة الهوى الطاهر ونعيم الحب البريء!!

وكانت فينوس تنظر من علياء الاولمب وتلهو...

ونسمت في الأفق الشرقي أنفاس الفجر، فنهض الحبيبان يودع أحدهما الأخر، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات!

وفصل لياندر، وأطلت هيرو من الكوة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه، ويلبس الزبد والزبد يلبسه ويخلعه...

وفينوس تنظر وتلهو..

* * *

([1]) من لورد بيرون، والجلنار: زهر الرمان الأحمر

وأشرقت الشمس وتوارت، وأقبل الليل وتنفس الفجر، وعصفت الريح أو هبت رخاء، والتمعت الشعلة تضئ للعشاق ظلمات العباب... واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الأرض، فكان يطويه إلى منية نفسه وهوية قلبه، في كل موعد منتظر، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء، وكأنه يمتطي من ظهور الموج الصافنات الجياد..

وكأن فجراً شاتياً يكاد سناً برقه يخطف الأبصار، وزمزمة رعوده تهد جوانب الأفق، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها، وتعلقت به، وراحت تغمره بالقبل، متوسلة ضارعة، ترجوه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته في هذا اليم المصطخب، وهي تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم، حتى تسكن العاصفة، وينام الماء...

وثارت النخوة في نفس لياندر، وشاعت الكبرياء في جسمه القوي المفتول، وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبى، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة في يديه الجبارتين، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها، ثم أنفتل من بين ذراعيها الضعيفتين، وهرع إلى البحر فخوض فيه، ملفتاً بين برهة وأخرى، محيي البدر الصغير المشرق عليه من الشاطئ..

وفينوس البارة تنظر من الاولمب وتلهو...

وأحس في منتصف الطريق برعشة وإعياء، ولكنه كان يهتف باسم هيرو مرة، وباسم فينوس أخرى، فتنشط الثملات القليلة الباقية من قوته الفنية... ورثت لحاله ربة الحب، فنفخت في ذراعيه المجهدتين، حتى وصل إلى شاطئ أبيدوس مهدوداً محطماً... وتهالك على نفسه، فوصل إلى منزله، وأوى إلى فراشه، ليحلم بالموت المحقق الذي نجا منه منذ ساعة...

* * *

وغابت الشمس، ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفوانا، والبرق ما فتئ يطوى السماء، وكان كل شيء ينذر لياندر بسوء المنقلب ومع ذاك فقد نهض غير مستيئس وقصد إلى الهلسبنت، فوقف بشاطئه يبتسم للأهوال التي يضطرب بها بطنه، ثم لمح الضوء ينبعث من كوى الكوخ.. فخلع ملابسه، وبدأ رحلته...

وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو..

لأنها كانت عند حبيبها أدونيس الراعي الجميل تستمتع به، بعد إذ فضحها أبو للو في حبيبها مارس

ولم يبل لياندر من البحر ما بلا هذه الليلة... فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين، وتصدع ذراعيه وترتطم برأسه...

ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئاً من الصبر قد ذاب فيه، بعد إذ كانت ملوحته تستحيل شهداً في فمه، وعسلاً مصفى!

ولقد كان البرد ينهل من السحب القاتمة، الصقيع يساقط كندف القطن الأبيض، فيعلق بشعر لياندر، وينسج فوقه قلنسوة من برودة الموت..

وجاهد العاشق...

وسبح باسم هيرو بين موج كالجبال، وليل كله ظلمات...

وا أسفاه!!

لقد نظر المسكين إلى البرج يتزود من نوره. ولكنه لم ير الشعاعة تتألق كما عودته...

لقد أطفأتها الرياح الهوج، فأطفأت في قلبه بصيص الأمل..

واستولى عليه خور الفجر السابق، ودهاه القنوط في عضلاته، فيئس منها جميعاً... وضاع في النكبة شرقه بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو!

فغاص!...

ولفظه اليم جثة هامدة.. ثم ابتلعه، ثم لفظه..

ثم أنتصف الليل، وهيرو المشوقة حاملة مصباحها الخافت، بعد إذ أشعلته ثانية، ولكن الساعات تمضى.. ولا يصل لياندر....

وتنفس الصبح، فسارعت الراهبة الهيمانة إلى البحر، وحملقت في الماء.. فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج، كأنه حنين الجسم إلى أحلام الروح!!

وصعقت هيرو..

ودارت بها الأرض، وانطفأت في عينيها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام، فألقت بنفسها في الأعماق!..

وما هي إلا لحظة، حتى كان الحبيبان مسبحيين على سرير الماء، ملففين في أكفان الزبد[1]!

([1]) شغف لورد بيرون بهذه الأسطورة فنظمها، وذهب بنفسه إلى الدردنيل فتمثل لياندر وعبر البوغاز، وتمنى لو غرق مثله هناك، فلا يفوتن القارئ الاطلاع على تحفة بيرون في ديوانه

هرقل

كان قلب الإله الأكبر شيوعية في دولة الحب...

ولم يكن يقصر هواه على ربات الاولمب فحسب، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأماليد من ظباء دار الفناء... هذه الحياة الدنيا!..

ولقد كانت زوجته حيرا تقعد له بالمرصاد، لما تعرف من تصابيه، ولقلة ثقتها فيه، فلما علق الفتاة الفاتنة "ألكمين" إحدى أميرات هيلاس، كان يبالغ في الحذر حتى تفاجأه زوجته معها كما فجأته مع الحسناء "يو" من قبل

ونعم الحبيبان بحياة راضية، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل، وما كاد النبأ يذيع في دولة الاولمب حتى ثارت ثائرة حيرا وأسقط في يدها... لأنها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من منافستها في قلب زوجها (زيوس)، تلك المنافسة التي ارتفعت إلى مرتبة الآلهة، بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الاولمب

ولكنها، وهي هي المجبولة على الشر دائماً، آلت إلا أن يرتد نور الحياة المتلألئ ظلاماً في عيني الأم، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل، وأن تندسا فيه،

حتى إذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته، وعادتا بأثارة منه تشهد على أنفاذ ما أمرتا به

وسعت الحيتان حتى استقرتا في المهاد الوثير وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة، وأوشكتا أن تظفرا بها...

ولكن هرقل الصغير الهادئ فتر عن ثغر شتيت مشرق وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما جميعاً، وكان الخدم قد أقبلوا، فلما شهدوا الأفعوانين، صرخوا وأعولوا، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير، المنبطح على ظهره، يضرب برجليه هاهنا وهاهنا، وقد قضى على الحيتين العظيمتين وألقاهما ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية!!

وقدمت ألكمين فضمت إلى صدرها الحنون طفلها الهائل! فرحة مستبشرة، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معاني الأمومة

وذهلت حيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيها، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه، ولكنها لم تيأس، وأقسمت أن تنثر الشوك في مستقبله القريب، وتبث العراقيل في حياته الجائية

وشب هرقل...

ونشأه مؤدبه "شيرون" زعيم السنتور[1]، تنشئة حربية حافلة، ولقنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف وخشيشان، فمهر هرقل في زمن قصير في استعمال الأسلحة بأنواعها، ونبغ في جميع صنوف الرياضة وألعاب الفروسية والقوى

وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدي، يمسكه العضل البارز، ويزينه الكيان المفتول... وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوى، آثر أن يشركه في نزال مع الثيران والعجول، والضخم ذي الأيد من بهيمة الأرض. وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه العجماوات، بل كان يقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب، فلا يدعها حتى يلقيها على الأرض معفرة بالتراب! وخشيته الحيوانات جميعاً، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلاً نحوها، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه!

وكان الفتى كلما ازداد قوة، وذاب الحديد في عضلاته، ازدادت حيرا تغيظاً، وهاجت في فؤادها الأحقاد،

ولم تعد تطيق صبراً على هذا الخصم العنيد، ومادت بها الأرض، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تطن في رأسها تغربها بهرقل، ومن يلوذ بهرقل، فانطلقت إلى زوجها ولم تزل به حتى أصدر أرادة أولمبية تقضي أن

(1) السنتور جبل خرافي نصفه الأعلى نصف رجل والنصف الأسفل نصف حصان

يصبح هرقل خادماً لابن عمه النذل الخسيس: يوريذوس أمير أرجوس، وأن يظل في خدمته بضع سنين..

وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون..

وانطلق يكابد الحياة كفن قاس ملئ بالرغائب، مفعم بالمجازفات، فبينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان، بين غابتين عظيمتين، أذا غانيتان جميلتان تعترضانه وتأخذان عليه سبيله... فأشاح عنهما، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء، أو من أولئك اللائي يتخذن الفسوق حرفة قذرة لعيش وضيع. لكن الفتاتين تشبثتا به، وأبتا إلا أن يقف معهما هنيهه، يتخير منهما واحدة تكون رائدته في هذه الحياة، تهدية وترشده وتأخذ بيده في سبلها المتشعبة

وكانت احدى الفتاتين، (كاكيا) شيطان الآثم وإبليس الفجور في هذه الأرض، فتقدمت إليه متبرجة متهتكة، تغمز بهذا الطرف، وتبتسم بذاك الثغر، وتهز ما سكن من الجليد، وتمط ما أشراب من العنق وتحسر عن الساقين، وتكشف عن الذراعين، وهي تقرقع بضحكات مخنثة تثير الاشتهاء في نفس الشاب، وتستولى بها على مشاعره: "أنا حبيبتك كاكيا، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود في خدود العذارى، أضع قلبي وجسمي بين قدميك يا هرقلى العزيز مطية إلى الفردوس الذي تجد فيه ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة.. فاتبعني أجعل الدنيا كلها من حولك سعادة، وأصير طريقك أنى ذهبت في الحياة منورة بالورود زاهرة

بالرياحين... هلم إلي نحى حياة كالحلم، بعيدين من عناء العالم، نائمين عن شقاء الدنيا، لا نفتح أعيننا إلا على متعة، ولا نرهف سمعينا إلا لموسيقى، ولا نغلق قلبينا إلا على نعيم...

مالك ولوجه الحياة المربد يا حبيبي هرقل؟ أن الدنيا فرصة سائحة فانتهزها، وأن العمر قصير فلا تلق به بخوراً في نار البأساء، وأن الأيام لتخب بنا دون أن نشعر بها، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القائم؟ ولم لا نرسلها في وشى وأفواف؟ ثم لا نستمع دائماً لما توحيه إلينا قلوبنا ونفوسنا ما دامت الدنيا مخلوقة لها؟

لم تطرق هكذا يا حبيبي؟ أمتعب أنت؟ هات رأسك أذن، ودعه ملقى على صدري الجميل الخصب...

ولكن الفتى نفر نفرة بادية، وأرسل نظرة فاحصة إلى (أريتيه) الفتاة الأخرى، التي كانت تقف عن كثب، مصغية إلى حديث كاكيا، مشفقة على الشباب المسكين

أما أريتيه هذه فربة الفضيلة، ونفحة السماء، وهادية البشر ومنقذهم من شرور كاكيا...

وسألها أريتيه. وهي تكفكف عبرة غالية: "أنا لا أشير عليك بشيء أيها الصديق إلا بالحذر من هذه الغادة! أنها توشك أن تضلك وترديك!"

فغيظت كاكيا وأخذها الحنق، وأجابت في غلظة ومخاشنة: "أضله وأرديه؟ هاها... وأنت؟ أتسلكين به سبيل الفضيلة التي زرعت أرضها قتادا، وبذرت فيها أنياب الذئاب؟ اسمع يا هرقل، أصغ إلي يا حبيبي، دعك من هذه الفتاة المحتشمة... تول عنها... أنها تغطش حياتك لو تبعتها..."

وتبتسم أريتيه ابتسامة هادئة وتقول: "أن الآلهة يا هرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة في بنيانك لغرض أسمى من جميع الأغراض الحيوانية، وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق ثوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد في عضلاتك، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك. أجل! أن طريقي لا ينمو بها إلا الشوك، وأنها تدمي الأقدام وتجهد السائرين، ولن ترى فيها زهرة ولا ريحانة، بل لن تسمع فيها عصفوراً يغني ولا بلبلاً يغرد، وبالعكس، قد تقتتل فيها مع السباع والضواري والثعابين، ولكنك في آخر كل نصر، وعقب كل ظفر، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر، وترقص بين يديك بالغواني والقيان، أما تغريك به هذه الأنثى الهلوك ففيه حتفك، فحذار. وليس أحب إليك، كرجل، كأن له الشرف أن يكون ابن اله، من أن تثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له"

وسكتت أريتيه، ولكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج، تحاول الفوز بهذا القنص العزيز... غير أن نخوة الرجولة ثارت في قلب هرقل، فانتهز الغانية الغاوية وأغلظ لها، ثم تقدم إلى أريتيه فتناول يدها الصغيرة الحلوة،

وطبع عليها قبلة تفيض وقاراً واحتراماً، ثم قال لها بصوت متهدج خافت: "هلمي بنا يا فتاة فلن أخشى في سبيلك بأساً ولا رهقاً"

وانطلقا... وغابا في ظلام الغابة...

ولم يبرح هرقل معيناً للضعفاء، مغيثاً للملهوفين، إذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه، وإذا لقى جائعاً نزل له عن زاده، ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار، ولم تبرح الفضيلة تمشي في أثره أيان ولى، حتى ضاقت الدنيا بخير، ولم تحتمل هذا الغار من المجد يكلل هامة خضمها العظيم، ولا سيما بعد أن أتصل بالملك كريون، ملك طيبة، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا

لقد أحب هرقل زوجته حباً جماً، وأحبته هي كذلك وأخلصت له، وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناجيان نجوى الحب، ويرشفان كؤوس الهوى، ويعودان مع الأصيل فيسامران الملك الشيخ، ويدبران معه أمور المملكة..

ثم مكرت حيرا مكرها!..

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشده، وتتركه يهيم في الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين. فبينما كان غارقاً في أحلام السعادة إلى جانب زوجته. أمنين مطمئنين، إذا حيرا لائمة تندس في ظلام المخدع، وتنفث سحرها الفظيع في أذني هرقل، وتمضي لشأنها، فتختبئ في

الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط.. وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين، فتشهد المأساة التي تتفزع من هولها الأرض وتميد الجبال!..

وأشرقت الشمس! واستيقظ هرقل، ونهضت ميجارا، ولكن ناراً كانت تقدح الشرر في عيني البطل! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخرف! وأصواتاً كأصوات الشياطين كانت تدوي في رأسه الضخم...

والدم..

لقد كان ينبثق من كل جارحة في جسمه الأرجواني، فينضج اللحف والأرائك، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس!

وذعرت ميجارا، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها..

ولكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع: "تعالي يا خائنة! أين كنت طيلة الليلة الفائتة؟! آه أجل! كنت تتمرغين بين ذراعي عشيقك الجبان! الويل لكما! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب!"

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثة هامدة قرباناً للموت في عنفوان الصبى، وضحية للردى في ريعان الشباب...

وانطلق يصرخ في ردهات القصر، وهرول يزمجر في حنيات الحديقة، ثم أطلق ساقية للريح...

وفي قنة جبل تزمزم الأعاصير في جنباته، جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده، وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة في نوبة جنونية، فينشج ويبكي!...

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس، فتنشق عن اله كريم، هو هرمز رسول السماء، حمل إلى هرقل تلك الإرادة الاولمبية القاسية، التي أصدرها زيوس، متأثراً بإلحاح زوجته الآثمة حيرا، والتي تقضي أن يظل هرقل في خدمة ابن عمه يوريذوس أثنى عشر شهراً يصدع خلالها بما يؤمر!

– "لقد كان عليك أن تظل في خدمته بضع سنين... ولكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المدة، واختزلها إلى ما ترى!"

– "يختزلها أولاً يختزلها، لقد أصبحت الحياة سجناً بدون ميجارا!"

– "عليك بالصبر يا صديقي، فقد تفيدك طاعة الآلهة.."

– الآلهة التي لا تحسن عملاً غير هذا العبث!.."

– "صه صه... هلم إلى يوريذوس، وستكون حراً بعد سنة واحدة..."

وجن جنون هرقل لهذا القضاء الاولمبي الأعمى، وفر من هرمز في مسارب المياه، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم، ولكنه عبثاً حاول الفرار مما كتبته السماء عليه، وهنا، بدت له صديقته ربة

الفضيلة أريتيه، فنصحته، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس، فذهب إليه كسير القلب مهيض الجناح، كأن جبلاً من الهم والسخط مستقر على قلبه

وقال له يويذوس: "وأخيراً وصلت إلى آخر الدرب يا هرقل!... أن أمامك أموراً فأعد لها عدتك، فما دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئاً...."

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال: "أجل، لقد وصلت إلى آخر الدرب... ولكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا... ألا فأذكر حاجتك التي أرسلتني الآلهة لأقضيها لك، وأقصر!"

وضحك يوريذوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه، وقال: "حاجتي؟! أن لي لحاجات ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها. وكيف تصبر مثلاً على سبع نيميا الذي يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الكنوز والأذخار؟"

وقال هرقل: "سبع نيميا أو ألف سبع كسبع نيميا، عليك أن تكلفني ولو بهدم السماء أفعل ما تكلفني به... والآن، أأذا جئتك برأس هذا السبع، أأكون طليقاً؟"

– "تكون طليقاً؟! أن أمامك اثنتي عشرة مسألة، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها يا هرقل، فهلم أذن، وسنرى..."

مجازفات هرقل

١- إلى غابة نيميا

كانت الغابة تثير الرعب في قلوب الجن، وكانت الظلمات تضرب في أنحائها فتجعلها تيهاً يعج بالأفاعي، ويضج بالتنانين.

وكان ملكها الضرغامة يربض في المغارة المفزعة، المنشقة كالقبر في أول الطريق المؤدي إليها، وكان يخرج في أول الليل فيصول في القرى المجاورة ويجول، وكان الأهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشيء الكثير، فلم يكن يبقى على دابة في الأرض، ولا إنسان في الطريق. ينقض كالقضاء على فريسته فيجند لها. ثم يحتملها إلى كهفه فيلتهم منها، وينبذ الباقي لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع.

ولم يكن كهذه الأسود الضئيلة التي يتحدث عنها السودان هذه الأيام، بل كأن أسداً في جرم الفيل وقوته، ورشاقة النمر وخفته، وخباثة الثعلب وحيلته... يثور فينقدح الشرر من مقلتيه، وتمور الأرض وتسجد الجبال بين يديه، وكانت له لبدة نسجتها له الآلهة من أشواك الجحيم، وبطنتها بحمى المنية!

وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شعاف الجبال، ويهز جوانب السماء، ويهيج الجنون وافزع في رؤوس الوحوش، فترى إلى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان!!

ولقى هرقل أصدقائه فنصحوا له ألا يلقى هذا الأسد، وأن يضن بشبابه... على أنيابه، وبماء الحياه المتدفق في بردتيه، على جمر الغضى المتأجج في حدقتيه...

ولكنه أبى!! وأنطلق كالعاصفة إلى حيث يربض أبو أسامة... وأنه لعلى خطوات من الكهف، وأنه لينظر إلى السيف الذي كان إلى هذه اللحظة في يمينه فلا يجده!!

"أين؟ أين سيفي؟... آه! هاها.. لقد سرقته حيرا!! أرادت الخبيثة أن تجردني من السلاح الذي أنازل به خصمي! خاب فألك يا حيرا!! سأنزله بغير ما سلاح... سأحطمه.. سأشد لسانه حتى أنتزعه من غلاصمه... إلي يا سبع نيميا.. إلي يا ملك الغابة وسيد وحوشها.. الساعة ساعتك.. لا مفر لك يا أبا لبدة!..."

وطفق هرقل يرعد كالمجنون، وكان سبع نيميا نائماً فأستيقظ على هذه الصيحات المدويات، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل، وجهاً لوجه..

وبدأت الزوبعة...

والتقى الجبل بالجبل، وتصارع الجباران ساعة، لا هذا ينال من ذاك يصل إلى وطر من هذا.. وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب... وغضب أبو أسامة، وهاله ألا يقوي على رجل بمفرده يكاد يصرعه...

وتعب هرقل.. ونال منه الجهد، ورأى أن لا بد من ألة، فدار دورة أقترب بها من شجرة باسقة، فأنتزعها وألقى بجذعها في شدقي الأسد، ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فأنتزعه، وأنقذف الدم يتدفق من هنا وهناك... وتسيل به أودية الأرض!!

وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل، فقبض على فكي الأسد، وشد على الرأس الكبير فتحطمت عظام المخ، وخر ملك الغابة يتقلب في لجة من دمه الغزير!!

وهمهمت الوحوش مشدوهة!

لقد قتل ملكها... فلا خوف عليها بعد اليوم! ستكون حرة طليقة، تجيء وتروح، وتقتات لنفسها غير منظرة ما كان ينبذه لها أبو أسامة!!

ونظر هرقل، فرأى سيفه وراء ظهره!!

لقد جاءت به حيرا بعد إذ شهدت من جبروت البطل ما بهرها وتناول السيف باسماً، ثم تقدم إلى الأسد فسلخ جلده الكبير، وأبقى على اللبدة الهائلة، وعاد أدراجه إلى يوريذوس، ملتفعاً دثاره الغريب الذي كان إلى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها

٢- مع الأفعوان الهائل "هيدرا"

ولقى صديقه يولوس، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيميا، فأخذه العجب، ونذر ليصحبن هرقل في جميع مجازفاته. ثم فصلا، وما كاد يفعلان حتى قابلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه إلى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الأرقم هيدرا: "... فإذا لقيته ثمة فعليك به، ولا تعودن إلا برأسه. فقد حدثنا من عرفه أنه لا يبقى على دابة ولا بهيمة، ولا يعفى من القتل أحداً... ونحن أرفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان..."

وانطلقا، حتى إذا كانا عند المستنقعات المترامية، شهد هرقل حيواناً ضخم الجثة فظيع المنظر، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية. وأيقن أنه هيدرا، فتناول قوسه الكبير، وأرسل إلى الوحش سهماً يهيجه به، ليخرج من الماء، وليأخذ معه في نزال وقتال...

وتم له ما أراد. وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوسه السبعة. ويقلب في كل فم لسان طوله ذراعان، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها، وشرع الفحيح المرعب يصم أذائي هرقل وأذني صاحبه

وبدأت المعركة...

وأمتشق هرقل سيفه الكبير المرهف، وبضربة قاضية أطاح رأساً من الرؤوس السبعة....

ولكن... يا للعجب!! لقد نبتت في لحظات قليلة، في مكان الرأس المقطوع، رؤوس سبعة أخرى، أخذت تنمو بسرعة فائقة، حتى أوشكت أن تساوي الرؤوس الكبيرة في حجمها...

وريع هرقل، وهتف بصاحبه يوليوس قائلاً: "أوقد النار يا صاح، وأجج هذا الجذع فاكو به كل رأس يطيح... أنني أخشى أن ينبت لهيدرا ألف رأس!"

ونفخ في النار وأجج الجذع، وأخذ كلما طاح رأس كوى مكانه بالنار ثم بدا له أن يدع السيف، ويقي على الأفعوان العجيب بجذع الشجرة الذي كان يكوي به يوليوس.

وحدث ما لم يكن في الحسبان... لقد أرسلت حيرا سرطاناً بحرياً يعض قدمي هرقل وهو يحارب هيدرا" تود بذلك لو تشغله فيستطيع الأفعوان الظفر بخصمهما العنيد... ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطئه، وسحق عظامه سحقاً

وأنتصر هرقل....

وطفق يغمس سهامه في دم الأفعوان ليسمها، حتى إذا أصابت رمية لا تقتلها من الموت، وعاد إلى يوريذوس ثملا بخمرة النصر.

٣- ظبي سيرينيا

وأسقط في يد يوريذوس حين رأى هرقل يختال في بردة السبع ويتيه، وفي قبضته القوية رؤوس هيدرا هامدة خامدة..

وكان في مقاطعة سيرينيا ظبي له قرنان من ذهب، وأيطلان من نحاس، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب، وكان الملوك إذا أرادوا إعجاز أحد من الناس ليقتلوه، كلفوه باقتفاء ظبي سيرينيا وإمساكه، فإن لم يفعل، ولن يستطيع أحد أن يفعل، لشدة عدو هذا الظبي، كأن جزاؤه القتل، وقد أراد ملك أرجوس أن يعجز هرقل هذه المرة، فأمره باقتناء ظبي سيرينا: "... فإن لم تعد إلينا به فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام.."

ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبي، لآنه كان يعدو كزوبعة، فما تكاد حوافره تلمس الأرض إلا كما تلمس السماء كف سكران، فلجأ إلى الحيلة، واحتفر في طريق الحيوان حفرة عميقة غطاها بوشائح رقيقة من الثلج، وطارد الظبي حتى الجاه إلى الحفرة، ووقع فيها، فنزل إليه واحتمله، ومضى به إلى الملك الغاشم

٤- خنزير أرمنثيا

ثم أمره بقتل خنزير برى مخرب، كان يأوي إلى غابات أرمنثيا، ويقطع الطريق على القبائل الرحل، ويقتل كل من تحدثه نفسه بمحاربته أو الوقوف

معه في ميدان. وكان ذلك الخنزير. لا يبالي شيئاً في الأرض أو في السماء، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودة في الشر، وتحالف على إيذاء الناس. فلما أشتبك هرقل وإياه في نزال تشيب من هوله الولدان، وشعر الخنزير أنه مقضي عليه لا محالة، خار خواراً عالياً يستنجد حلفاءه السنتور، ولكنه لم يصلوا إلى مكان المعركة إلا بعد أن أجهز هرقل على خنزيرهم العزيز، فنشب قتال مروع بينهما، وأخذ هرقل البطل يسدد سهامه التي كان قد غمسها في دم هيدرا، إلى صدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعاً. وأقبل شيرون – وهو كما علمنا مؤدب هرقل وأستاذه – ليحسم النزاع بين قبيلة وبين تلميذه، ولكن وا أسفاه! لقد أصماء هرقل بسهم مسموم فأرداه وهو لا يعرفه! فلما أدرك أنه أستاذه، أقبل عليه، وعنى به، وجمع من الأعشاب الطبية ما حسب أنه ينقذ أستاذه من براثن الموت، ولكن بلا جدوى! ومات شيرون، وأهوى عليه هرقل يقلبه، وفي عينيه دموع المحبة والإعزاز.

وتعاون هرقل ومن بقى من السنتور فدفنوا القتلى، ثم أقاموا قبراً مشيداً دفنوا في ثراه شيرون، ومضى كل لطيته..

٥- زرائب أوجباس ملك أليس،

كان الملك أوجباس، مالك أليس، يقتني عدداً عظيماً من الماشية والخيل والغنم، تزدحم في زرائب متجاورة مع ألاف من الخنازير مؤلفة، وكانت النظافة في هذه الزرائب مهملة إهمالاً تاماً، حتى لكانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ أو فرسخين،

وانتن الروث فاحدث طاعوناً مروعاً أوشك أن يأتي على جميع الأهلين، وقرر الأطباء أن لا سبيل إلى مقاومته إلا إذا عنى بتنظيف زرائب الملك.. وعلم يوريذوس بما شغل بال صديقه ملك أليس، فابتسم ابتسامة صفراء، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث السنتور: "إذن فعليك أن تتوجه إلى صديقي أوجباس، ملك أليس، فتنظف زرائبه مما بها من خبث، وتكون بذلك قد أديت خمساً من المسائل الاثنتي عشرة، التي كتبتها عليك الإلهة".

وامتعض هرقل في أعماقه، وعبس عبوسة كادت تنفجر بالسخط على هذا الملك الغبي، ولكنه ذكر نصيحة أريتية، فصدع بالأمر، وذهب من فوره إلى أليس، ليرى كيف ينظف زرائب الملك..

وثمة، رأي مجرى عظيماً من الماء، يتدفق من الجبل الشاهق إلى يمين الزرائب، وينحدر انحدارا شديداً حتى ينتهي إلى البحر، فبدا له أن يغير مجرى الماء، بحيث ينصب في الزرائب نفسها، فيكتسح الروث، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد.

وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الأهلين!

وحاول ملك أليس أن يستبقيه ليجزيه، ولكن هرقل أبي شاكراً، وقصد إلى يوريذوس يتلقى أوامره

٦- عجل مينوس

وكان نبتيون اله البحار قد أهدى عجلاً جسداً لصديقه مينوس ملك كريد، كي يقدمه قرباناً للإلهة في العيد الأكبر الذي يحتفل فيه بميلاد الذي يحتفل فيه بميلاد نبتيون، ولكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها وضحى به مكان هذا العجل الإلهي السمين، واستبقى لنفسه هدية الإله.

وغضب نبتيون، وأقسم ليكونن هذا العجل نقمة على مينوس وملئه، فسخر عليه طائفاً من الجنون، فطفق العجل يخرب ويدمر، ويقتل الناس تقتيلاً..

وعلم يوريذوس بما كان من مصيبة صديقه ملك كريد في عجله، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل أو على الأقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه..

وأبحر هرقل، ولقيه مينوس فرحاً متهللاً، وذهب من فوره لينازل العجل، فكانت معمعة، وكانت حرباً عوان..

لقد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه، فيخبط به الأرض فتندك، ومع ذاك ما استطاع أن يقتله! وأخيراً اكتفى بأن صفده بسلاسل وأغلال وعاد أدراجه إلى أرجوس، وودعته كريد كلها.

٧- خيول ديوميديز

وكان الملك ديوميديز، ملك تراقيه، يقتني مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار، ولا تباريها خيول في مضمار، ولكنها لم تكن كهذه الخيول التي يقتنيها الناس، بل كانت بالوحوش أشبه، وإلى السباع أقرب لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تسيغ النبات، بل بالعكس، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً..

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم، وتستطيب لحم الإنسان وتلذه، ولم يكن الملك القاسي يبخل عليها به. ولكي يوفر لها الغذاء الغريب، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبي تطأ قدماه أرض البلاد بدون أذن من الملك! فلما نما الخبر إلى يوريذوس، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله.

وشد هرقل رحله إلى أرض تراقيه، ودخلها غير مستأذن لا مستأنس، فلما سأله ديوميديز في ذلك، أنقض عليه كأنه الحتف، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به إلى خيوله فألقاه أليها...

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقاً، واغتذت بلحمه الملكي الفاخر!! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم، ونثر الورد والريحان تحت قدمي هرقل، ومضى البطل فألجم الخيول كلها، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريذوس!!

٨- منطقة هيبوليت مليكة الأمازون

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء مشغوفة باقتناء الحلي والجواهر النادرة، تضحي في سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا، أذا اقتضت الحال حرباً من أجل ياقوتة أو زبرجدة!

وكان أبوها الأفين يلبي رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً، فلما وصفت لها منطقة هيبوليت، مليكة الأمازون وما رصعت به من اللآلئ، وثار في نفسها فضول الذهب، وألم بها مرض الحصول عليه، فانطلقت إلى أبيها تبكي، وتشكو العطل وقلة الحيلة، ولو أن خزائنها كانت تحوى نصف ثروة المملكة

وسألها أبوها ما بكاؤها؟ فتاهت قليلاً ودلت، ثم ذكرت منطقة هيبوليت!!

وربت الملك على كتفي ابنته، ودعا إليه هرقل، وأمره بالذهاب إلى الأمازون والحصول على منطقة الملكة، ولو أدى دمه ثمناً لها!

أما الأمازون، فقبيل عظيم من النساء المحاربات، يحيين حياة عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحير الألباب وتذهل العقول.. فمنهن فريق يعمل في الحصون ويسهر على قلاع المملكة، وفريق للغزو ومناوشة الأعداء، وثالث يقوم بمهمة الشرط والعسس، ورابع للعمل في الأسطول الذي يلقى الرعب في الشواطئ... ...

ولا يعيش بين شعب الأمازون أحد من الرجال، فإذا جازف رجل وانسرق بينهن، ترصده الموت في كل مكان:

وكانت مملكتهن في جزيرة نائية قاصية، ذهب هرقل في البحث عنها كل مذهب، واستعان بأقربائه من الآلهة ليشدوه إليها

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى ملكة الأمازون، ولكنه أبى، لأن مجازفاته التي بها للهلاك، أن هي إلا ثمن الحرية التي ينشدها ويحلم دائماً بها!..

ووصل هرقل إلى المملكة، وتحايل حتى مثل بين يدي الملكة، فلقيته بما هو أهله من التجلة والإكرام، كابن اله عظيم... وابدى رغبته في الحصول على المنطقة الغالية التي تزين وسط الملكة، وتحلى خصرها، ليقدمها ثمناً لحريته الضائعة، للفتاة المزهوة (أدميت) بنت ملك أرجوس...

وتبسمت الملكة، ووعدته أن تخلعها عليه، ليصنع بعد ذلك ما يشاء، ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة، وعشاء فاخر...

وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها؟!..

لقد هالها هذا النجاح المطرد الذي يظفر بها خصمها في كل مكان، فتحولت إلى أمازونا جميلة، واندست بين رعايا الملكة، وألفت في روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن، وأنه إنما أقبل ليسبي الملكة، ليفر بها إلى ملك أرجوس، وأنه اتخذ المنطقة تعله لذلك جميعاً، فثارت ثائرة الأمازون،

وتجمهرن حول الملكة، وصارحتها بما قالت لهن حيرا. فأمرتهن بالحرب. ولكن هرقل، البطل وأظفرته شجاعته بهن، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة، فأشار إليها قائلاً: "وهنا أيضاً أنتصر عليك. وسأنتصر عليك دائماً"

٩- طيور بحيرة ستيمفالوس

وطربت ابنة الملك لمنطقة هيبوليت، أيما طرب، وكبرت في نفسها منزلة هرقل، فاستوصت به أباها خيراً..

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته في هرقل، فلم يكلفه هذه المرة شططاً، بل اكتفى بأن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستيفمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التي تدوم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى، فتنتشر بذلك الأمراض والطواعين، ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه المرنان، وفي كنانته سهامه التي رويت من دم هيدرا.

١٠- قطعان الجريونز

وكان يأوي إلى سفوح الجبال في مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جريونز. وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم، عرفت في سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها، حتى لكان يضرب المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم.

وطمع يوريذوس في نعم جريونز وشائه[1] فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها وأغذ هرقل السير، وألفى المارد ممدداً في كهفه السحيق يغط في نوم عميق، فأنقض عليه كأنه الشهاب الراصد، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته إلا جثة لا نأمة فيها ولا نفس! وساق القطعان، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة، والوفر الكثير وأرخى الليل سدوله، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق، فأناخ في منحدر معشوشب، ولعبت سنة من النوم بعينيه فغفا، وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لأحلامه الخمرية الحلوة.

وكان يأوي إلى هذا الجبل، جبل آفنتين، مارد لص قطاع طريق، يدعى كاكوس، وجد هرقل غارقاً في سبات ناعم، فذهب بنصف القطيع أو يزيد..

وأستيقظ البطل على رغاء يتجاوب في حدود الأفق، فلما تفقد قطعانه أنطلق في أثر اللص حتى لحق به، وحطمه تحطيماً.

وقبيل شروق الشمس، كانت مدينة أرجوس كلها عند الأبواب تستقبل الرزق والغنم، وتهتف باسم البطل الحلاحل الذي بهرها بشجاعته، وخلب ألبابها بما أبدي، وما ينفك يبدى، من ضروب القوة والاستبسال..

([1]) النعم: الماشية، والشاه: الغنم

وأحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الأهالي من المحبة والافتنان بهرقل، فسخط وحنق، وبيت الشر المستطير..

١١- تفاحات هسبريا الذهبية

وأدركت حيرا ما ينقم الملك من هرقل، فوسوست إلية أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية، وهيهات هيهات أن يستطيع أحد الحصول عليها!

ولقد أهديت هذه التفاحات إلى حيرا، ليلة زفافها إلى زيوس، رب الأرباب، فيما أهدى إليها من تقدمات وتحف، أهدتها إليها "جي" ربة الأرض، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها. لأنها فضلا عن أنها من الذهب الخالص، فقد رصعت بأندر اللآلئ، وزينت بصور الآلهة، ونقشت فيها حدائق الاولمب، ثم هي تستقل بميزة ندر أن تكون لحيلة مهما غلت: ذلك أنها إذا غابت الشمس، وأقبل الليل بظلامه، شعت أضواء، ولا لاء قل أن تصدر ألا عن كوكب درى، أو شمس وضاءة، فتنقشع الغياهب وتنجلي الدياجير!

وحسبك أن تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الاولمب وحراسها الغلاظ على هذه القنية النادرة، فأرسلت بها إلى الهسبريد، بنات هسبروس اله الغرب العظيم، ليحرسنها. ولتكون عندهن في مأمن من كل سارب بليل، أو سارق في النهار، وقد عرف الهسبريد لهذه التفاحات قيمتها، فعلقنها في درجة باسقة في قصرهن المنيف، وأقمن على حراستها التنين

الهائل لا دون الهولة، الذي قيل في وصفة أن له سبعين ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف عين، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً، ثم أنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سمكاً، وأن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرمز، وأن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن، ومكاء الشياطين.

وانقلب هرقل على وجهه في الأرض حيران!

أين هي تفاحات هسبريا هذه؟

"أفي الأرض أم في السماء؟ لأمض! فرب أله دلني إليها..."

وشرق وغرب، وذرع الأرض من أقصاها إلى أقصاها، وانسرق إلى الكهوف والغيران، وأوغل في الجبال، تحدر في القيعان، ومر بكل حنية، ووقف عند كل عين، حتى كان لدى نهر أريدانوس، ووقف بشاطئه يتناجى، فخرجت من الماء النمير عرائسه، ورحن يسرين عن هذا اللاجئ الحزين..

وأنه ليسائلهن عن تفاحات هسبريا، فيبتسمن له ويتلطفن معه، ثم ينصحن له أن ينطلق إلى نريوس أله البحر، عسى أن يهديه إلى ما يريد، ويهيم في الأرض محاذياً سيف البحر، وحتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم، وخط الشيب رأسه، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذي النتوء، وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون، وتطل من حدقتيها الأحداث!

وجده جالساً القرفصاء مقلباً ناظريه في مملكة الماء التي تتصل باللانهاية، فألقى عليه تحية هينة، رد عليها الشيخ بهذه العبارة:

"أيها الفتى لماذا قطعت علي تأملاتي؟!"

"فقال هرقل: أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلا ما أخبرتني عن حدائق الهسبريد، فتكون لك على يد أذكرها لك أبد الدهر واشكرها!"

وتجهم نريوس وقال: "حدائق الهسبريد! أوه!.. أنت هرقل أذن!"

فبهت هرقل وأجاب: "أي وحقك أنا هو، فمن ذكرني عندك؟!"

"ليس هذا من شأنك يا بني، ولكن لملك تبتغي تفاحاتها الذهبية؟"

– "أي وزيوس يا أبتاه!"

– "بشراك أذن! فلن يحصل عليها إلا أنت، ولكنك لست أنت الذي ستنفذ إلى حدائق الهسبريد! أذهب أذن فالتمس المسكين برومثيوس مكبلاً فوق جبال القوقاز، فأحسن إليه وسله حاجتك، فهو وحده الذي يستطيع أرشادك إلى ما تريد..."

وشكره هرقل، وحياه، وأطلق ساقيه يطوى الفيافي إلى القوقاز. وهناك وجد برومثيوس والرخ ينوشه، بحيث يمزق كبده ويهرأه، ويتغذى به، فوتر قوسه، وسدد إلى الطير سهماً فأصماه، وخلص إلى الإله البائس

فأزال أصفاده، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه، ثم تحدث إليه عن حدائق الهسبريد وتفاحاتها الذهبية، فحدجه بروميثوس بنظرة فاحصة، وقال له: "لكأنك هرقل إذن؟"

– "أجل أنا هرقل يا أبتاه!"

– "وأنت عدو حيرا يا بني؟"

– "عدوها المبين يا أبتاه!"

– "مسكين!"

ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته، وطار لونه وهاجت في فؤاده البلابل والأشجان، ثم اتصل الحديث، وقال برومثيوس:

– "انطلق يا بني إلى أخي أطلس، هناك... هناك في إفريقية المظلمة شمالاً بغرب، تجده على قمة جبل السماء على منكبيه، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب. فأقرئه سلامي، وزف غليه بشرى خلاصي مما أوقع زيوس بي، ثم حدثه بحاجتك يقضيها لك، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسبريد، وهو وحده يستطيع أن ينفذ إليها، وهو وحده يستطيع قتل لا دون التنين الهائل الذي يحرس تفاحات هسبريا الذهبية، فإذا أتاك بها فاحذر أن يأخذك بشيء من مكره، فأني قد علمت أنه بدأ يتململ من حمله الثقيل، ويود لو ينجيه منه أحد، ولو انتشرت الكواكب، وانتقض نظام الكون!"

١٢- هرقل يصارع انتيوس

وفي طريقة إلى أطلس، لقى من الأهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الأيام إلى زماننا هذا، فمن ذلك أنه مر بقوم من الأقزام ضئال الأجسام فصارها، كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم، مفتول العضل: ليحميهم من جيرانهم الأعزاء الأقوياء، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسية التي كانت تتلف أعنابه وتبيد زروعهم كلما تم نضجها في كل عام، وكان ذلك المارد "أنتيوس" ذا حول وذا طول حتى لكان يخشاه الوحش، ويتخوفه الجن، وترجف من صولته أفعوانات البحار، فلما شهد هرقل يخب في أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى، أخذ أهبته لمنازلته، ولم تساوره ذرة من الشك في أنه منتصر عليه فلما وصل هرقل، حيا أحسن تحية، ولكن أنتيوس لم يجب، بل أنه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل!!

– "ماذا بك أيها الأخ؟ دعني، فليست لي عندك حاجة!"

– "لا، لا نجوت أن نجوت! لا أرى إلا أن أصرعك على أية حال!"..

– "ولمه؟!"

– "هذا ما لا أعرف، ولكن لابد من أن أصرعك على أية حال!"..

وتصارع الخصمان، وأقبلت الأقزام ترى إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلبيه تلبيباً!

وكان أنتيوس كلما خانته قواه، وايقن أن هرقل لابد صارعه، ، وقف قليلاً على أديم الأرض يستمد منها قوة، ويستلهم الحول من أمه (جي)..

فهو أبن (جي) أذن، ولن يسير ربة الأرض أن يصرع أبنها أحد، أذن، فلتمده بكل ما في سرها من قوة ليصرع هرقل،

وخارت قوى البطل، وراح يلهث من شدة النصب، بيد أنه تنبه إلى السر آخر الأمر، عندما لحظ أن أنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض، فرفعه رفعة هائلة، ولم يمكنه لحظة من الوقوف على قدميه، ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل، حتى شهق شهقة كانت هي شهقة الموت..!

فألقى به... ومضى لشأنه!!

وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطئ، ويترامين بلآلئ مما يعد لديهن من حصباء البحر، فوقف غير بعيد وهتف بهن:

"يا عرائس الماء الجميلات! هل لكن أن تهديني إلى أطلس الذي يحمل السماء، ويمسك كواكبها أن تقع!!"

وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت: "أمض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذي يفصل البحر المحيط من مائنا هذا (وكان البحر الأبيض)، فإذا استطعت أن تنفذ فأنك تكون على فراسخ من أطلس..

وشكرها هرقل، وانطلق..

وكان أمام السد، ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قنن وقلل وأحياد، فلم يستطع أن يتسلقه، ضربه بيمينه ضربة، وبشماله أخرى، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية، وما تزال تعرف إلى يومنا هذا بأعمدة هرقل!![1].

ونظر فما هاله إلا هذا الإله العظيم سامق في الأفق، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء. والنجوم منتثرة من حوله كأنها قطرات أمطار في يوم عاصف!

وتقدم هرقل فحيا الإله الضخم، وحياه الإله الضخم بأحسن مما حيا، ثم أقرأه هذا تحية بروميثيوس، وزف إليه بشرى خلاصة من الصخرة التي ظل مكبلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً!

وطرب أطلس لهذه البشرى، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مغطاة بالثلوج، ثم قال:

- "أنا، أن كان يسرك ذاك النبأ"

- "أنت؟ أنت من المكرمين أذن! مرحباً بك أيها المخلص الأمين! لقد كدت ألقى بهذا الحمل الذي ترى لأنقذ أخي، ولكني خفت أن يهلك

---

(1) بوغاز جبل طارق

العالم بمن فيه... و... على ذكر أخي، كيف هؤلاء الناس الذين خلق؟ بخير هم؟ وهل يخبتون له حقاً؟ أن زيوس مغيظ منهم، وامرأته حيرا محنقه كذلك، أعندك من أخبار هؤلاء شيء؟

– عندي أشياء يا أبتاه.. أنا ابن زيوس من ألكمين، وقد نقمت حيرا على والدتي، فأرادت أن تفجعها في، وقد أغرت رب الأرباب بي، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر، وقد أرسلني أجواب الأفاق وأذرع الأرض من أجل تفاحات هسبريا الذهبية، وقد ذكر لي أخوك، بعد أذ اطلقته، أنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسبريد وانك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات، فهل أسعد بأن تؤدي لي هذه اليد؟ لقد كادت حيرا كيدها هذا، وان لم تنصرني أغدو من الهالكين!"

وشاعت الخيلاء في أعطاف أطلس، وسرت حمياً الزهو في ظهره الشاسع، فقال: "أجل يا صاح، لن يستطيع قتل لا دون غيري، ولن يدخل حدائق الهسبريد سواي، ولكن كيف أترك حملي هذا لاتيك بالتفاحات؟"

ونظر هرقل إلى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال: "أنا أحمل عنك هذه القبة يا أبتاه، حتى تعود بالتفاحات!!"

وما كاد يتم كلمته، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء، وانطلق أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار يمتع نفسه بمشية حرة طليقة في حدائق الأرض الغناء!!

وغبرت أيام..

ثم ذكر تفاحات هسبريا، فذهب إلى حدائق الهسبريد، وأقتحم الأسوار، وأنقض على التنين لا دون فزلزلت الأرض تحتهما، ولم يدعه يفلت، برغم مرونته في الوثب وسرعته في الالتفاف، حتى خر صريعاً ومد يده إلى الأيكة الذاهبة في السماء فتناول التفاحات المتلألئة الوضاء، وعاد يزهى ويختال إلى حيث هرقل المجهود المتعب.

وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذي يؤود هرقل حتى ذكر الأدهار السحيقة التي لبث يتململ طوالها تحت عبثه، فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود إلى حمله الشاق.. وبدا له أن يدع هرقل ويمضي، ولكن هرقل المتعب فطن إلى ما وقر في قلب أطلس، فناداه: أبتاه! لعمري أن حملك لأخف من الهواء، ولعمري أنني لأستطيع أن أثبت له إلى نهاية الأبد!"

وبهت أطلس وقال:

– "أذن لتمض في حملك ما دام يسرك!"

فأجاب هرقل: "ليس أيسر من هذا! ولكن هل تسمح فتحمل مكاني برهة حتى أضع حوبة فوق كتفي، فإني أشعر بنتوء أديم السماء!!"

وقبل أطلس المغفل، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الأخضر وتقدم فحل محل هرقل!!

وألتقط صاحبنا التفاحات، وانطلق لا يلوى على شيء!!

وبعد رحلة طويلة مضنية: دخل على يوريذوس بالقنية الغالية التي خلبت لب فتاته أدميت، فخرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها..

١٣- رحلة هرقل إلى الدار الأخرة

لم تكن محفوفة بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة، فقد سلك هرقل سبلاً من قبل، كان الموت يجثم في كل خطوة فوقها، وكانت المنايا تتربص فيها، ثم تفر منه آخر الأمر، كأنما هو موت للموت، ومنية للمنية وفناء للفناء..

أسقط في يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا، واستولى عليها الجزع حين رأت التنين لأدون مضجاً بدمه، فوسوست في صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الآخرة!!

وسيربيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة، الذي رأيناه يعدو في أثر بلوتو – أله الموتى – حينما زار الدار الأولى ليخطف

برسفونية، وهو أبدأ يربض عند قدم سيده الجالس فوق عرش هيدز، يقلب في غيهب السفل أعينه ألست، كأنها أنجم تحترق في فحمة ليل يهيم، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الأبدية. ينشب أظفاره في أرواح المجرمين، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى!

وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي كتبته عليه السماء، فانطلق يعدو غلى دار الموتى، وبين يديه طائفة من الإلهة تهديه وترشده، حتى إذا كان قاب قوسين من السدة القاتمة الدجوجية، ووجد سيربيروس مقعياً يغط في نوم عميق، وأله الموتى مستلقياً يقلب في حضنه القوى برسفونية الجميلة، أنقض على الكلب فخنقه حتى لا يعوي فتعاويه كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة!... وانفتل من دار الظلمات وفي نفسه من الرحمة لهذه الأرواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين.

وانخلع قلب يويذوس حين لمح الكلب الهائل!

لقد كانت الظلماء تتدجى في أشداقه فتكسف الشمس الوضاءة، وترد نور النهار المتلألئ ديجورا يلج في ديجور!!

وكان الزبد ينتثر من أفواهه كأنه ندف يساقط من عل في ليل عاصف!

وكان ذيله الطويل الضخم يتساوى وينثني كأنه ذنب هيدرا أو ديل لأدون!

وكان يعوى وينبح فيقلقل الجبال المجاورة، ويزلزل قصور أرجوس!

وأنظر إلى الملك الجبان!

لقد قفز من عرشه مما ألم به الهلع، وأنطلق إلي مخزن الغلال المجاورة فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق، وآلى ألا يخرج حتى يعود هرقل بسيربيروس إلى هيدز!

* * *

وهكذا أصبح هرقل حرا، وألقيت عن كاهله هذه الرقبة التي أذلته طويلا، وتلفت حواليه فوجد الحياة تتبرج كأنها غانية، ووجد كل شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح، ولأخذ بنصيب مما تفيض به هذه العاجلة من مباهج ومغريات

وذهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الآلهة إلى ألاولمب، ليلقى أباه ويقدم له طاعته، وليرى هل يتوب عليه من غضب لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً..

ولقيته أرباب ألاولمب هاشين باشين، وأخذوا يتندرون بمجازفاته العجيبة التي أنتصر فيها على سبع نيميا والأفعوان هيدرا ومحاربات الأمازون..

أغرقوا في الضحك عندما ذكر أطلس وما كان من أمر الحوية..

واقترح هرمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه، ويباروه في العدو والسباحة وألعاب القوي، لتتم بذلك بهجمة لقائه، وليعبروا عما يكنونه له من حب، ويضمرون من أعجاب. فأقيم ملعب ألاولمب الفخم، وشيدت على جوانبه المدرجات التي تتسع لألف ألف مشاهد من الآلهة وأنصاف الآلهة وكبار المدعوين من عباد برومثيوس(١).

وتم مهرجان الألعاب، وحاز هرقل قصب السباق في أكثر المباريات، وكأن هذا هو الأولمبياد(٢) الأول الذي أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات وتتابعت السنون..

ومر هرقل بقوم يبكون، وقيل له أن أدميتوس(٣) ملك تساليا مرض، فتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود في هذه الدار الدنيا، فأجيب إلى ما تمنى، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته إذا حضر الموت، وهنا تقدمت زوجته المخلصة الستيس فضحت بنفسها كي ينجو بعلها من الموت، وليخلد ما

---

(١) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجية

(٢) الأولمبياد وهو دورة الألعاب الأولمبية

(٣) أسطورة أدميتوس وزوجته اليستيس وطرد أبوللو من السماء هي من أربع الأساطير الإغريقية

شاء له الخلود. وماتت الزوجة الوفية فداء للملك.. وينظر أدميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه، ويكون في حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش في صحراء، ويقدم إليه الطعام فلا يكاد يسيفه، وترقص القيان بين يديه فيثرن في نفسه الاشمئزاز كأنهن جنة تدمدم في ظلام غابة..

ويبغض الدنيا..

ويود لو كانت زوجته الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظة واحدة، وتتلاشى بعدها الحياة بكل من فيها.!.

لذلك يبكي الملك، ويبكي حوله شعبه الأمين!

ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ إلى هيدز – دار الموتى – فيستنفذ الستيس من براثن الفناء، ويردها معززة مكرمة إلى زوجها المسكين فيهدأ قلبه، ويرقأ دمعه، وتستقر نفسه، ويفئ إلى أمر هذا الشعب الذي تكبكب حوله يعول وينتحب..

ونفذ البطل إلى ظلمات الدار الآخرة، وسأل الأرواح الهائمة فدلته على منامة الستيس، فتغفل حارسها الجبار وخنقه، وأختطف الفتاة الناعسة وفر بها دون أن تشعر به زبانية بلوتو.

وعادت الطمأنينة إلى قلب الملك، ورفرف السلام على المملكة

١٤- هرقل وأومفاليه

وذهب هرقل يزرع الأرض، ويشترك في حملة الارجونوت ضد السنتور، وأنضم إلى الإغريق في حصارهم الأول لطروادة

ولقى رجلاً ذا خيلاء وكبر فقتله ظالماً، وكان زيوس ينظر من علياء الاولمب، فعبس وبسر، وقضى أن يظل هرقل في خدمة وإمغاليه ملكة ليديا بضع سنين

وتجهم هرقل، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهة للملكة، حتى راعه جمالها، واستهوته مفاتنها، وأحس للمرة الأولى في حياته المشحونة بالمخاطر أن قبساً يتأجج في قلبه يوشك أن يجعله ضراماً.

وحلا في فمه ما مر من الذل، وطلب ما كره من العبودية وود لو قضى الحياة في ظلال هذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم بال. ولكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى.

١٥- زواج هرقل

وطوف هرقل في أقصى الأرض حتى انتهى إلى كاليدون مملكة أونيوس، ولقى ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور في خميلة غناء. وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل، وكان لسانه قد أنحلت عقدته عن وحي الهوى، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها، وينمق

لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى، وتهتف بالخضرة والحمرة، وتصافح الروح بالعبير الفياح

وأنست ابنة الملك بهرقل واطمأنت إليه، وبثها وبثته، وتشاكياً ما شاء لهما الغرام الروى، والحب الفتي، والدمع المسكوب!

وعلم منها أن أخيلوس، أحد آلهة الأنهار، قد خطبها إلى والدها وأن الملك قد أجابه إلى ما أراد:

"فهل أسعد بأن تزيح هذا الكابوس عن قلبي،"

"وتقف حائلاً بيني وبين الشقاء الذي يتربص بي،"

"فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب، ويرفلان"

"في برد السعادة، ويتغنيان مع الطير"

"اللحان الهوى والحياة.. .. .."[1]

هكذا بكت ديانيرا إلى هرقل، فهاجت في قلبه نخوة البطولة ونحيزة المغامرة، وأطلقت في كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال:

"قرى عينا أيتها الحبيبة فليس أيسر"

---

(1) هذه السطور من سوفوكليس في مأساته الخالدة "عذارى تراقية".

"على هرقل من حرب الآلهة، لقد صرعتهم"

"جميعا في حفل الأولمب، وقد مر بي من المغامرات"

"ما ينخلع من بعضه قلب أخيلوس. . . ."[1].

وأستأذن هرقل على الملك، وحيا أحسن تحية، ثم طلب يد ديانيرا.. وكان أونيوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وأمرائها، وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم، فلما تقد إليه هرقل استبشر وقال: ".. لقد كنت يا بني وعدت أخيلوس أن يبنى على ديانيرا، وهو من تعلم في الحول والطول والجبروت، لكنى مع ذلك لا أفضله عليك، بل نجعل لكما يوماً تلتقيان فيه، فمن يصرع صاحبه كان كفؤاً لديانيرا".

وقبل هرقل، ورضى أخيلوس، وأجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع العظيم بين الجبارين العنيدين.. وكان كل واثقاً بنفسه، لا يخامره أدنى شك في أنه فائز على صاحبه. فلما تقابلا، ثار من حولهما النقع، كانت أنظار الناس كأنها متصلة بسواعدهما بأمراس شداد، وبعد قليل أخذت الأرض ترتجف من تحتهما، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير.. وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تغص بريقها أشغافاً على هرقل، وكان هو كذلك، كلما خارت قواه، نظر إليها النظرة فتتجدد بها

([1]) هذه السطور من سوفو كليس في مأساته الخالدة "عذارى تراشينيا".

روحه وتتضاعف قوته ويمتلئ قلبه بالآمال.. وكان أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل، وكان يستطيع أن يتشكل بأي خلق أراد، فجعل يتقلب من ثعبان ضخم الجثة، إلى تنين عظيم الجرم، إلى أسد بادي النواجذ، إلى.. ما شاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع.. ثم أنقلب إلى عجل جسد ذي قرنين كبيرين، وشرع ينطح هرقل، وهرقل يتقيه، حتى أستطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه، وجعل يخبط برأسه الأرض في عنف وغل، حتى كسر أحد القرنين وفر اخيلوس من الميدان هارباً.. لا يلوى على شيء..

ودوى الملعب بالتصفيق، واندلعت الحناجر بالهتاف، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الأعناق.. وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلة فردوسيه خالدة، لا يزال صداها يرن على شفاه المحبين..

وتم العرس.. وانطلق هرقل بزوجه يجوب الأفاق.

وحدث أن أعترضه نهر عظيم لم يستطيع أن يعبره ومعه ديانيرا. فبينما كان يعمل فكره كيف يقتحمه، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجته فيعبر بها إلى العدوة الثانية سالمة آمنة، ثم يرتد فيحمله إليها كذلك، وقبل هرقل، ونسى ما كان بينه وبين السنتور عداوة وبغضاء، وحرب قديمة تدمى لها قلوبهم، وتقرح نفوسهم، وأعان هرقل زوجته فاستوت على ظهر السنتور، وخاض بها الماء وهو يطفر من الفرح، ويحلم بالمني والآمال. فما كاد يبلغ الشاطئ الأخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمناجاة من سهام

هرقل. ولكن ديانيرا صرخت صرخة مدوية نبهت ما غفل من سمع زوجها، فلما فطن إلى خيانة السنتور، شد قوسه العظيمة وأرسل إلى دبر السنتور سهماً مراشاً كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى!

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته، وبرودة الفناء في جسمه البدين، فأقسم ليكيدن لهرقل فيذيقه من هذا السم الذي سقى به سهامه ما يدوى به. فقال لديانيرا: "أيتها الفتاة! لا تثقي أن حب هرقل دائماً لك، بل أكبر الظن أنه منصرف عنك إلى فتاة أخرى تكون أسبى وأصبى. وما أحسبك إلا ذاكرة كيف كان يتأبى في حب وإمغاليه. فخذي قميصي هذا فاحفظيه لديك، حتى إذا أحسست من زوجك جفوة، أو رأيت فيه ازورارا، فابعثي به إليه ليلبسه، وألقى في روعه أنه يحفظه من أعدائه، فأنه أن فعل، عاد إليك بقلب مفعم بالحب، ونفسي ملتاعة كلها شوق وتوق.."، ثم خر السنتور ميتاً!

وأخذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة، وفي نفسها من الهم شيء عظيم! "من أومغالية هذه؟! كان يحب أومغالية؟ كان يحب فتاة غيري؟ وحق زيوس لأسالته! ها هو ذا قد سبح غلى الشاطئ!"

ولقيته فسألته، فاعترف لها بكل شيء، وطمأنها على محبته وإخلاصه... ولكن قلب المرأة لا يعرف هذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة! فقد ظل الوسواس يدب في نفس ديانيرا، حتى كان هرقل في أحدى جولاته، وكانت في نفس ديانيرا، حتى كان هرقل في أحدى

جولاته، وكانت هي عند أبيها ملك كاليدون، فطالت غيبته، وذهبت بها الظنون من أجل ذلك كل مذهب

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور، فنهضت من توها وأرسلته مع أحدى وصيفاتها[1] إلى هرقل في منآه البعيد. وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما وسوس به السينتور. فلما لبسه هرقل، التصق به التصاقاً، وأخذ السم يشيع في جسمه الحديدي فيذيبه ويفتته..

وصرخ البطل بلا جدوى! وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق، ولحمه يتهرأ، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت... ثم أخذت نفسه تساقط أنفساً.. وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل في دموع وآهات حارة...

ولفظ نفسه الأخير وهو يبكي ويقول: "فدى لك نفسي.. يا.. ديا.. نيرا!"

"وهوى إلى الأرض ما كان من الأرض، ورفرفات"

"الروح الكبيرة في جمهرة من أرواح الآلهة التي أقبلت"

"من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم. والكل ضاحك"

"مستبشر أن ألقى أخوهم حمله الثقيل، وخرج الأولمب"

([1]) في أحد المصادر أنها أرسلت خادمها الصناع ليخاس

"جميعاً يستقبل البطل ويهتف باسمه في عليين[1]"

وحمل الجثمان الطاهر إلى جبل أويتا، حيث دفن في إجلال وإعظام، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها الغزير..

---

(1) هذه السطور من شللر الألماني. وفي بعض المصادر أن الذي أثار الغيرة في قلب ديانيرا، أنها سمعت أنه عاد إلى أحدى صويحباته مسموم لما أرسلت به إليه

التوت الأبيض والتوت الأحمر أو.. (بيرام وتسبيه)

كان أجمل شباب بابل، وكانت أجمل حسانها كان فتنة في فتنة، في جسم قوي، وقلب حمى، وخلق حيي، وقوام مفتول، ونفس حلوة ساكنة سجواء[1].. وكانت قسيمة وسيمة خفيفة لطيفة، غضة كالوردة، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين، وترسل شعرها المغدودن[2] على ظهرها العاجي ثارة، وصدرها المرمري أخرى، يداعبه النسيم، وتقبله الآلهة وتنتظم فيه حبات القلوب..

وكان بيتاهما متلاصقين، فكان يراها وكانت تراه، وكان يلقاها وكانت تلقاه، وكانا يتلاعبان في الصغر، طفلين كالملائكة، ثم شبا، فكان ينفران إلى الخلاء والأدغال، ويلتقيان عند النبع القريب، ويتسلق بيرام أشجار التوت الأبيض – ولم يكن التوت الأحمر قد عرف بعد– فيهز أغصانها وأفنانها، ويساقط الثمر الشهي اللذيذ على سندس العشب، رطباً جنياً.. فتأكل تسبيه، وتقر عيناً!!

ثم ترعرعا أيضاً، ودبت الحياة الحلوة الجميلة، حارة متدفقة زاخرة، في قلبيهما الصغيرين، وأخذ الفؤادان الصغيران يثبان إلى الأعين السعيدة

---

(1) ساكنة

(2) المغدودن: الناعم الطويل

الطاهرة يرى كل إلى صاحبه، ويتزود كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب، للأيام المقبلات.

ولم يعرفا أنه الحب، ذاك الذي يخفق في صدريهما أول الأمر ولكنهما عرفاه، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين، حين ألح عليهما، وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء، وأصبى ما يكونان إلى اجتماع، ثم عرفا كيف يتشاكيان، وكيف يتباكيان، وكيف يكون الليل جحيماً حينما يقبل فيفصل بينهما بظلامه، ويجمع بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه، وكيف يكون فردوساً خالداً حينما يجمع بينهما في يقظة أو في منام.

ولم يقو بيرام على عذاب البعد، فاتفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها في الخطبة، ولكن والد بيرام أبى وأستكبر ورفض أن تكون هذه الفتاه التي هي مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده، وكذلك أبى والد الفتاة، ثم شجر الخلاف وأتسع، وكثرت شياطينه، وأحيا عداوات قديمة، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما في قلب الحبيبين ظل على ما كان عليه، بل ألهب البعد الذي جرت إليه الخصومة أوار حبهما، فازدادا هياماً، وذاب غراماً، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً..

ولم يعد يفكر إلا فيها، ولم تعد تفكر إلا فيه، وراح ينظر الشعر يتغنى به برحاءه، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسي ... وراحت هي تبكي وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة،

وترسل أهاتها في صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة الكلمى، تتوسل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين

وتصدعت السماء، وانهمرت شآبيب الرحمة، وأنهل فيض الحنان، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها.. وكانت الغرفة التي ينام فيها بيرام ملاصقة للتي تنام فيها حبيبته تسبيه، وكان يفصلهما جداراً مشترك بين المنزلين المختصمين، فأحدث الزلزال في هذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة فوصل هواء الغرفتين، وحمل كلام الحبيبين، وأخذت موسيقى بيرام وغناءه ينسابان إلى غرفة تسبيه، وأخذ بكاء تسبي وآهاتها تنساب في غرفة بيرام، وأخذت النجوى الحلوة، والشكوى الجميلة، وغزل الكلام، وحنين القلوب، ينتقل في برج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدوها الآهات الملتهبة، وتذهب بها القبلات الحارة، ترف بأجنحتها من أسير، من فم إلى فم..

– تسبيه، تسبيه!

– من؟ يناديني؟

– تسبيه، هو أنا– أنا بيرم!

– من أين تتكلم؟

– من هنا.. ألم تشعري بالزلزلة؟

– آه! شعرت بها في العشاء ليلة أمس

– أنها أحدثت في الحائط الذي يفصل بيننا شقاً.. وأنا أكلمك منه

– بيرام!

– تسبيه!

– أذن لقد رثت الآلهة لحالنا!

– واستجابت دعاءنا يا تسبيه، لقد حركتها موسيقاي!

– أذن كنت تعزف وتتغنى، بينما كنت أبكي وأئن وأذوى!

– لا. ولكني كنت أسكب نفسي دموعاً على أوتار القيثار!

– يا لقسوة هذا الجدار يا بيرام! أنه يفصل بيننا بشدة.

– هو على كل حال أرحم بنا من أبوينا.. أليس قد أنفرج ليصل حديثنا؟

– نشكره جداً يا تسبيه.. وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبي بالتحدث إليك

– بيرام!

– حياتي!

– هل الجنة أجمل من سجننا هذا؟

– أنه أجمل من أنضر الجنان يا تسبيه

– وهذا الظلام! أليس هو أضوا من سنا الضحى؟

– لأننا نتحدث فيه يا أختاه!

– أحب أن أسمع موسيقاك يا بيرام تتدفق في روحي خلال هذا الجدار

– ليس أحب إلي من ذلك يا تسبيه

– أنا لم أسمعك تغني مذ تناكر أهلونا

– سأفعل أن وددت

– وماذا عساك تغني؟

– كل أغنياتي التي ترنمت بها فيك؟

– ألا تغني شيئاً آخر؟

– للآلهة! لأنها أنعمت علي بحبك!

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنهما الليل، وضمهما غاشي الظلام، أحاديث كأوشية الروض، وأفواف الزهر، ونجوى البلابل، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانهما على جفاء الأهل، ولدد الطباع، وقسوة الأيام

ولم يحتملا هذه الحال طويلاً، فلقد شفهما الهوى، وأنحلتهما الصبابة، وفعل الحب في قلبيهما الضعيفين أفاعيله، ففي ليلة سافرة البدر، ساجية النسيم، صمتت فيها الطبيعة، وتكلم القمر، دار بين العاشقين الحديث الآتي:

- تسبيه؟

- بيرام!

- أوشك القمر أن يكون بدراً يا حبيبتي!

- أنه جميل الليلة، وحبذا أن يظل جميلاً الليالي المقبلة..

- أن القمر جميل دائماً... أليس هو ابتسامة هذه الدنيا في ليالي العاشقين؟

- لكنه صامت أبداً... أنه أبكم لا يعي!

- سو... لا تقولي ذلك يا تسبيه... قد تسمعك ديانا فتغضب!

– هل يتكلم؟ هل يفهم؟

– أما أنه يتكلم فحق... لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا.. أنه يتكلم بلسان من فضه يا تسبيه، لسان له رنين حلو في أعماق الروح... ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع آهاتهم...

– خيال شاعر وفلسفته

– بل هو الحق يا حبيبتي! لقد كان يكلمني وكنت أكلمه. وكان يفهمني وكنت أفهمه، كان يكلمني بأراده[1] وأضوائه، وهي لسان صامت ولكنه بليغ لسن، وكنت أكلمه بوجداني مرة، وموسيقاي أخرى، فكان يضحك في الأولى، ويرقص في الثانية.. تسبيه!

– ماذا يا بيرام؟

– أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غداً، في هذا السهل المنبسط..

– غداً؟ وكيف؟

– ولم لا؟ ألا ترغبين؟

– وكيف أرفض؟ أنا أتمنى ذلك..

– إذن سنلتقي

([1]) أشعته.

– وكيف أفعل يا بيرام؟

– تنسرقين إذا نام أهلك... لن يشعر بك أحد..

– وأين نلتقي؟

– عند مقبرة نينوس

– ...؟...

– ألا تعرفينها؟

– مكان رهيب.

– لكنه جميل رائع! سنجلس ثمة بين يدي القمر ونتحدث، ونشفي أنفسنا مما تجد

– وتعزف وتغني؟

– وقد نبكي؟

– .. ؟..

اتفقنا! أليس كذلك؟

– اتفقنا

– أذن أنتظرك، أذا لم أجدك هناك، عند النبع القريب، تحت التوتة البيضاء! وكذلك تفعلين

– أفعل ماذا؟

– تنتظرينني ثمة إذا سبقتني

– ترى ماذا تبتغي ديانا مني؟

– لا شيء.. لا شيء..

ما كان أجملها ليلة سطع في حواشيها القمر، ودحرج لألأة على مياه النبع، ودغدغ[1] بأضوائه العشب وأفنان الشجر، فتبسمت وتضاحكت، ونشر في أجوائها بخوره المتصاعد من مجامر الورد، ومداهن البنفسج، احتفاء بمقدم تسبيه، يا لجمال الطبيعة! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالي هذه الحبيبة التي انسرقت تحت إسدال الظلام، تمشي كالقطاة، وترسل من فوق رأسها خماراً رقيقاً كسحابة الصيف، تستر ما وراءها وليست شيئاً! لقد كانت توجس في نفسها خيفة وهي تدب في سكون الليل، كما يسرى الحلم الجميل في خلد النائم.

وذهبت تطوي الطريق وفي رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة، وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر، ولكنها لم تجد حبيبها عندها.. ترى ماذا

---

(1) الدغدغة: الزغزغة.

عوقه؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلمع في ضوء القمر، كأنه يتلاعب بالسنين والأحقاب، وكأنه يسخر من كل شيء فوق الأرض وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامي، ولكنها أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل، وتصاوير الوهم المريض، ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء، والنبع الذي عندها، فارتدت أليهما لتجلس ثمة، ترتقب زورة الحبيب.

وجلست عند جذع التوتة، وجعلت تحدج الثمر الأبيض، وتشتهي لو سقط منه شيء فتأكله حتى يحضر بيرام.. ثم سمعت دبيباً يقترب، فلم تشك أن بيرام قد أقبل، ونبض قلبها بشدة وانزرفت من عينيها عبرة لم تفكر هذه اللحظة في أن تذرفها.. ثم أبطأ الدبيب.. ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين في أرجاء الدنيا الصامتة الرهيبة، ولكنها لم تر شيئاً، وعادت عفاريت الليل ترقص في وهمها، ولكنها لم تبال، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة، عنيفة مرة أخرى، وهي في هذا وذاك تفكر في بيرام، وتضرب لتأخره أخماساً لأسداس.. ثم ذعرت الفتاة ذعراً كبيراً، وساخت الأرض تحت قدميها المرتجفتين الواهنتين.. ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة ثم تيمم شطر النبع الذي تعرش من فوقه التوتة. ماذا؟ أنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوى من ظمأ ملح وجواد[1] شديد.. وهي تتبهنس[2] مع ذاك كأنها عروس، ولكن عروس من الجن.

---

(١) الظمأ.

(٢) تتبختر.

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح، ولم تحفل بها اللبؤة، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض الدافئ..

لم تصنع اللبؤة شيئاً إلا أنها رأت الخمار الأبيض الذي كانت تسبيه ملتفعة، به ملقى على الأرض، فعاثت فيه، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به، فلوثته بالدم، ثم همهمت نحو النبع فرتوت على مهل، وعادت أدراجها نحو الدغل الذي تركت فريستها لتأتي على بقاياها.

أما الفتاة فقد ظلت تجري حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت في أصلها فراغاً فاختبأت فيه، وراحت تلهث من الذعر والتعب، وتتمنى ألا ترتد اللبؤة أليها... وقد أيقنت أن ديانا ألهه القمر، قد سمعتها حين عابت على البدر عليه وبكمه، فساقت إليها ذاك الوحش في هذا الليل.

ولم يمض وقت طويل على تلك الأحداث حتى أقبل بيرأم وفي نفسه لهفة، وبقلبه قلق، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عندها شيئاً، ووقف قليلاً يبحث عن تسبيه في كل شيء! في شجيرات الورد وفسائل الزنبق، وفي العشب الخائف المذعور حول المقبرة، وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث في السحابة الرقيقة البيضاء التي انتشرت على وجه القمر في هذه اللحظة، مشبهة خمار تسبيه، إذ يكون على وجهها الرقيق الناحل.. ثم ذكر ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء، فأنثني ميمماً شطرها..

"يا للهول! ويا للفزع الأكبر!! ما هذا؟ خمار حريري أبيض؟ لمن هذا الخمار يا تري؟ أو أه! أنه خمارها لا ريب! لقد شهدتها تلتفع به مراراً! يا أرباب السماء! ما هذا الدم؟ وا أسفاه عليك يا تسبيه! لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم! أنا السبب يا حبيبتي! لقد جررت عليك هذا باقتراحي الضال! ألا ليت أمي لم تلدني! أي وحش ضار أغتذى بك يا تسبيه؟ أيها القمر القبيح الأبكم، لماذا أغريتنا بهذا اللقاء؟ أنت تتستر الآن حياء وخجلاً من فعلتك التي فعلت، وكنت بالأمس سافراً متبرجاً! أغرب أيها الأصفر كصفرة الموت، فلا جمال فيك! رد على موسيقاي وأغاني فأنت جبس[1] لئيم لا تستاهل منها شيئاً هات كل ما عندك لي هات! هات دموعي وأشجاني وآهاتي! هات سهدي وعبادتي ومناجاتي! قتلت تسبيه تحت سمعك وبصرك! ما أقساك يا صاحب الليالي المواضي! أوه.. ولكن لا.. أنا الذي قتلتها، ولا ذنب لك يا قمر. أني أستغفرك، أبق كل ذكرياتي عندك، فلا آمن عليها إلا أنت! أما أنا.. فهلم يا حسام أسكن هنا.. في حبة القلب. أرو من هذا الدم الدافئ، فلا أمل لصاحبك في الحياة بعد اليوم".

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله، لا حرصاً على الحياة المرة، ولكن لينظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش، وليتزود من الأثر الذي تركته في الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان..

---

(1) بكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم

ثم أغمد سيفه في صدره وسقط يتجرع غصص الموت!

وهدأ روع تسبيه، فبرزت من مكمنها في أصل الدوحة، لترى من أين كان يتردد في أذنيها هذا النداء الحبيب. وكان شبح اللبؤة لا يزال يتمثل لها فيفزعها في الفينة بعد الفينة، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة لأنها ما شكت مطلقاً في أن النداء هو لحبيبها، لأن الصوت الفضي الذي كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلبها، كان لا يزال يداعب أذنيها الصغيرتين.. ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة في هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة.. فأسرعت وأسرعت!

– من هذا المستلقي على حفافي النبع؟ هو من غير شك ثم أسرعت أكثر من ذي قبل

– بيرام؟! ما هذا؟ السيف في صدرك؟ لمه؟ حبيبي رد علي كلم تسبيه! ها أنا ذي! لم قتلت نفسك يا بيرام؟ آه! هذا الخمار الأبيض! وي أنه ملوث بالدم؟ عاثت فيه اللبؤة الملعونة!

– تسبيه!

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج في صدره، ثم فتح عينيه قليلاً فرأى فتاته تبكي فوق رأسه، فتبسم.. ثم مات!

– بيرام! لا! لا تمت! لا بد أن تعيش من أجلى..

ولكنه مات برغم هذه الأماني

– أذن أنا التي قتلتك يا حبيبي؟ أشهدي يا توتتنا البيضاء!

ثم رفعت بصرها إلى فوق، ولكنها بدلاً من أن ترى الثمر الشهي الأبيض، رأت ثمراً أحمر يقطر دماً قانياً

– أوه! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من حبنا وسعادتنا؟ يا للقسوة! تعالوا يا أهل! تعالوا أيها القساة! فتشوا عن الرحمة في قلوبكم المتحجرة واذرفوا دموعكم علينا.. أحذروا أن تفرقوا بعد اليوم بيننا، فقد ربطت جسومنا المنايا.. لقد أبيتم أن نجتمع في الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت.. وداعاً أيها القمر.. وداعاً فقد ظلمناك!".

ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته في صدرها بعد أن قبلت بيرام الميت قبلة الوداع.. وسقطت تتخبط في دمائها إلى جانبه.. ثم عالجت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل، وشعرها المغدودن، فوق صدره.. ولفظت ثمة آخر أنفاسها

وأقبل أهلوهما في الصباح فبكوا كثيراً، واستغفروا لذنوبهم، ثم أقاموا للحبيبين قبراً واحداً من الرخام الناصع عند حفافي النبع.. تحت التوتة الحمراء!

أدونيس

كان جميلاً كالكأس المترعة.. وله وجه أبيض كالحبب، تتدفق الخمر في دمه، وتكمن في عينيه، وتنثال على لسانه..

رأته فينوس يستحم في بحيرة مزهرة، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلور، يسبح في لجة من لجين!

ولمحها الغلام فخجل واستحيا، وطفق يخصف عليه من أوراق اللوتس.. ولكن الحياء ورد وجنتيه، وصبغ خديه، وفتر ناظريه، وتصبب في شفتيه فاحمرتا! وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة، وعجباً يشيع في الماء..

وسبح إلى الشاطئ المقابل، بيد أن فينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو، فانثنى يريد الشاطئ الأخر، فكانت فينوس عنده كذلك، فارتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطئ المقابل كرة أخرى، ولكن الآلهة العنيدة كانت تسابق الوهم في الوصول إلى أحد الشاطئين، فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بداً من البروز إلى البر، وليكن من أمر هذه الغادة التي تهاجمه بحبها– وهو لا يعرف من هي– ما يكون!

– "أدونيس.. أليس كذلك؟"

– "؟.."

- "ألا تتكلم؟.."

وكانت قطرات الماء البلورية تنحدر على جسمه الرشيق، فمن يدري؟ أهي من ماء البحيرة أم من ماء الخجل!...

- "تكلم يا أدونيس! ألا تعرف من أنا؟.."

- "؟؟.. .. .."

- "أنا التي سجد عند أخمصيها مارس الجبار! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة الأولى التي زلزلت بها أركان قلبه! ألا تصدق؟ أدونيس؟!.."

- "أرجوك.. أن رفاقي ينتظرونني، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا للصيد.."

- "صيد؟.. وماذا تصيدون في هذه البرية الموحشة؟.."

- "الخنازير يا غادة.. أنها متوحشة جداً.."

- "وهي خطرة أيضاً، وكل يوم لها ضحايا.. أدونيس! ألست ترى إلى جمالك الفينان! ألا تشفق عليه من أن يصيبه سفع من شمس هذه البرية المحرقة؟ ألا تقع عن صيد الخنازير القتالة؟.. تكلم! لا تصمت هكذا!"..

- "أرجوك؟"

- ترجوني؟ أنا التي أرجوك يا حبيبي!..

- "...؟؟ ..."

-أراك ارتبكت إذ دعوتك حبيبي؟ وي! ما هذا الحياء، يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس؟ تعال.. هات قبلة!"

- "لا.. لن يكون شيء من هذا! اسمعي! ها هي ذي سلوقياتي تنبح ولابد أن أسرع إليها.. دعيني.. دعيني!"

- "لن أدعك، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تفلت من ذراعي يا حبيبي!.. هات قبلة قلت لك!.."

- "...؟؟ ..."

- "إذن أنال بالقوة كل ما أشتهي! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتي المشتعلتين!"

- "أ.. ر.. جوك أوه.. حس.. بك."

- "فمك جميل شهي، ولكن خديك جميلان كذلك.. ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان!.."

– "... ؟؟... "

– أنفاسك تتضوع من فمك الرقيق، وأنفك الدقيق، فهل فيك حديقة من بنفسج؟.."

– "أر. جوك.. كفى.. كفى سلوقياتي تنبح، ولابد أن اذهب!.."

– "تذهب؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافئ الذي يضمك؟ حقاً أنت غرير!.."

– "أرجوك.. قلت لك!"

– "كل هذه القبل أغمر بطوفانها فمك، ولا تحييها بقبلة؟.. قبلني!.."

– "لا.. لا أقدر.. أرسلي ذراعيك عن عنقي.."

– "أنت لا تقدر؟ آه يا ساذج؟.. أنني لن أفلتك ما دمت تتباله علي!.."

– "أرجوك، دعيني أذهب! أوه.."

– قبلني قلت لك! لن يقهر كبريائي فتى غرير مثلك! إذا قبلتني أرسلتك!.."

– أقبلك؟

– أجل، قبلني يا أدونيس!

– أقبلك كيف؟

– هكذا يا صغيري.. ..

– ..؟ ..؟ .. دعيني أذن!

* * *

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع، فارتجفت ارتجافه هائلة، وخرت إلى الأرض كأنما غشى عليها، وارتبك الفتى الذي لم يألف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو، ثم يذهب إلى صيده بعد. ولكنه لم يدر ماذا يفعل، وعلى كل، فقد طفق يدلك قدميها، ويربت على صدرها، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها، فلما لم تفق، أهوى على فمها الحلو يلثمه.. ويرد إليه دينه من القبل!

وكانت فينوس الخبيثة تحس وتصمت.. ولا تأتي بحركة قد تطير بهذه الأحلام السعيدة التي تطيف بها، وتتنزل من السماء الصافية عليها، ألم تكن تضرع إليه من أجل قبلة واحدة؟ فكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القبل؟!

ولم تطق فينوس..

ففينوس ربة ولكنها هلوك! لقد طوقت أدونيس بذراعيها ثم أمطرت فمه الخمري، ووجهه العطري، آلافاً من القبل العذاب، والنولات الرطاب[1].

حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر، وعينين تتقدان اشتهاء، ولكنه كان يصم أذنيه ويغلق أبواب قلبه. وضمته بحرارة وعنفوان إلى ثدييها، فما زادته إلا شموساً وعناداً..

قالت له: "إلا تقبل علي إلا ميتة يا أدونيس؟ أدونيس؟ أيسرك أن أقضي بحبي أذن؟ ألست أعدل عندك خنزيراً برياً؟

أكلما خلعت عليك شبابي ونضرتي وحبي، ألقيت بها في تراب كبريائك غير آبه لدموعي وتوسلاتي؟ أفتح قلبك للحب يا صغيري!!.."

---

(1) لا نستطيع متابعة الموقف، ولكننا نثبت هنا أسطراً من شكسبير الذي لم نعرف فيه تفحشاً، في وصف ما كان بينهما – وذلك من قصته الخالدة Venus and Adonais(مجموعة وأرك ولوك ص ١٥٢٤)

- He will not manage her, although he mount her.. erc
All is imaginary she doth prove,
Her champion mounted for the hot encounter:
Now is she in the very lists of love
He on her belly falls, she on hor back.
She sinketh down, still hanging by his neck,
and on his neck her yoking arms she throws:

والقصة رائعة، وبها أكثر من ثلثمائة بيت في وصف القبل وحدها، ومن لم يقرأها لم يعرف شكسبير القصاص. والنولة القبلة

ولكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها: "أهذا كله عندك هو الحب؟.."

فتنظر في عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما في قرارة نفسه وتسأله: "إذن ما هو يا أدونيس؟"

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها: "إن كنت تجهلين ما هو، فالحب أجل من هذا وأقدس يا غادة.. إنك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره، وروحك للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعاً.. دعيني أذهب إذن.. دعيني.. سلوقياتي تنبح ولا بد أن أذهب إليها.."

وكان ثلجاً ذاب في أعصاب فينوس عندما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها، فتقلصت ذراعاها، وفترت نفسها، وخمدت في قلبها تلك الشهوة الملحة التي سلطت عليها تعذبها وتضنيها.. واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها، فانطلق يعدو كالظليم إلى سلوقياتة التي كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادي النواجذ بارز الأنياب.

وجلست فينوس تنظر إلى أدونيس يعدو، وتجتر كلماته وتتعذب وغفت إغفاءة قصيرة، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد، فهبت مروعة، لأن الصوت كان بصوت

يا للهول!!

أدونيس مضرج بدمه، وعيناه مستسلمتان للموت[1]، وسلوقياته تبكي حوله؟! لقد انقض عليه الخنزير الضاري فمزق لحم الفخذة، وسرى في الدم سم الكلب!

ووقفت فينوس ذاهلة تنظر إلى حبيبها الصغير، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكي.. ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها، وجعلت تقول:

"ألم يكن حباً حبي يا أدونيس؟! يا للقضاء؟! كنت أعرف هذه النهاية، وكنت أشفق عليك منها، ولذا كنت أتشبث بك، وأحاول أن أنسيك بقلبي ودموعي خنازير هذه البرية، ولكنك قلت أن حبي شهوة وصبابتي غلمة، فجنيت على نفسك وعلي!! أوه! يا لبرودة الموت؟ أدونيس؟ أدونيس؟ رد علي يا حبيبي! لقد حسبتني غادة! أنا فينوس أكلمك فرد علي.. آه.."

ولقت به على الكلأ السندسي، وانطلقت تبكي وتنتحب حتى كانت عند عرش الأولمب فقالت تكلم رب الأرباب زيوس العظيم:

– "أدونيس يا أبي!!"

– ماله؟..

---

(1) أقرأ مرثاة شلي (أدونيس) في كيتس، طبعة أكسفورد ص٤٢٥.

– قضى.. قتله الخنزير..

– ومالك مذعورة هكذا؟..

– "مذعورة؟! وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لأذهبن معه إلى هيدز!"

فوقف اله كان يجلس قريباً من السدة وقال: تذهبين إلى هيدز؟! يا للهول! والجمال والحب؟ أيذهبان في أثرك إلى دار الموتى؟ وهذه الدنيا يا فينوس؟"

– "هذه الدنيا تنعى من بناها.. تخرب.. لا زهر.. لا شفق.. لا طير.. لا موسيقى.. لا خمر.. لا حب.. لا حنين.. لا غزل.. لن تكون دنياكم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبي أدونيس!!"

فسجد الإله الذي تكلم أمام زيوس، ثم نهض وقال له:

– أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاي أن يلبى طلبة فينوس ربة الحب..

فتبسم آلة خبيث كان بالقرب منه، وغمز إليه وقال:

– وربة الجمال يا بن العم!!

وأرسل زيوس العظيم إلى أخيه.. بلوتو.. إله هيدز، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه، ولكن بلوتو كان أحرص علي الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا، فأبى أن يلبى رجاء أخيه.. فألح عليه، فلم يقبل..

ثم اتفق الأخوان، زيوس وبلوتو، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة، فيقضى ستة أشهر في هيدز، أشهر الخريف والشتاء، وستة أشهر في الدنيا، حيث تأخذ زخرفها في الربيع وتؤتى أكلها في الصيف!!

ولما لقيت فينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له:

"أتستطيع اليوم تعريف الحب؟". فقال أدونيس: "هاتي قبلة يا فينوس.. هاتي قبلة.. هاتي ألف قبلة.."

فهرس